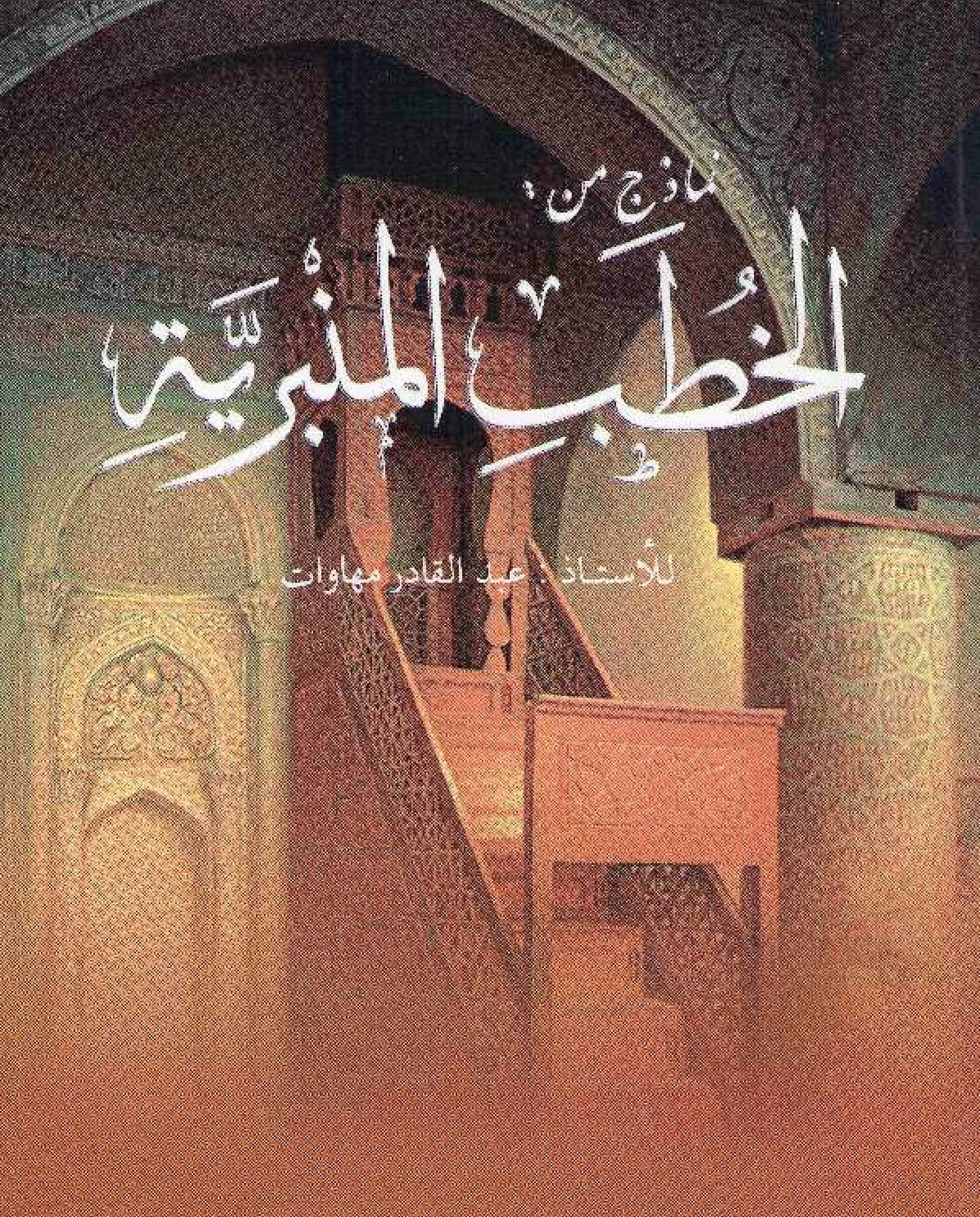


نماذج من

الخطب المنبرية

للأستاذ : عبد القادر مهاوات

مطبعة الوليد

نمـــــاذج من:

الْخُطَـبِ الْمَنْبَرِيَّـــةِ

التي ألقاها الأستاذ: **عبد القادر مهاوات** بمسجد عمر بن الخطاب

بحي أولاد أحمد، بلدية الوادي، ولاية الوادي بالجنوب الشرقي الجزائري

إهـــــداء

إلى الوالدين العزيزين بِرًّا وإحساناً .

إلى جدّتي أطال الله عمرها حبًّا وعرفاناً .

إلى زوجتي إخلاصاً ووفاءً .

إلى قُرَّةِ عيني ابني أحمد ياسين عطفًا وحنانًا .

إلى أشقائي وشقيقاتي وأقاربي وأصهاري صلة وتكريماً .

إلى أصدقائي وزملائي رفاق الدرب في طلب العلم والعمل والدعوة مودةً وأخوةً .

إلى معلميَّ وأساتذتي وشيوخي الذين درَّسوني في جميع أطوار حياتي العلمية من الكُتَّاب إلى الجامعة احترامًا وتقديرًا .

إلى رواد مسجد "عمر بن الخطاب" .

إلى علماء الأمة ودُعاتها وحاملي همّها والعاملين لأجل قضاياها .

أُهدي هذا العمل المتواضع .

التعريف بالمؤلِّف

- عبد القادر بن خليفة بن الساسي مهاوات، من مواليد 20جانفي1978م بالوادي، من جنسية جزائرية، متزوج وأب لطفل.

- حائز على شهادة الليسانس في العلوم الإسلامية في جوان2000م، تخصص الفقه وأصوله، من كلية أصول الدين والشريعة والحضارة الإسلامية بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة، وحَظِيَ بتكريم فخامة رئيس الجمهورية السيد: "عبد العزيز بوتفليقة"؛ لحصوله على المرتبة الأولى في دفعته على مستوى الجامعة.

- نال شهادة الماجستير في العلوم الإسلامية في جوان2005م، من الجامعة والكلية نفسيْهما، بتقدير "جيد"، وكان موضوع البحث بعنوان: "تجديد أصول الفقه عند الدكتور حسن الترابي"، بإشراف الدكتور "نذير حمادو".

- أهم الوظائف التي شغلها:

1- خطيب ومدرس بمسجد عمر بن الخطاب، بحي أولاد أحمد بمدينة الوادي.

2- أستاذ بمعهد الآداب واللغات بالمركز الجامعي بالوادي.

3- أستاذ لعلوم الشريعة بالتعليم الثانوي بعدد من ثانويات ولاية الوادي.

- مِنْ إنتاجه وإسهاماته العلمية والدعوية:

1- بحثٌ علميٌّ أنجزه رفقة زميله الأستاذ "إبراهيم ربح الله"، بعنوان: "التنظير الأصولي بين المنهج التراثي وفكر التجديد"، وأصْله مذكرة ليسانس تطوعيَّة، قُدِّمَتْ لقسم الفقه وأصوله بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، ونُوقشت عَلَنًا في: 25جوان2000م، برئاسة الدكتور "مصطفى باجو"، وأُجيزت بتقدير "مشرف جدًّا".

2- مقالٌ يكتبُهُ أسبوعيًّا على صفحاتِ جريدةِ "الجديدِ" الأسبوعيةِ الجزائريةِ الشاملةِ.

3- ضيف دائم على برنامج "الدين والحياة" الذي يُبث عبر أثير "إذاعة سوف" المحلية، يناقش فيه أسبوعيًّا مع مُعِدِّ البرنامج الأستاذ "العيد بلالي" قضايا المجتمع من منظور شرعي.

4- محاضراتٌ ألقاها في ندواتٍ وملتقياتٍ محليَّة عُقدت بولاية الوادي في مناسباتٍ مختلفةٍ، إضافة إلى إقامة عدة دورات في "علم المواريث".

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ الحمدَ لله، نحمَدُهُ ونستعينُهُ ونستغفرُهُ ونتوبُ إليه، ونعوذُ بالله من شرورِ أنفسِنَا ومن سيئات أعمالِنَا، مَنْ يهدِه اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هاديَ له، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُهُ ورسولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران:102].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء:01].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب:70-71].

أما بعد: فهذه نماذجُ من الخطب المنبريةِ التي ألقيتُها بمسجد "عمر بن الخطاب" بحي أولاد أحمد ببلدية الوادي، ولاية الوادي بالجنوب الشرقي الجزائري، وكان الإلقاء في الفترة الممتدة من سنة: 1423هـ/2003م، إلى سنة: 1429هـ/2008م، حيث عملتُ -ولا زلْتُ لحدِّ كتابةِ هذه الأسطرِ- خطيبا متطوِّعا بترخيص من مديرية الشؤون الدينية والأوقاف لولاية الوادي.

وغَرَضِي الأساسُ من عرض هذه النماذجِ من الخطب للنشر هو تحقيقُ الأمورِ الآتية:

1- مساعدةُ إخواني من الأئمة المبتدئين؛ حيث إن وجودَ هذه النماذجِ وأمثالِها مِمَّا هو منشورٌ بين أيديهم تُعينهم على نسْج الخطبِ على مِنوالها، ومعالجةِ القضايا المختلفة على نَسَقِهَا.

2- الاستجابةُ لدعوة عددٍ من إخواني الأئمةِ الذين هم في الميدان الدعويِّ عندما أحسنوا بي الظنَّ بإعطائهم ما طلبوه منِّي وهو: طريقتي الخاصةُ في معالجةِ مجموعةٍ من المسائلِ الأخلاقيةِ والاجتماعيةِ والفكريةِ والفقهيةِ والمتعلقةِ بالرقائقِ والتزكيةِ، التي كنتُ قد تعرضتُ لها في خطبي بالمسجد المذكور آنفًا.

3- إثراءُ المكتبةِ الجزائريةِ خاصةً، والعربيةِ والإسلاميةِ عامةً، بكتاب يَحْوِي مجموعةً من الخطب على النمطِ الجزائريِّ، وبقلمٍ جزائريٍّ؛ ذلك أن أغلبَ ما وقفتُ عليه من كُتب الخطبِ المنبريةِ المنشورةِ صادرٌ عن علماءَ ومشايخَ ودعاةٍ وأئمةٍ من دول المشرقِ العربيِّ.

4- المساهمةُ نسبيًّا في حلِّ مشكلة رُوتِينِيَّةِ التطرُّق للمواضيع الْمَوْسِمِيَّة التي تُواكب المناسباتِ الدينيةَ والوطنيةَ، وكذا التي تعالج قضايا اجتماعيةً وأخلاقيةً لا بُدَّ من التذكير بها من حينٍ إلى آخَرَ؛ وذلك بِمَدِّ الإخوةِ الأئمةِ بالزَّاوية التي عالج من خلالِها المؤلِّفُ تلك المواضيعَ، لإحداث نوعٍ من التجديد لديْهم عند التكلُّمِ عنها بيْن يديْ مأمُوميهم، الذين ربما سمعوا منهم مِرَارًا المواضيعَ السابقةَ مطروقةً من زاويتِهِمْ هُمْ فقط؛ وهذا من شأنه أن يحقِّقَ الْحُسْنَيَيْنِ معًا: مواكبةُ

تلك المناسباتِ بالكلام عنها وتفعيلِ ذِكْرَاها، وإفادةُ المستمعِ بوِجهة نَظَرٍ أخرى للمواضيع السابقةِ نفسِهَا؛ مِمَّا يرفعُ عنه السآمةَ والمللَ.

5- تعميمُ الفائدةِ الواردةِ في تلك الخطب عندما تصلُ مكتوبةً لسائر القـــراءِ، سواء الإخوة والأخوات الذين سمعوها وشهِدوها معي مباشرةً، فتكـــون لهـــم بمثابة التذكرةِ وترسيخِ ما سمعوه في الأذهـــان، أو الـــذين لم يـــسمعوها و لم يشهَدوها، فتكون بمثابة الأمرِ الجديدِ بالنسبة إليهم، خاصة وأن بعض الإخـــوة المنضبطين معي في حضور الدرسِ الأسبوعيِّ الذي أُلقيه في مسجد"عمر" كـــلَّ يوم "ثلاثاء" فيما بين المغربِ والعشاءِ يتعذَّر عليهم حضورُ الجمعةِ بهذا المسجد؛ لاعتباراتٍ مختلفةٍ، وهم يَوَدُّون أن يطَّلعوا على ما تضمَّنته خطبي.

ويحسُن بي في هذه المقدمةِ أن أشير إلى الأمور الآتيةِ؛ حتى تتضحَ صورةُ هذا المشروعِ المبارَكِ -بإذن الله جلَّ وعلاَ- عند القارئِ الكريمِ:

1- اخترتُ في هذا الكتابِ ستًّا وعشرينَ خطبةَ جمعةٍ من الخطب الكثيرةِ التي ألقيتُها بمسجد "عمر" والتي نَافَتْ عن الثلاثمائة خطبة في الفترة المذكورةِ سابقًا، مع خطبتيْ عِيدَيِ الفطرِ والْأَضْحَى. وكان هذا الاختيارُ على أساس أن هـــذه النماذجَ عالجتُ فيها مواضيع يمكن أن يثيرَها الخطيبُ، أو أن يُفِيدَ منها القارئُ في كل زمانٍ وفي كل مكانٍ، وأعرضتُ عن إيراد الخطبِ التي عالجتْ مواضيعَ ذاتَ طابعٍ ظَرْفِيٍّ؛ إذ قد لا يستفيد منها بشكلٍ كبيرٍ إلا مَنْ يسمعُها أو يقرأُها عند معايشةِ ظرفِهَا. وللإشارةِ، فإنَّ بعضًا من هذه الخطبِ نـــشرتُهُ في شـــكل مقالاتٍ على صفحاتِ جريدةِ "الْجَدِيدِ" الأسبوعيةِ الجزائريةِ الشاملةِ.

2- إنَّ ما أوردتُهُ في سائر هذه الخطبِ مكتوباً إنما هو أهم ما ورد فيهـــا، وإلا فإن هناك إضافاتٍ وتوضيحاتٍ خفيفةً، وقصصًا قصيرةً، وأمثلةً واقعيةً، زِدتُها أثناء الإلقاءِ، خاصة وأنني أُلقيها مرتجَلَةً لا مقروءةً من المكتوب.

3- تتميَّز هذه الخطبُ في ثوبها الذي هو بين يَدَيِ القارئِ الكريمِ بضبط الآياتِ والأحاديثِ بالشكل، وكذا ضبطِ الكلماتِ التي يعتقد الكاتبُ أنه يُمْكِــنُ أن يُخْطَأَ في قراءتها بحكم قلَّةِ استعمالِهَا عند الناسِ، أو بحكم بناءِ الفعــلِ فيهـــا للمجهول، ونحوِ ذلك من الاعتبارات التي تدعو إلى ضبط الكلمـــةِ أو بعـــضِ حروفِهَا على الأقل بالشكل؛ لنضمنَ سلامةَ القراءةِ، ومن ثَمَّةَ سلامةَ الفهمِ.

4- اعتمدتُ في صياغة هذه الخطبِ على قناعاتي الخاصةِ، وبَنَاتِ أفكاري التي تولَّدَتْ من طول تَلْمَذَةٍ على أيادي علماءَ ومشايخَ ودعاةٍ، مَحَلِّيِّينَ وعَالَمِيِّينَ، قدامى ومُحدثين ومعاصرين، من ذَوِي الاتجاهاتِ الفكريةِ السُّـــنِّـــيَّةِ المختلفةِ، إنْ في شكل سماعٍ مباشرٍ منهم، أو قراءةٍ في كتبهم ومنشوراتِهم، وكذا تولَّدَتْ من خلال طولِ النظرِ والتفكيرِ في القضايا الاجتماعيةِ المختلفةِ؛ بهدف إيجـــادِ الرُّؤى والحلولِ الشرعيةِ المناسبةِ لها.

5- لم أقسِّمْ نصَّ كلِّ خطبةٍ من الخطب الواردةِ في هذا الكتابِ إلى جزأيْنِ، مع أنني واقعيًّا كنتُ أخصِّصُ الفقرةَ أو الفكرةَ الأخيرةَ مـــن كـــل خطبـــةٍ -في الغالب[1]- للخطبة الثانيةِ؛ حتى لا أقطعَ على القارئِ استرسالَهُ في قراءة الموضوعِ الواحدِ. كما أنني لم أُورِدْ عبارةَ: "أيها الإخوة" أو " أيها الأكارم" ونحوَها من

---

[1]- أقول "في الغالب"؛ لأنني في بعض الأحيانِ أضطرُّ إلى الكلام عن موضوعيْن في خطبـــةٍ واحدةٍ، فأخصِّصُ الخطبةَ الأولى للموضوع الأولِ؛ على أساس أنه هو الأهم عندي، فتكون معالجتُهُ مركَّزةً بقدر الإمكانِ، وأخصِّصُ الخطبةَ الثانيةَ للمعالجة المختصَرَةِ للموضوع الثاني.

العبارات التي ينبغي أن يستعملَهَا الخطيبُ؛ ليحسِّسَ المأمومَ بأنه هو المخَاطَـبُ بكلامِهِ؛ للغرض السابق ذاتِه، لا سِيَّما وأنَّ المقصودَ ههنا القراءة من المكتوب، لا الاستماع للخطاب.

6- لم أُثْبِتْ لجميع الخطبِ الدِّيَاجَةَ المشتمِلَةَ على حَمْدِ اللهِ تعالى والثناءِ عليه، والصلاةِ والسلامِ على النبيِّ ﷺ، والتذكيرِ بتقوى اللهِ تعالى، كما هو مَسْنُونٌ في الخطبة؛ وذلك حتى لا أُثقلَ على القارئ بتكرارها في كل خطبةٍ، لا سِيَّمَا وأنني أَثْبَتُّهَا في مقدمة الكتابِ.

7- اكتفيْتُ في نهايةِ كلِّ خطبةٍ بدعاءٍ قصيرٍ، في جملٍ معـدوداتٍ، علـى أن يكون موضوعُ هذا الدعاءِ مِمَّا يَزِيدُ في خدمة الموضوعِ المطروقِ.

وفي ختام هذه المقدمة: أَمَلي أن يحقِّقَ هذا المؤلَّفُ الأهدافَ التي كُتِبَ مـن أجلها، وأن يكون إضافةً طيِّبَةً في حقل الدعوةِ والثقافةِ، وإنني أهيبُ بـسادتي العلماءِ والمشايخِ وإخواني من الأئمة والقرَّاءِ أن يفيدوني بكل مـا يلاحظونـه عليه؛ حتى أُفيدَ من ملاحظاتهم شخصيًّا في حياتي العلميةِ والدعويةِ، وأن تُؤْخَذَ تلك الملاحظاتُ بعين الاعتبارِ في طبعاتٍ قادمةٍ -إن شـاء اللهُ تعـالى-، واللهَ أسألُ أن يُوَفِّقَ الجميعَ إلى ما يُحِبُّهُ ويرضاه، وأن أَجِدَ هذا الكتابَ ذخرًا لي يوم القيامةِ، وصلِّ اللهمَّ وسلِّمْ على نبينا محمدٍ وعلى آله وصـحبِهِ ومـن تـبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدينِ، وآخرُ دعوانا أنِ الحمدُ لله ربِّ العالمين.

المؤلِّف: عبد القادر بن خليفة مهاوات

الوادي في يوم الخميس: 04رمضان1429هـ/04سبتمبر2008م

الخطبة الأولى

التحذيرُ من ظاهرةِ الغشِّ في الامتحاناتِ

كلما اقتربنا من موسم الامتحاناتِ خاصة الرسمية منها، وبالأخصِّ ما يتعلق بامتحان شهادةِ البكالوريا، إلا ووجدنا أنفسَنا في حاجةٍ إلى تذكير تلاميذنَا وطلبتَنَا بحرمة الغشِّ في الامتحان؛ ذلك أن هذه الظاهرةَ قد أصبحت متفشِّيَةً فيهم، حتى إنَّ بعضَهم أصبح يجعل الغشَّ في الامتحان من حقِّه، فإذا ما وجد الحارسَ الحازمَ الذي يمنعه منه، اعتبرَهُ ظَالِمًا له، ومعتديًا عليه، وأنه لا يريد له الخيرَ، ولا الظَّفَرَ بالنجاح، بل ربما آذى ذلك الحارسَ، وألحق به الضررَ، من خلال الاعتداءِ عليه لفظياً أو جسدياً.

لِنَعْلَمْ جميعًا أن الغشَّ في الامتحانات محرَّمٌ نقلاً وعقلاً:

- أما من حيث النقلُ، فقد صحَّ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: ﴿مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنِّي﴾[رواه مسلم]، فهذا الحديثُ وإن كان قد وَرَدَ في مناسبةٍ خاصةٍ وهي: مرورُ النبيِّ ﷺ في السوق على صُبْرَةٍ[1] من طعامٍ، فأدخل يدَهُ فيها، فنالتْ أصابعُهُ بَلَلاً، فقال: ﴿مَا هَذَا يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ؟﴾ قال:"أصابتْهُ السماءُ يا رسولَ اللهِ". فقال النبيُّ ﷺ: ﴿أَفَلاَ جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ؛ كَيْ يَرَاهُ النَّاسُ، مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنِّي﴾. فرغم ورودِهِ في هذه الواقعةِ الخاصةِ، إلا أن العبرةَ بعمومِ اللفظِ لا بخصوصِ السَّبَبِ، إذ إنَّ كلَّ غِشٍ سواء كان في البيوع، أو أداءِ الأعمالِ والوظائفِ، أو في إسداءِ وتقديمِ النصيحةِ للغير، أو في الامتحانات،

---

[1] – الصُّبْرَةُ من الطعام هي الكَوْمَةُ منه.

يُعْتَبَرُ محرَّمًا من الناحية الشرعيةِ بنص حديثِ النبيِّ ﷺ. وأرجو أن نَنْتَبِهَ لقوله ﷺ: ﴿فَلَيْسَ مِنِّي﴾؛ فإنه عليه الصلاة والسلام يتبرَّأُ مِنَ الذي يغشُّ، وهذا يعني أنه عندما يحتاج إلى شفاعته يومَ القيامةِ –حيث إننا لن ندخل الجنةَ إلا برحمة اللهِ تعالى، وبشفاعة رسولِ اللهِ ﷺ– فَثَمَّةَ يتبرَّأُ منه، ولا يشفع فيه؛ لأنه خرج عن نهجه لَمَّا دخل مُسْتَنْقَعِ الغشِّ، وهذه خسارةٌ ما بعدها خسارةٌ.

– وأما من حيث العقلُ، فإن الإطارَ الكفءَ الذي ننشُدُهُ؛ ليخدمَ الأمةَ في المستقبل، ويجعلَهَا في الطليعة، ويسعى لتنميتها وتطويرِهَا، لا يتكوَّنُ عن طريق الغشِّ، وإنما يتكوَّنُ عن طريق الْكَدِّ والْجِدِّ وسهرِ الليالي وجمعِ العلومِ والنظرياتِ في الصدر، كما أن التلميذَ أو الطالبَ الذي يغشُّ في الامتحان سوف يتعوَّدُ على الغش في جميع المجالاتِ، فيظهر أثرُهُ السَّلْبِيُّ عليه بعد ذلك في حياته العمليةِ والزوجيةِ. ولذا فإن العقلَ السليمَ سيحكم بحرمة الغشِّ في الامتحانات؛ حتى نضمنَ للفرد والمجتمعِ والوطنِ والأمةِ المستقبلَ الطَّيِّبَ الزَّاهِرَ.

وللغش المحرمِ في الامتحانات صورٌ متعددةٌ:

1- الكلام الذي يقوله المتحَنُ لزميله المتحَنِ، أو من الحارس للممتحَنِ.

2- نَظَرُ الممتحَنِ في ورقة زميلِهِ الممتحَنِ، أو انتقالُ ورقةِ أحدِهما إلى الآخَرِ.

3- استعمالُ أوراقٍ خاصةٍ تُخْرَجُ من أماكن مختلفةٍ من لباس الممتحَنِ، بل في أحيانٍ معينة تُخْرَجُ من نَعْلِهِ.

4- استعمالُ بعضٍ من وسائل الاتصالِ الحديثةِ كالهاتف النقالِ والـMP4، في قاعة الامتحانِ أو في دورات المياه.

5- تقمُّصُ شخصيةِ الممتحَنِ الحقيقيِّ من قِبَلِ أحدِ أقربائِهِ أو أصدقائه، وربما رَافَقَ ذلك تزويرُ بطاقاتِ الْهُوِيَّةِ، فتكون المعصيةُ مركَّبَةً من الغش والتزويرِ.

فكلُّ هذه الصورِ المذكورةِ وأشباهُهَا مِمَّا هو ملاحَظٌ في دنيا الامتحاناتِ اليومَ، يُعَدُّ غِشًّا يأثم صاحبُهُ، ولا يُبَارَكُ له بعد ذلك في نجاحٍ أو شـــهادةٍ يتحـــصَّلُ عليْهما من خلاله.

ومِنَ المظاهر المخزِيَةِ للغش في الامتحانات، والتي تشمئزُّ منـــها النفـــوسُ، وتتفطَّرُ منها الأكبادُ، مِمَّا وقفتُ عليها شخصيًّا كمُمْتَحَنٍ أو كحارسٍ، أو مِمَّا بلغني من بعض الثقاتِ ما أسجِّلُ بعضَهُ الآن:

1- حصولُ الغشِّ من بعض الأئمةِ والمربِّينَ والإطاراتِ في امتحان بكالوريـــا الأحرارِ، أو في الامتحانات الْمِهَنِيَّةِ.

2- تعاملُ بعضِ الممتحَنَاتِ -ومنهنَّ المتزوجاتُ، بل المتنقِّبَاتُ- حين الغشِّ في الامتحان مع زملائهن من الذكور دون حياءٍ، وكأَنَّهُنَّ يتعاملْنَ مع الذكور من محارمِهِنَّ.

3- إشرافُ بعضِ الأولياءِ على غش ذويهم، وتشجيعُهم عليه، وتوسُّطُ بعضِهم لأبنائهم لدى الحراسِ؛ ليمكِّنوهم من الغش.

4- إهانةُ اللغةِ العربيةِ لغةِ القرآنِ، بل إهانةُ الآياتِ والأحاديـــثِ، بِرَمْيِهَـــا في دوراتِ المياهِ؛ للتخلص منها بعد استعمالِها، لئلا يُكتشف أمرُهم.

وإذا تساءل الإنسانُ عن سرِّ انتشارِ الغشِّ في الامتحانات، وكذا وجودِ مثلِ هذه المظاهرِ المخزيةِ في أوساط تلاميذِنَا وطلابِنَا، فإنه سوف يُرْجِعُهَا في الأغلب إلى الأسباب الآتيةِ:

1- ضعفُ الإيمانِ: إذ إنَّ الذي يعلم بأنَّ اللهَ يراه، وأنه سيحاسبُهُ ذاتَ يومٍ عن جميع أعماله، فإنه لا يتجرَّأُ على الغش. يقول النبيُّ ﷺ في الحـــديث الحـــسنِ: ﴿اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ﴾[رواه الترمذي].

2- الكسلُ والْخُمُولُ: فإنَّ المجتهدَ يَجدُّ في التحصيل خلال السنةِ الدراسيةِ فيستغني عن الغش، أما الكسولُ الخاملُ لا يَعِي لنفسه إلا عند اقترابِ موعدِ الامتحانات، وحينها يقرِّرُ اللجوءَ إلى الغش؛ ليتمكَّنَ من النجاح.

3- مُحَاكَاةُ الآخَرين ومسايرتُهم في تَجَرُّئِهم على الغش: إذ إنَّ الممتحَنَ أصبح إِمَّعَةً، والنبيُّ ﷺ يقول: ﴿لاَتكونُوا إِمَّعَةً تقولونَ: إنْ أحسنَ الناسُ أحسنَّا، وإنْ ظلمُوا ظلمنَا. ولكنْ وَطِّنُوا أنفسَكم[1]: إنْ أحسنَ الناسُ أنْ تُحْسِنُوا، وإنْ أساؤُوا فلاَ تَظْلِمُوا﴾[رواه الترمذي، وفيه ضَعْفٌ].

4- الخوفُ من الرُّسُوبِ: فإنَّ بعضَهم ربما يكون عنده من الزاد العلميِّ ما يُؤَهِّلُهُ للنجاح، ولكنَّ خوفَهُ من الرسوب يجعلُهُ يَدْخُلُ عَالَمَ الغشِّ؛ ليضمنَ لنفسه -حسب تَصَوُّرِهِ الخاطئِ- النجاحَ، وينسى أنه أغضبَ ربَّهُ سبحانه وتعالى بصنيعه ذاك، بل ربما تسبَّبَ في إقصاءِ نفسِهِ من الامتحان كُلِّيَّةً، عندما يُضْبَطُ متلبِّسًا بغشِّه.

وههنا نُنَاصِحُ آباءَ وأمهاتِ الممتحَنِينَ، وكلَّ مَنْ له تأثيرٌ نفسيٌّ عليهم أن يُذَكِّرَهم بحرمة الغشِّ؛ لأنَّ ذلك من صميم مسؤولياتهم تُجَاهَهم، والتي سيسأَلُهم اللهُ تعالى عنها يومَ القيامةِ، يقول ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[التحريم:06]. وعن ابنِ عمرَ رضي الله عنهما قال سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: ﴿كلُّكم راعٍ ومسؤولٌ عنْ رعيتِه: الإمامُ راعٍ ومسؤولٌ عنْ رعيته، والرجلُ راعٍ في أهلِه ومسؤولٌ عنْ رعيتِه،

---

[1]- وَطِّنُوا أنفسَكم على كَذَا، أي: احْمِلُوهَا عليه.

والمرأةُ راعيةٌ في بيتِ زوجِها ومسؤولةٌ عنْ رعيتِها، والخادمُ راعٍ في مالِ سيدِه ومسؤولٌ عنْ رعيتِه، وكلُّكم راعٍ ومسؤولٌ عنْ رعيتِه﴾[رواه الشيخان].

كما نُنَاصِحُ الحراسَ والمشرفين على الامتحانات أن يتقوا اللهَ جَلَّ وعَلاَ ولا يقصِّروا في أداءِ مهمةِ الحراسةِ والإشرافِ النَّزيهِ عليها؛ حتى يُبَرِّئُوا أنفسَهم أمام ربِّهم من جهةٍ، ومن جهةٍ أخرى حتى يَضْمَنُوا لجميع الممتحَنين التكافؤَ في فرص النجاحِ، وإلا فإنَّ ذلك يُعَدُّ خيانةً للأمانة التي أُسندت إليهم، والله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَخُونُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[الأنفال:27]. ولْيَحْذَرِ الحراسُ وسائرُ المشرفين على الامتحانات، وكذا الْمُجِدُّونَ من الممتحَنين من الإسهام في عملية الغشِّ بطريقة أو بأخرى؛ فإنَّ ذلك معاونةً على الإثم والعدوانِ، والله تعالى يقول: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[المائدة:02].

وأخيراً، أقول لإخواني وأخواتي في الله تعالى من الممتحَنين والممتحَنَات: إنَّ أطيبَ الكسبِ ما يَجْنِيهِ الإنسانُ بعَرَقِ جَبِينِه، وإنه لا بَارَكَ اللهُ في نجاحٍ يأتي عن طريق الغشِّ الذي حرَّمه اللهُ تعالى، بل كيف يؤسِّسُ العاقلُ اللَّبِيبُ الذي فيه ذرَّةُ إيمانٍ مستقبلَهُ على أمرٍ محرَّمٍ؟! ولْيَعْلَمُوا أنَّ النجاحَ الحقيقيَّ في الحياة ليس مقتصِرًا على النجاح في المجالاتِ العلميةِ، فكَمْ من واحدٍ لم ينجحْ في دراسته، ولكنه وُفِّقَ في ميادينَ أخرى من ميادينِ الحياةِ المختلفةِ، وخَدَمَ نفسَهُ وأسرتَهُ وأمتَهُ خدمةً طيبةً، وحَقَّقَ من الأرباحِ الماديةِ والمعنويةِ ما لم يحقِّقْهُ كثيرٌ من أصحاب الشهاداتِ العلميةِ العاليةِ، ﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ

تَعْلَمُونَ﴾[البقرة:216]، و﴿كُلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلِقَ له﴾[رواه أبو داود والترمذي]. ولْنَحْذَرْ من الضغط على أنفسنا وعلى أولادنا بتسمية بعضِ الامتحاناتِ بالْمَصيريَّة؛ فإنَّ المصيرَ هو ما تعلَّقَ بالآخرة، أما الرسوبُ والخسارةُ في امتحانٍ دنيويٍّ فإنَّ أمرَهُ هيِّنٌ. يقول اللهُ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾[الزمر:15].

نسأل اللهَ تعالى أن يبصِّرَنَا بعيوبنا، وأن يُعِينَنَا على إصلاح ما فَسَدَ من أمورنا، وأن يُكْرِمَ الجادِّين من تلاميذنا وطلابِنَا بالنجاح، وأن يُقِرَّ عينَ كلِّ مَنْ كدَّ وجدَّ به، وأن لا يَحْرِمَهُ هو وأهلُهُ لذَّةَ تذوُّقِ طعمِهِ، وأن يجعلَ أيامَ الامتحانِ عليهم بَرْدًا وسلاماً، وأن يوفِّقنا جميعًا إلى ما يُحِبُّهُ ويرضاه. ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[آل عمران:147]. ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الصافات:180-182].

الخطبة الثانية

المخدِّرات آفةُ العصرِ

كلامُنَا اليومَ -إن شاء اللهُ تعالى- عن كبيرةٍ من الكبــائر، ومُهْلِكَــةٍ مــن الـــمُهلكات في الدنيا والآخرةِ. كلامُنَا عن ظاهرة تَنْخرُ المجتمعَ، عندما بدأتْ تنتشرُ في أوساط الناسِ، حتى بلغتِ الكبارَ والــصغارَ، والــذكورَ والإنــاثَ، ووُجدت في المدارسِ والجامعــاتِ، وفي الأوكــارِ والأســواقِ والطرقــاتِ والساحاتِ. كلامُنَا عَمَّا سُمِّيَ اليومَ بآفة العصرِ، حتى إنَّ بعضَ الــدولِ غــيرِ المسلمةِ جعلتْ لِمُرَوِّجِهَا حكمَ الإعدامِ؛ نظرًا لخطورتها العظيمة، ومفاســدِهَا وأضرارِهَا الجسيمةِ على الفردِ والمجتمعِ. إنها ظاهرةُ تعاطي المخدِّرَاتِ، وربمــا يصلُ الحالُ ببعضهم إلى درجة الإدمانِ عليها.

لِنَعْلَمْ أنَّ تعاطيَ المخدِّرَاتِ محرَّمٌ في الشريعةِ الإسلامية، بل إنها من الْمُوبقات وكبائرِ الذنوبِ، دَلَّ على ذلك الكتابُ والسنةُ والمعقولُ:

- أما من كتاب الله تعالى، فإننا نَجدُ قولَ الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُــمْ تُفْلِحُونَ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾[المائــدة:90-91].

ولعلَّ سائلاً يسألُ فيقول: "ما وَجْهُ الدلالةِ من هذا النصِّ القرآنِيِّ، فإنني لم أجدْ ذِكْرَ المخدِّرَاتِ فيه؟" فيُجَابُ بالآتي: نَعَمْ إنَّ مصطلحَ المخدِّرَاتِ لم يَرِدْ في هذا النصِّ القرآنِيِّ ولا في غيره من آيِ القرآنِ الكريمِ، ولكنَّ المخدِّرَاتِ في حكــم

الخمرِ؛ فإنَّ الخمرَ في حقيقته الشرعيةِ هو كلُّ ما خَامَرَ العقلَ، أي: غطَّاهُ وأَذْهَبَهُ وعطَّلَهُ عن وظيفته التي خلقه اللهُ تعالى لأجل القيام بها، وهي التفكيرُ. ومعلومٌ أنَّ المخدِّرَاتِ تفعل ذلك في الإنسان؛ بل بشكلٍ أبشعَ وأشنعَ ممَّا يفعلُهُ الخمرُ، فياليْتَهَا كانت خمرًا؛ فإنَّ الأمرَ يكون أهونَ، ولكنها خمرٌ وزيادةٌ. فإذا كان الخمرُ محرَّمًا بالنص القرآنِيِّ السابقِ الذي وصفه بأنه رجسٌ -أي: خُبْثٌ ونجاسةٌ- من تزيين الشيطانِ، وأَمَرَ باجتنابه وتَرْكِهِ، فإنَّ المخدِّرَاتِ أخبثُ من الخمرِ، فتكونُ أُوْلَى بالحُرمة منه.

- وأما من السنة فنَجدُ قولَ النبيِّ ﷺ: ﴿كلُّ مسكرٍ خمرٌ، وكلُّ خمرٍ حرامٌ﴾[رواه مسلم]. فها هو عليه الصلاة والسلام يُقرِّرُ أنَّ كلَّ أمرٍ أحْدث الإسكارَ في الإنسان فأذهبَ عقلَهُ فهو يُعَدُّ خمراً، سواء كان طبيعيًّا أو مصنَّعًا، وسواء كان مشروبًا أو مأكولاً أو مشمومًا أو محقونًا أو يُتناولُ في شكل سجائرَ، ثم يَحْكُمُ صلواتُ اللهِ عليه وسلامُهُ في نهاية الحديثِ بأنَّ الخمر -وتَدْخُلُ المخدِّرَاتُ فيه على هذا المعنى بقوةٍ- يحكم بأنه محرَّمٌ لا يجوز تناولُهُ وتعاطيه بحالٍ من الأحوالِ.

- وأما من المعقول، فإنَّ المتأملَ في شأن المخدِّرَات سيَجدُ أنها تُفَوِّتُ المقاصدَ الضروريةَ الخمسةَ التي وَضَعَتِ الشريعةُ الإسلاميةُ أحكامًا كثيرةً لأجل الحفاظ عليها. وبيانُ ذلك على النَّحْوِ الآتي:

1- إنَّ المخدِّرَات تُضَيِّعُ الواجباتِ الدينيةَ التي كُلِّفَ بها الإنسان، وعلى رأسها الصلاةُ؛ ذلك أنَّ الْـمُخَدَّرَ يغيب عقلُهُ مدةً من الزمن، فلا يتمكَّنُ من أداء الصلواتِ المفروضةِ عنه في تلك المدةِ، نَاهيكَ عن النوافل من الصلوات والأذكارِ وسائرِ أنواعِ الْبِرِّ والتقوى، كما أنه يُهْمِلُ واجباتِهِ الأسريةَ المتعلِّقَةَ

بزوجته وأولادِه، وههنا فَوَّتَتْ المخدِّرَاتُ مقصدَ الدينِ. وإلى هذا المعنى نَبَّهَ القرآنُ الكريمُ عندما حَرَّمَ الخمرَ. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾[المائدة:91]. بل إنَّ أكثرَ المخدَّرين والمخمورين يَسُبُّونَ الذاتَ الإلهيةَ المقدَّسَةَ، ويَسُبُّونَ الدينَ الحنيفَ، وهم في حالة تخديرٍ أو سُكْرٍ، فيُخْرِجُونَ أنفسَهم من دائرة الإيمانِ إلى دائرة الكفرِ -عِيَاذًا بالله تعالى-.

2- وأما من حيث تفويتُها لمقصد النفسِ، فإنَّ المخدِّرَاتِ ثبت طبيًّا وبالملاحَظة البسيطةِ للمخدَّرين أنها تُحْدِثُ أضرارًا كبيرةً بالجسد، وربما انتقلت عبرَ المخدراتِ بعضُ الأمراضِ الخطيرة. والإحصاءاتُ الرسميةُ وغيرُ الرسميةِ تُؤَكِّدُ أنَّ أكثرَ حالاتِ حوادثِ المرورِ إنما تَقَعُ من المخدَّرين والمخمورين عندما يَسُوقُونَ الْمَرْكَبَاتِ وهم في حالة سُكْرٍ، فيَجْنُونَ على أنفسهم وعلى غيرهم. بل كَمْ من شخصٍ قتلتْهُ المخدِّرَاتُ عندما أَدْمَنَ عليها وتناولَ الكميةَ الكبيرةَ منها إلى أن وصلَ إلى الجرعةِ القاتلة. وكَمْ من جريمةِ قتلٍ وقعتْ، والقاتلُ تحت تأثيرِ المخدِّرَات. والله تعالى يقول: ﴿وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[البقرة:195]. والنبيُّ ﷺ يقول في الحديث الصحيحِ: ﴿لاَ ضَرَرَ وَلاَ ضِرَارَ[1]﴾[رواه مالك في الموطأ].

3- وأما من حيث تفويتُهَا لمقصد العرضِ، فإن المخدِّرَاتِ تُوَرِّثُ في الإنسان الدِّيَاثَةَ؛ إذ إنه بتعاطيه للمخدِّرات يَضْعُفُ فيه الوازعُ الدينِيُّ، وربما مات ضميرُهُ

[1]- منْ معاني هذا الحديثِ: أنَّ الضررَ هو أن يُؤْذِيَ الإنسانُ مَنْ لَمْ يُؤْذِهِ. بينما الضرارُ هو أن يُلْحِقَ الأذى بِمَنْ آذَاهُ على وجهٍ غيرِ مشروعٍ.

وإحساسُهُ، فيرضى الفاحشةَ في أهله، وربما أَكْرَهَ بعضًا من نساء بيتِهِ عليها، بل ربما رَضِيَهَا في نفسه؛ حتى يُمَكَّنَ في لحظةٍ ما من قطعة مخدِّرَات. كما أنَّ الواقعَ يُثْبِتُ أنَّ أكثرَ حالاتِ الزنى واللواطِ والاغتصابِ -أكرمكم الله تعالى- إنما تصدُرُ من المخمورين والمخدَّرين، بل إنَّ حالاتِ زِنَى المحارمِ لا تكاد تَقَعُ -تقريبًا- إلا من هذا الصنفِ من الناس. نَاهِيكَ عن جريمة القذفِ؛ فإنَّ هؤلاء عندما يَسْكَرُونُ يعتدون على غيرهم باتهامهم في أعراضهم والقدحِ في أشخاصهم وسبِّهم وشتمِهم. ولذا سَمَّى سلفُنَا الخمرَ -كما ينبغي أن نُسَمِّيَ نحن اليومَ المخدِّرَات- بأمِّ الخبائث.

4- وأما من حيثُ تفويتُهَا لمقصد العقلِ فهو واضحٌ جليٌّ؛ ذلك أن الواحدَ إذا تناول المخدِّرَ فَقَدَ عقلَهُ كلَّهُ في فتراتٍ معيَّنَةٍ، وإذا أَدْمَنَ عليه فإنه يُضْعِفُ العقلَ تدريجيًّا، إلى أن يصلَ به إلى درجة الجنونِ، وحينها يكون قد نزل بنفسِهِ من درجة الإنسانيةِ إلى درجة الحيوانيةِ -أكرمكم اللهُ تعالى-؛ إذ ما كُرِّمَ الإنسانُ على الحيوان إلا بالعقل. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[الإسراء:70]. هذا إضافة إلى الأمراض النفسيةِ التي تترتَّب على الإدْمان عليه، والتي من شأنها أيضا أن تؤثِّرَ سَلْبًا على وظيفة العقلِ في التفكير السليمِ؛ حيث يصبح الْمُدْمِنُ حبيسَ وأسيرَ المخدِّرِ، لا يستطيع العيشَ إلا به، ولذا فإنه عندما يُوَفَّقُ إلى التوبة منه، لا بُدَّ له من متابعةٍ نفسيةٍ وجسديةٍ مركَّزةٍ من قِبَلِ نفسانيِّين وأطباء؛ حتى يخرجَ من هذا المستنقَعِ بسلامٍ.

5- وأما من حيث تفويتُ المخدِّرَات لمقصد المالِ، فمعلومٌ أنَّ الذي يتعاطاها لا بُدَّ له أن يخصِّصَ جزءًا من ماله لِيَقْتَنِيَهَا، وههنا يكون قد وضع مَالَهُ في غير محلِّهِ

المشروع، ومن ثَمَّةَ سوف يُحَاسَبُ على ذلك حسابًا عسيرًا يومَ القيامة؛ فقد أخبر النبيُّ صلواتُ اللهِ عليه وسلامُهُ في الحديث الصحيحِ الذي يرويه الصحابيُّ الجليلُ أَبُو بَرْزَةَ ﷺ أَنَّهُ: ﴿لاَ تزولُ قَدَمَا عبدٍ حتَّ يُسألَ عنْ أربعٍ: عنْ عمرِهِ فيم أَفْنَاهُ، وعنْ علمِهِ ما فعلَ فيهِ، وعنْ مالِهِ منْ أينَ اكتسبَهُ وفيمَ أنفقَهُ، وعنْ جسمِهِ فيمَ أَبْلاَهُ﴾[رواه الترمذي]. بل إن بعضَهم عندما يُدْمِنُ على تناولها يلجأُ إلى صَرْفِ الأموالِ الكثيرةِ عليها، حتى يَصِلَ به الأمرُ إلى إهمال نفقات أهلِهِ، وربما اضْطُرَّ إلى بيع ممتلكاتِهِ وعقاراتِهِ وأغراضِهِ الخاصةِ التي ما كان يُفَكِّرُ في يومٍ ما في بيعها والتخلِّي عنها.

فبناءً على ما سبق، فإنَّ المسلمَ العاقلَ اللبيبَ الحريصَ على طاعة ربِّه تعالى ونبيِّه ﷺ، والذي يريد أن يضمنَ لنفسه السلامةَ في دينها وكيانِهَا وشرفِهَا وعقلِهَا ومالِهَا، لن يسمحَ لها أن تدخلَ عَالَمَ المخدِّرَاتِ المحفوفِ بالكثير من الأضرار والمخاطرِ والمفاسدِ في الدنيا وفي الآخرة.

ويَجْدُرُ بي في نهاية كلامي عن آفةِ المخدِّرَاتِ أن أُحَذِّرَ إخواني وأخواتي في اللهِ تعالى – وخاصة فئة المراهقين والشبابِ– من أمريْنِ اثنيْنِ:

1- الإقدامُ على تناول الْجُرْعَةِ الأولى أو الكميةِ القليلةِ من المخدِّرَاتِ؛ فإنَّ ذلك يُعْتَبَرُ فاتحةَ شرٍّ عظيمٍ، وخطوةً أُولَى من خطوات الشيطانِ لِيُوقِعَهُ في وَهْدَتِهَا، حيث إنَّ المدمنَ لا يصبح مدمنًا إلا بعد تناولِ الجرعةِ الأولى فالثانيةِ فالثالثةِ وهكذا، حتى يتحوَّلَ من مُتَعَاطٍ إلى مدمنٍ، وهنا تكمُنُ الخطورةُ. أقولُ هذا؛ لأنَّ بعضًا من مراهقينا وشبابِنَا بحكم دافعِ الْفُضُولِ وحبِّ المغامرةِ يتجرَّأُ على الجرعةِ الأولى، ثم يستدرجُهُ شيطانُ الإنسِ أو الجنِّ فيَجدُ نفسَهُ بعد مدةٍ قد جُرَّ إلى مستنقَعِ المخدِّرَاتِ جرًّا؛ ولذا قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا

تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[النور:21]. والنبيُّ ﷺ يقول في الحديث الصحيحِ: ﴿مَا أسكرَ كثيرُهُ فقليلُهُ حرامٌ﴾[رواه أحمد].

2- شهودُ مجالسِ المخدِّرَاتِ ولو من غيرِ تناولٍ لها، أو مصاحبةُ متعاطيها أو المدمنين عليها؛ لأنه حينئذ سيتأثَّرُ بهم شَاءَ أم أَبَى سَلْبًا؛ ولذلك قال النبيُّ ﷺ في الحديث الحسنِ: ﴿الرجلُ على دينِ خليلِه فلْينظرْ أحدُكم مَنْ يُخَالِلُ﴾[رواه الترمذي وأبو داود]. وإضافةً إلى كَوْنِه سيتأثَّرُ بهم ذاتَ يومٍ فيُصبح متعاطيًا لها أو مدمنًا عليها، فإن تواجدَهُ معهم واحتكاكَهُ الدائمَ بهم يدلُّ على أنه راضٍ بما يصنعون من انتهاكِ حرماتِ اللهِ تعالى، وهذا في حدِّ ذاتِه معصيةٌ؛ ولذا أُثِرَ عن الخليفة الراشدِ الخامسِ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ -رحمه الله تعالى- أنه رُفِعَ إليه قومٌ شربوا الخمرَ فأَمَرَ بجلدهم، فقيل له: "إنَّ فيهم فُلانًا كان صائمًا". فقال: "به ابْدَؤُوا، أما سمعتُم قولَهُ تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللّهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً﴾[النساء:140].

أسأل اللهَ تعالى أن يصُونَ أبناءَنَا؛ حتى لا يقعوا في مستنقَعِ الخمورِ والمخدِّرَاتِ، وأن يُوَفِّقَ وُلَاَّةَ أمورِنَا إلى نَشْرِ الفضيلةِ في مجتمعنا، ومحاربةِ مُرَوِّجِي الفسادِ فيه، وأن يُجَنِّبَنَا جميعًا الفتنَ ما ظهرَ منها وما بَطَنَ. والحمدُ للهِ ربِّ العالمين.

الخطبة الثالثة

كيف يُنشِئُ المسلمُ أسرتَهُ على أساسٍ متينٍ؟

لقد حث الإسلام أتباعَه على الزواج وانتدبهم إليه، قال الله تعالى: ﴿فَانكحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُواْ﴾[النساء:03]. بل إن القرآن الكريم أمر الأولياءَ بتزويج مَنْ هم تحت رعايتِهم مِمَّنْ لا زوجَ لهم من الذكور والإناث، قال الله تعالى: ﴿وَأَنكحُوا الْأَيَامَى منكُمْ وَالصَّالحينَ منْ عبَادكُمْ وَإِمَائكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِه وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[النور:32]. والنبيُّ ﷺ أعطى من نفسِه القدوةَ الحسنةَ فتزوَّج، بل إنه عدَّد صلواتُ الله عليه وسلامُهُ.

وحتى يُكتبَ للزواج الدوامُ والاستمرارُ، ويحقِّقَ المقاصدَ النبيلةَ التي لأجلها شُرِعَ، فيتحصَّنُ به الزوجان فلا يَقَعَانِ في الحرام، ويَجِدَانِ فيه الطمأنينةَ والسَّكَنَ الروحيَّ، وتتوطَّدُ به العلاقاتُ فيما بين الْأُسَرِ المتصاهرةِ، وتُنْجَبُ من خلالِه الذُّرِّيَّةُ الطيِّبةُ التي تنشأُ في كَنَفِ الوالديْنِ ورعايتِهما الثنائيةِ، ينبغي أن يُرَاعِيَ فيه مَنْ يريدُ أن يَدْخُلَ فيه، أو مَنْ يريدُ أن يُدْخِلَ أولادَهُ فيه أموراً سنذكرُ أهمَّها فيما يأتي:

1- أن يكون اختيارُ شريكِ الحياة مبنيًّا على أساس الْخُلُقِ والدينِ: فالرجلُ وهو يبحث عن المرأة التي ستشاركُهُ حياتَهُ لا بُدَّ أن يركِّزَ على صفة الدينِ والْخُلُقِ؛ وذلك بأن تكونَ محافظةً على صلاتها، ومعروفةً ببرِّ والديْها، وحُسْنِ علاقاتِها بِمَنْ تُخالطهم من الناس، مرتديةً لحجابها بمواصفاته الشرعيةِ، هذا

الذي لا يمكنُ أن يتنازلَ عنه في المرأة، أما ما تعلَّقَ بالجمال مثلاً، فإنْ كان فيها فَبِهَا ونِعْمَتْ، وإلا فإنَّ دينَ المرأةِ المتينَ، وخُلُقَهَا الفاضلَ، سوف يُحَسِّنُهَا ويُجَمِّلُهَا. أما لو ركَّزَ الرجلُ على الجمال -كما يصنع عددٌ معتبَرٌ من الشباب اليومَ- متناسيًا أمرَ الدينِ والْخُلُقِ، أو مُسْتَبْسِطًا شأنَهما، فقد أخطأَ التصرُّفَ، وفي الغالب يُعَرِّضُ زيجَتَهُ للزوال والاندثار. يقول النبيُّ ﷺ في الحديث الصحيح وهو يُعدِّد مقاصدَ الناسِ من الارتباط بالمرأة عن طريق الزواجِ: ﴿تُنْكَحُ المرأةُ لأربعٍ: لمالِها ولِحَسَبِهَا ولجمالِها ولدينِها، فَاظْفَرْ بذاتِ الدينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ﴾[متفق عليه]. وقولُه صلواتُ اللهِ عليه وسلامُهُ: ﴿تَرِبَتْ يَدَاكَ﴾ فيه دعاءٌ بالفقر على مَنْ لم يجعلِ الدينَ من أهدافه في الزواج.

وما قيل عن الرجل يُقال أيضًا عن المرأة، فالمرأةُ وأولياؤُها عندما يتقدَّمُ إليهم مَنْ يخطُبُهَا، فلا بُدَّ أن يُرَاعُوا فيه صفةَ الدينِ والْخُلُقِ، كأنْ يكونَ من رُوَّادِ المسجدِ، متحرِّيًا الحلالَ في تعاملاته الماليةِ، حَسَنَ السيرةِ والسلوكِ، بعيدًا عن مواطن الشُّبَهِ، ونَحْوِ ذلك من السِّمات التي تدلُّ على متانةِ دينِهِ وسماحةِ أخلاقِه، ولا يَهُمُّ كثيرًا بعد ذلك كونُه غنيًّا أم لا، أو صاحبَ وظيفةٍ قارَّةٍ أم لا، وفي هذا المعنى يقول النبيُّ ﷺ في الحديث الحسن: ﴿إذَا خطبَ إليكُم مَنْ ترضوْنَ دينَهُ وخُلُقَهُ فزوِّجُوهُ، إلاَّ تفعلوا تكُن فتنةٌ في الأرض وفسادٌ عَريضٌ﴾[رواه الترمذي]، وقد جاء في الأثر: "زَوِّجْ ابنتَك مِنْ تقيٍّ؛ إنْ هو أحبَّها أكرمَها، وإنْ هو كرهَها لم يظلمْها."

وأَغْتَنِمُ الفرصةَ ههنا لأَنصح كلَّ شابٍّ أو شابةٍ: أنه عند إرادة النظر في الخطبة إلى الطَّرف الآخَر، وقبل أن ينعقد ذلك المجلسُ الذي سيُبْدي فيه كلُّ واحدٍ منهما رأيَه النهائيَّ في الارتباط بالآخَر، أن يَعْلَمَ كلٌّ منهما عن الآخَرِ

الكثيرَ من أخبار دينِه وخُلقه؛ حتى يجعلَه ذلك عند النظر يُغلِّب هــذا الجانــبَ المعنويَّ الأهمَّ عن سائر الجوانبِ المادية والجماليةِ.

2- استخارةُ اللهِ تعالى، واستشارةُ الخبراءِ الثقاتِ عند إرادة الارتباط بالشخص المعيَّن: فإن تفويضَ الأمر إلى الله تعالى في الزواج عن طريق الاستخارة، وكذا الاسترشاد بعقول ونظرة أصحابِ الدينِ والمعرفةِ بالشخص، ممَّا يجعل الاختيارَ صائبًا، والمشروعَ مباركاً. فإذا كان النبيُّ صلوات الله عليــه وســلامه يعلِّــم الصحابةَ الاستخارةَ في الأمور كلِّها -كما صحّ عنه ذلك عند البخاري مــن طريق الصحابيِّ الجليلِ جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رضي الله عنهما-، فهو يحُثُّهم علــى صلاة الاستخارة حتى في الأمور البسيطة، فما بَالُكَ إذا كان الأمــر متعلِّقًــا بالميثاق الغليظ الذي هو الزواج، لا سيَّما وأنه مشروعُ حياةٍ، فإن الاســتخارةَ فيه تتأكَّد. وأمرُ صلاةِ الاستخارةِ بسيطٌ من حيث الأداءُ؛ فإن الْمُقْبِلَ علــى خطبةِ امرأةٍ معيَّنَة، وكذا المرأة التي يتقدَّم إليها رجلٌ معيَّنٌ، يَتَحَيَّنُ كلٌّ منــهما الوقتَ الذي تَحِلُّ فيه النافلةُ، كالليل كلِّه، أو وقتِ الضحى، أو في ما بيْن وقتيِ الظهرِ والعصرِ، ويصلي ركعتيْن من غير الفريضة، يقرأُ فيهما بما شــاء بعــد الفاتحة، وبعد أن يخرُج من الصلاة بالتسليم، يبقى جالسًا في موضع صــلاته، ويأتي بهذا الدعاء المأثور عن النبيِّ ﷺ على ظهر قلبٍ -وهو الأفضل- أو قراءةً من مكتوبٍ: «اللهمَّ إني أستخيرُك بعلمِك، وأستقْدرُك بقدرتك، وأسألُك من فضلك العظيمِ؛ فإنَّك تَقْدِرُ ولاَ أَقْدِرُ، وتعلمُ ولاَ أعلمُ، وأنتَ علاَّمُ الغيــوبِ. اللهمَّ إنْ كنتَ تعلمُ أنَّ هذا الأمرَ -ويُسَمِّيهِ باسمه: زواجي من فلانٍ أو فلانة- خيرٌ لي في ديني ومعاشي وعاقبةِ أمري وعاجلِه وآجلِه، فَاقْدُرْهُ لي، ويسِّرْه لي، ثمَّ باركْ لي فيه. وإنْ كنتَ تعلمُ أنَّ هذا الأمرَ-ويُسَمِّيهِ أيضًا- شــرٌّ لي في ديــني

ومعاشي وعاقبةِ أمري وعاجِله وآجِله، فاصْرِفْهُ عنِّي، واصرِفْني عنه، واقْدُرْ لي الخيرَ حيثُ كانَ، ثم رَضِّنِي بِهِ﴾[رواه البخاري]. وبعد الاستخارةِ يفعل الذي ينشرحُ إليه صدرُه، وتتيسَّر أسبابُه.

ومع الاستخارةِ الاستشارةُ، بحيث يقصدُ صاحبُ الشأنِ مَنْ يثقُ فيه من أهل الدين والفضل، ممَّنْ له معرفةٌ ودرايةٌ بالشخص الذي سوف يُؤخذ رأيُهُ فيه، ويسأله؛ عملاً بقول الله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾[الشورى:38]. فإنْ شجَّعه على المُضِيِّ في هذا المشروعِ مَضَى، وإلا فإنه ينبغي عليه أن يُحْجِمَ عنه. ويجبُ على مَنِ استُشيرَ أن يُخلص في النصيحة، بحيث يذكُرُ كلَّ ما يعرفُه عن هذه الشخصية بنزاهةٍ تامةٍ، ولا يتحرَّج من ذِكْرِ العيوبِ والْمَثَالِبِ؛ فإن ذلك لا يُعَدُّ من باب الْغِيبَةِ المحرَّمةِ شرعًا، وإنما هو من باب الإخلاص في النصيحة التي قال عنها النبي ﷺ في الحديث الصحيح: ﴿الدينُ النصيحةُ﴾ قال الصحابةُ ﵃: لِمَنْ؟ قال: ﴿للهِ ولكتابِه ولرسولِه ولأئمةِ المسلمين وعامَّتِهم﴾[رواه مسلم]. وقد جاء في الأثر أنه: "ما نَدِمَ وما خَابَ مَنْ استخَار الخالقَ، وشَاوَرَ المخلُوقين."

3- أن يَتَّقِيَ المتزوِّجُ اللهَ تعالى في مراسيم خِطبتِه وزواجِه: فالخاطبُ ينبغي أن يعرفَ بأنَّ مخطوبتَه أجنبيةٌ عنه؛ إذ إنَّ الخِطبةَ ما هي إلا وَعْدٌ بالزواج، وليست زواجًا. لذا يجب أن يتعامل معها كما يتعامل الرجلُ الأجنبيُّ مع المرأةِ الأجنبيةِ عنه، فلا يجوز له أن يصافحَها، ولا أن يصافحَ أمَّها، ومن باب أوْلى لا يجوز له أن يُلامس خدُّه خدَّها، ولا أن يصافح سائرَ قريباتِها من النساء، كما يَحْرُمُ عليه أن يَخْلُوَ بها، أو أن تَظهر أمَامَه بزينتها، أو أن يتصل بها هاتفيًّا من غير قَيْدٍ ولا شرطٍ. أقول هذا؛ لأنَّ بعضًا من الْخُطَّاب -ومِنْ غير مبالاةٍ من أولياء

المخطوبة بحدود الله تعالى- بمجرَّد أن يخطُب المرأةَ يعتبرُ نفسَه أشْبه ما يكـــون بالزوج، فيفعلُ ما سبق ذكرُه، وربما أكثر ممَّا ذُكِرَ كأنْ يصرِف أموالاً كثيرةً في مراسيم الخِطبة حتى إن الناظرَ إليها يعتقد أنه يشاهد مراسيمَ زواجٍ لا مراســيمَ خطبة، أو أن يخرج معها على انفرادٍ بها، أو أن يلتقطَ معها صورًا فوتوغرافيةً أو كَامِرَائِيَّةً، وهي في تبرُّجها وأبْهى زينتِها، وربَّما عَانَقَهَا، ونحو ذلك مما لا يَحلُّ أن يفعلَه الخاطبُ مع مخطوبته. فلْيتق اللهَ الخاطبُ وكذا المخطوبةُ وأُولُوا أمرِها في فترة الخطبة؛ حتى يباركَ اللهُ تعالى فيها، وتُكَلَّلَ بالزواج السعيد الذي تترتَّب عليه الذُّريةُ الطيبةُ بإذنه جلَّ وعَلاَ.

وكما أنَّ في الخطبة مخالفاتٍ شرعيةً، فإنَّ في الزواج مخالفاتٍ أيضا بـــدأت تطغى على زِيجَاتِنَا، حتى أصبحت من العادات الرَّاسخة التي لا يمكن تجاوزُها، رغم أنها غريبةٌ عن أعرافنا، مصادمةٌ لأحكام شريعتِنا، نذكُر أهمَّها فيما يـــأتي؛ حتى تُحْذَرَ:

1- الأغاني الصَّاخبةُ التي فيها دعوةٌ للميوعة والرذيلة، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِـــي الـــدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[النور:19]. وقد أجمع علماءُ المـــسلمين قديمًا وحديثًا على أن الغناءَ المشتمِلَ على ما يدعو للفاحشة من خلال كلماتِ العشقِ والغرامِ، وتصويرِ محاسنِ المرأةِ للرجل، وتصويرِ محاسنِ الرجلِ للمـــرأة، ونحوِ ذلك ممَّا مِنْ شأنه أن يُهيِّجَ الغرائزَ، ويُشيعَ الفاحشةَ في أوساط المسلمين، أجمعُوا على أنه حرامٌ، لا يحلُّ للمسلم أن يقولَه، ولا أن يسمعَه، ولا أن يُحْيِيَ به عرسَه وفرحَه. كما أنَّ في هذه الأغاني إيذاءً للجيران بإسماعهم قَسْرًا ما حرَّم الله تعالى، وإزعاجَ مريضِهم ونائمِهم وعابدِهم وطالبِ العلمِ منهم، والنبيُّ ﷺ

يقول في الحديث الصحيح: ﴿مَنْ كانَ يؤمنُ باللهِ واليومِ الآخِرِ فلاَ يُؤْذِ جارَهُ﴾[رواه أبو داود].

2- خروجُ العروسِ سافرةً متبرِّجةً من بيت أهلِها لِتُزَفَّ إلى بيت زوجِها، فيراها الغادي والرَّائحُ، والقريبُ والبعيدُ، ومثل ذلك السفورِ والتبرُّجِ يُرَى من بعض النسوة مِمَّنْ يشْهدن مراسيمَ العرسِ والزفافِ، والله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾[الأحزاب:33].

3- الإسراف والتبذير في الوليمة؛ إذ إنَّ أكثرَ المتزوِّجين وأهليهم أصبحوا يتكلَّفون فيما يُقدَّم في الوليمة من أطباقٍ ولحومٍ وفواكهَ، بل إنَّ بعضَهم ربما قَصَدَ التباهيَ والتفاخرَ على غيره بذلك، والله تعالى يقول: ﴿وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيراً إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً﴾[الإسراء:27-28]. ويقول أيضا: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[لقمان:18].

4- استعمالُ طلقاتِ البارود التي تترتَّب عليها مفاسدُ كثيرةٌ منها: تبذيرُ المالِ، وإزعاجُ الجيرانِ، وإلحاقُ الضررِ بالآخَرين يَصِلُ في بعض الأحيان إلى درجة إحداثِ الإغماءِ أو الإصابةِ بالصَّمَمِ أو الإجهاضِ، والنبيُّ ﷺ يقول في الحديث الصحيح: ﴿لاَ ضَرَرَ وَلاَ ضِرَارَ﴾[رواه مالك في الموطأ].

أسأل الله تعالى بأسمائه الْحُسْنَى وصفاته العُلى أن يُوفق شبابَنا الذي يريد الزواجَ إلى الاختيار الصائبِ الْمَبْنِيِّ على أساس الدينِ والخلقِ، وأن يجعلنا جميعًا من أهل الاستخارةِ والاستشارةِ، وأن يجعلَ مراسيمَ خِطْبَاتِنَا وزِيجَاتِنَا تُقام على ما يُرضي ربَّنا. والحمدُ لله ربِّ العالمين.

الخطبة الرابعة

منْ فضائلِ القرآنِ الكريمِ وآدابِ تلاوتهِ[1]

إن أعظم ما كُرِّم به النبيُّ ﷺ إنزالُ القرآنِ الكريمِ عليه، هذا الكتابُ الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[فصلت:42]. ولذا فإن المفكرين والعلماءَ في شتَّى ميادينِ العلومِ الشرعية واللغوية والتاريخية والكونية لا يزالون يستخرجون من ذخائره وعجائبه ما يستخرجون، الأمرُ الذي يؤكِّد أنه من عند الله تعالى.

وحيث إنه من عند الله تعالى، فإن الذي يُوَفَّقُ إلى العناية به قراءةً وحفظًا لحروفه، وفهمًا وتدبُّرًا لمعانيه، وعملاً وتطبيقًا لما جاء فيه، فإنه سوف يُحَصِّل خيراتٍ وفضائلَ كثيرةً في الدنيا والآخرة، فمِنْ بيْن تلك الخيراتِ والفضائلِ ما يأتي ذكرُهُ:

1- هدايةُ صاحبه إلى سبيل الصواب والرشاد: يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ هَـذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ

1- من الأفضل أن يُثار هذا الموضوع عند بداية العطلة الصيفية؛ حيث إن الناس يكونون متفرِّغين: طلبةً وأساتذةً وموظَّفين، بل إن أصحابَ المِهَنِ الحرَّةِ في أغلبهم يَقِلُّ عليهم الطلبُ بحكم حرارةِ الطقسِ في فصل الصيفِ، فيجدُون أنفسَهم في عطلةٍ إجباريةٍ، فيغتنم هؤلاء جميعًا الوقتَ الطويلَ في العناية بالقرآن الكريم، فيكون الخطيبُ قد وجَّههم إلى ما فيه خيرُهم في الدنيا والآخرة، وتكون الاستجابةُ منهم –بإذن الله– طيبةً. كما يمكن أن يُثار في مستهلِّ شهرِ رمضانَ الفضيلِ شهرِ القرآنِ الكريمِ، فيتقبَّل المأمُومُون الموضوعَ بصدرٍ رَحِبٍ.

لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً وأَنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾[الإسراء:09-10]؛ ذلك أن القرآن الكريم من خلال قصصه ومواعظه وتشريعاته، يجعلُ الإنسانَ سالكًا سبيلَ الحقِّ والرُّشدِ، بعيدًا عن سبيل الباطلِ والْغَيِّ.

2- الظَّفَرُ بالصحة والعافية في الجسد، والراحة والطمأنينة في النفس: يقول الله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَاراً﴾[الإسراء:82]. ولا يَظُنَّنَ ظَانٌّ أن الشفاءَ الواردَ في الآية هو ما تعلَّق فقط بالجانب النفسيِّ والروحيِّ، بل إنه يتعدَّاه إلى الجوانب الجسدية الحسية؛ فإن القرآن الكريم بحروفه وآياته وفواصله ومعانيه يُحْدِثُ في النفس البشرية الراحةَ والطمأنينةَ، مصداقُ ذلك قولُه تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[الرعد:28]. وكلامُ الله تعالى أعظمُ صُوَرِ الذكرِ على الإطلاق، لكنه مع ذلك يؤثِّر إيجابًا على الجسد فيَمْنَحُهُ صحةً وعافيةً، دليلُ ذلك ما جاء في صحيح البخاري مِنْ أَنَّ نَفَرًا من أصحاب النبيِّ ﷺ مَرُّوا على قومٍ فيهم لديغٌ، فقيل لهم: "هل فيكم مِنْ رَاقٍ إنَّ فينا لديغًا؟" فانطلق رجلٌ منهم فقرأ بفاتحة الكتابِ -وهي من أعظم ما في القرآن- على قطيعٍ من الغنم، فبَرِئَ -بإذن الله تعالى- ببركة القرآنِ الكريمِ، وأقرَّهم النبيُّ ﷺ على صنيعهم هذا لَمَّا أخبروه به.

3- الفوزُ بشفاعته يومَ القيامة: يقول النبيُّ ﷺ في الحديث الصحيح: ﴿اقْرَؤُوا القرآنَ؛ فإنه يأتي يومَ القيامةِ شفيعًا لأصحابِهِ﴾[رواه مسلم]. ونحن نعلمُ بأن أعمالَنا لن تبلِّغنا الجنةَ، لذا فإننا في حاجةٍ ماسَّةٍ عندما نكون في ساحةِ المحشرِ ونُعْرَضُ على الله تعالى للحساب إلى مَنْ يدافع عنَّا بيْن يديْه، ويشفع لنا عنده

جلَّ وعلاَ، فإن كان الواحدُ مِنَّا من أهلِ القرآنِ، ومن المواظبين على العناية به تلاوةً وحفظًا وتدبُّرًا وعملاً، فإنه سوف يدافع عنه ويشفع له، فيتجـاوز الله تعالى عن سيئاته، ويدخلُه الجنةَ.

4- الحصولُ على الأجر العظيم الذي يملأُ صحيفةَ الحسناتِ: يقول النبيُّ ﷺ في الحديث الصحيح: ﴿مَنْ قرأَ حرفًا مِنْ كتابِ اللهِ فلهُ بهِ حسنةٌ، والحسنةُ بعشرِ أمثالِها، لا أقول "ألـم"[1] حرفٌ، ولكن: أَلِفٌ حرفٌ، ولاَمٌ حـرفٌ، ومِـيمٌ حرفٌ﴾[رواه الترمذي]. فالنبيُّ ﷺ في هذا الحديث يبشرُنا بفضلٍ عظيمٍ وأجرٍ كبيرٍ لا يُحْرَمُ منه إلاَّ شقيٌّ مخذولٌ -نسأل اللهَ تعالى السلامةَ للجميع-، فلو أن أحدَنا داومَ على تلاوةِ جزءٍ واحدٍ -حِزبيْن- من كتاب الله تعالى على الأقـل يوميًّا -وهو ما ننصح به إخواننا في الأيام العادية؛ حتى يتمكَّنوا من خَتْمِ القرآنِ شهريًّا، لكن في أيام رمضان، أو في أيام العطل ينبغي أن يزيد المسلم عن الجزء- فكمْ هو عددُ الحروفِ التي سَيَلْفِظُهَا؟ ومع كثرةِ الحروفِ الملفوظة، فـإن الله تعالى بفضلِه وكرمِه يُضاعف أجرَها إلى عشرةِ أضعافٍ.

هذه بعضٌ من فضائل وبركات القرآن الكريم التي يمكن أن يُحَصِّلها كلُّ من يُعْنَى به تلاوةً وتدبرًا وعملاً.

وحتى تكون التلاوة على الوجه الأتم، ينبغي للمسلم أن يُرَاعِيَ مجموعةً مـن الآداب التي دلَّت عليها نصوصُ الكتابِ والسنةِ، نذكر فيما يأتي أهمَّها:

1- الإخلاص في تلاوته لله تعالى: ذلك أنَّ مَنْ تلا القرآنَ قاصدًا جلب السمعة الحسنةِ لنفسهِ بين الناس، متناسيًا إرادةَ وجهِ الله تعالى، فإن القرآن سيكون وَبَالاً

---

[1]- المقصود بـ"ألـم" الحروف المقطَّعة التي هي في أوائل بعضِ سورِ القرآنِ الكريمِ.

عليه يوم القيامة. يقول النبيُّ ﷺ في الحديث الصحيح: ﴿إن أولَ الناسِ يُقضى يومَ القيامةِ عليه رجلٌ استُشهد فأُتِيَ به فعرَّفه نعمتَه فعرَفها. قال: فما عملتَ فيها؟ قال: قاتلتُ فيك حتى استُشهدتُ. قال: كذبتَ، ولكنَّك قاتلتَ لأَنْ يُقال جَرِئٌ، فقد قِيلَ، ثم أُمِرَ به فسُحب على وجهه حتى أُلقيَ في النار. ورجلٌ تعلَّم العلمَ وعلَّمه، وقرأَ القرآنَ، فأُتِيَ به فعرَّفه نعمَه فعرَفها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: تعلمتُ العلمَ وعلمتُه، وقرأتُ فيك القرآنَ، قال: كذبتَ، ولكنَّك تعلمتَ ليُقال عالِمٌ، وقرأتَ القرآنَ ليُقال هو قارئٌ، فقد قِيلَ، ثم أُمِرَ به فسُحب على وجهه حتى أُلقيَ في النار. ورجلٌ وسَّع اللهُ عليه وأعطاه من أصنافِ المالِ، فأُتَى به فعرَّفه نعمَه فعرَفها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: ما تركتُ من سبيلٍ تُحِبُّ أن يُنْفَقَ فيها إلا أنفقتُ فيها لك، قال: كذبتَ، ولكنك فعلتَ ليُقال هو جوادٌ، فقد قِيلَ، ثم أُمِرَ به فسُحب على وجهه ثم أُلْقِيَ في النار﴾[رواه مسلم].

2- الطهارة من الْحَدَثِ والْخَبَثِ: أما الطهارة من الحدث الأكبر فعلى سبيل الوجوب؛ لحديث عليٍّ بنِ أبي طالب رضي الله عنه: ﴿أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كان لا يَحْجُبُهُ -أي: يمنعه- عن القرآن شيءٌ ليس الجنابة﴾[رواه أصحاب السنن وصححه الترمذي]. وأما الطهارة من الحدث الأصغر فعلى سبيل الاستحباب؛ إذ إن تلاوةَ القرآنِ عبادةٌ ينبغي أن يكون فيها المسلم متوضِّئًا، هذا إضافة إلى نظافة البدن والثوب والمكان من الأقذار.

3- الاستياك باستعمال عود الأراك: يقول النبيُّ ﷺ في الحديث الصحيح: ﴿السواكُ مطهرةٌ للفمِّ، مرضاةٌ للربِّ﴾[رواه أحمد].

4- الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم في بداية التلاوة: يقول اللهُ تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾[النحل:98].

5- الترتيل وتحسين الصوت به: يقول الله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾[المزمل:04]. وقد أثنى النبي ﷺ على الصحابي الجليل أبي موسى الأشعري رضي الله عنه لَمَّا سمعه يُحَسِّنُ صوتَه بتلاوة القرآن الكريم، فَعَنْهُ أن النبيَّ ﷺ قال له: «يَا أَبَا موسَى لقدْ أُعْطِيتَ مزمارًا مِنْ مزاميرِ آلِ دَاوُدَ»[متفق عليه].

6- التدبر والتأمل في معانيه: لأنَّ تَفَهُّمَ المرادِ من كلامِ اللهِ تعالى هو تمهيدٌ للعمل بما جاء فيه من أحكام، ولذا وَبَّخَ اللهُ تعالى أقوامًا لا يتمعَّنون في آيات الله القرآنية فقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[محمد:24].

ويجدر بي في خاتمة هذا الموضوع أن أُنَبِّهَ إلى هذيْن الأمريْن:

أولهما: أن مَنْ لا يستطيع مباشرةَ تلاوةِ القرآنِ الكريمِ بنفسه، كما هو الحال عند بعض من الأمِّيِّين من آبائنا وأجدادنا، هؤلاء عليهم أن يستعيضوا عن التلاوةِ بأنفسهم بسماعها من غيرهم، إما بالسماع في شكل مباشر من أبنائهم وحَفَدَتِهِمْ ونحوِهم ممَّن يُجيد التلاوةَ، وإما باستعمال وسائل الإعلام الحديثة المختلفة؛ فإنَّ إذاعاتٍ عبر الأثير، وقنواتٍ فضائيةً، تخصَّصتْ في بثِّ تلاوةِ القرآن الكريم ليلاً ونهاراً، وكذا استعمالُ أشرطة كاسيت العادية، أو الأقراص المضغوطة، وبعض البرامج التي تُشَغَّلُ بجهاز الحاسوب. ولْيعلم هؤلاء أنَّ أُمِّيَّتَهم لا تعني حرمانَهم من الأجر؛ فإن أجرَ السامعِ كأجر القارئ بفضلِه ومَنِّهِ جلَّ وعَلاَ، وأن تَدَبُّرَ القرآنِ الكريمِ على نوعيْن: تدبرُ تأملٍ في الألفاظ والمعاني -وهذا لا يستطيعه الأميُّ في أغلب أحواله-، وتدبرُ محبةٍ لما يُتْلاَ، وذلك بأنْ يُصغي للآيات وهو لا يفهم معانِيَها، إلا أنه يستعذبُها ويُجِلُّهَا ويخشَعُ لها؛ لأنه

يعتقد اعتقادًا جازمًا بأنها من عند الله تعالى -وهذا يستطيعه كلُّ واحدٍ من المسلمين بما فيهم الأميُّ-.

ثانيهما: ترغيبُ الأولادِ في العناية بكتاب الله تعالى، خاصة في ما يتعلَّق بحفظه وجمعه في الصدر؛ وهذا انطلاقًا مِنْ أنَّ تعليمَ الولدِ القرآنَ يُعَدُّ من المسؤوليات التي أَنَاطَها الشارعُ الحكيمُ بالوالديْن. قال النبيُّ ﷺ في الحديث الصحيح: ﴿الرجلُ راعٍ في أهلِه ومسؤولٌ عنْ رعيته، والمرأةُ راعيةٌ في بيتِ زوجِها ومسؤولةٌ عنْ رعيتِها﴾[رواه الشيخان]. وجاء في الأثر:" أَدِّبُوا أولادَكم على ثلاثِ خصالٍ: حبُّ نبيِّكم، وحبُّ أهلِ بيتِه، وقراءةِ القرآنِ؛ فإنَّ حملةَ القرآنِ في ظلِّ اللهِ يومَ القيامةِ يومَ لا ظِلَّ إلاَّ ظلُّه مع أنبيائه وأصفيائه". ولا بُدَّ من تمكين الولد من حفظ كتاب الله تعالى على يد معلِّمٍ ثقةٍ علميًّا وأخلاقيًّا وتربويًّا، بمعنى: ينبغي أن لا يأخذ الولدُ القرآنَ من المصحف مباشرةً دون تلقِّيه من شيخٍ، إلا أن هذا الشيخَ يُشترط فيه أن يكون متقنا لحفظ القرآنِ وتلاوته؛ حتى يتلقَّاه عنه الولدُ غضًّا طريًّا كما أُنزل، وأن يكون معروفاً بحُسن السلوك والأخلاق؛ حتى يتأثر به الولد إيجابًا، وأن يكون عارفا بالطُّرق التعليمية والتربوية الْمُثلى؛ حتى يُوصل الرسالةَ إلى الولد على أحسن الوجوه.

نسأل اللهَ العليَّ الكبيرَ أن يجعلَنا من الْمُعْتَنِينَ بكتابه الكريم تلاوةً وحفظًا وتدبرًا وعملاً؛ حتى نكونَ من أهلِ اللهِ وخاصَّته، وأن يُعيننا على تعليمِه لأبنائنا؛ حتى تَقَرَّ بهم أعينُنا في الدنيا وفي الآخرة، وأن يجعلَ القرآنَ يومَ القيامةِ حجةً لنا لا علينا؛ إنه على ذلك قديرٌ، وبالإجابة جديرٌ، إنه نعم المولى ونعم النصيرُ، وآخرُ دعوانا أَنِ الحمد لله رب العالمين.

الخطبة الخامسة

كيف نُجَنِّبُ أبناءَنا الاعتداءَ عليهم جِنْسِيًّا؟

كلامي اليوم معكم عن موضوع ما كان يَرُوقُ لي أن أناقشَه في مثل هذا الْمَلَإِ المبارك المحترمِ، كلامي عن ظاهرةٍ غريبةٍ عن مجتمعنا المحافظ، بعيدةٍ عن عاداتنا وتقاليدنا، ظاهرةٍ يُجَرِّمُهَا دينُنا، بل يجعلها في مرتبة الكبائر. ولكنَّ الواقعَ المريرَ هو الذي أَلْجَأَنِي إلى هذا الموضوع الخطير إلجاءً، ودفعني إلى الكلام عن هذه الظاهرة الْمَرَضِيَّةِ دَفْعًا؛ وذلك من خلال وقوع حالات شاذة لها في بعض أحياء بلديتنا، وفي بعض بلديات وِلاَيَتِنَا، وكذا من خلال تقريرٍ وطنيٍّ صادرٍ عن مصالح الدرك الوطني، تناقلتْه بعضُ الصحفِ الوطنيةِ[1]، مَفَادُهُ: أنه في الفترة الممتدة من شهر جانفي 2008م إلى شهر ماي من السنة نفسها، أي: مدة خمسة أشهر، سجلت 632 حالةَ اعتداءٍ جنسيٍّ على الأطفال الْقُصَّرِ، أي: ما يفوق 125 حالةَ اعتداءٍ شهريًّا، علما أن هذه الإحصاءات خاصة بالحالات التي بَلَغَتِ المصالِحَ الأمنيةَ لتحقق فيها، ثم تعرضها على المحاكم لِتَبُتَّ فيها. وهذا يعني أن هناك حالاتٍ أخرى كثيرةً لم تَبْلُغِ المصالح الأمنية؛ نظرًا لأنها لم تُكتشف بعد، بحكم أن الأطفال المتضرِّرين لم يُفصحوا عنها حتى الآن؛ لأنهم لم يفهموا بَعْدُ حقيقةَ الجريمةِ التي تُفعل بهم، وقد يفهمون ما يحصل لهم ولكنهم لا يَبُوحُون به؛ خوفًا من بطش المعتدين، أو خوفًا من عقوبة الأهل. أو أنها

[1]- ينظر: جريدة الشروق اليومي، عدد: 2328، الصادر يوم: 12جمادى الثانية 1429هـ/16جوان2008م.

اكْتُشفت ولكنَّ أهلَ الأطفالِ الْمُعْتَدَى عليهم عالجوها بطريقتهم الخاصة، وتكتَّموا عليها؛ حفاظًا على مصلحة وكرامة هؤلاء الضحايا مِمَّنْ ما زالوا في سِنِّ البراءة، وكذا حفاظًا على شرف الأسرة.

ومخاطر هذه الظاهرة لا تخفى على كلِّ ذي لُبٍّ؛ ذلك أن فيها:

- اعتداءً على أجساد وأعراض الأطفال الأبرياء من جهة، واعتداءً على كرامة أُسَرِهِمْ واستقرارها من جهة ثانية. والله تعالى يقول: ﴿وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ﴾[البقرة:190].

- إحداثًا لأمراضٍ واضطراباتٍ نفسيةٍ غالبًا ما تُصيب الأطفالَ الْمُعْتَدَى عليهم؛ لأنهم يصطدمون اصطدامًا كبيرًا بهذه الفعلة الْمَشِينَة. وأَذْكُرُ أن طالبةً جامعيةً اتصلتْ بي عدةَ مرات؛ لأُساعدها على الخروج من أمراضها واضطراباتها النفسية التي ترتبت على اعتداءٍ جنسيٍّ أصابها من خَالِهَا الشاب الشاذ وهي في السنة الثامنة من عمرها.

- جَعْلاً للأطفال المعتدى عليهم معتدين وشاذِّين في المستقبل؛ ذلك لأنهم سوف ينتقمون من المجتمع الذي ضَيَّعَهُمْ، و لم يكفل لهم الحماية اللازمة، حتى إن القاعدة الاجتماعية في هذا المجالِ تقول: "إن ضحيةَ اليومِ هو مُجْرِمُ الغدِ".

فمن باب الحفاظ على عرض وجسد ونفسية أطفالِنا، وصَوْنِ شرف واستقرار كيانِ أُسَرِنَا، والحرصِ على مجتمعنا حتى لا تنتشر فيه الفاحشة، اخترتُ الكلامَ عن هذا الموضوع، لا سيَّمَا وأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[النور:19].

وحيث إن هذه الظاهرة أصبحت ملموسةً، وأنها تُهَدِّدُ أطفالَنَـــا بالدرجـــة الأولى، ثم أُسَرَنَا ومجتمعَنا بالتَّبَعِ، فإن السؤال الجوهريَّ الذي ينبغي أن يطرحه كلٌّ واحدٍ منا هو: كيف نُجَنِّبُ أبناءَنا الاعتداءَ عليهم جنسيًّا؟ والإجابة عـــن هذا السؤال تَكْمُنُ في مراعاة الأمور الآتية:

1- صلاحُ الوالدَيْن في ذَاتَيْهما، ودعاؤُهما لأولادهما بالحفظ والصون من كل الشرور: نقول هذا؛ لأنه ثبت بالنصوص الشرعية من كتاب ربِّنا وسنة نبيِّنـــا ﷺ، أنَّ صلاحَ الوالدَيْن ينفع الولد، وهذا من فضل ربِّنا الكريم ومَنِّه علينا. ومن تلك النصوص قوله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِـــعَافاً خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيداً﴾[النساء:09]. وقولـــه ﷺ في الحديث الحسن الـــصحيح: ﴿احْفَـــظِ اللهَ يَحْفَظْـــكَ، احْفَـــظِ اللهَ تَجِـــدْهُ تُجَاهَكَ﴾[رواه الترمذي]. فمن كان من الآباء والأمهات وَقَّافًا عند حدود الله تعالى، فاعلاً أوامرَه، ومُجْتَنِبًا نواهيَه، فإن الله لن يخذلَه، بل سيكرمُه في الـــدنيا والآخرة، ومن صور هذا الإكرام أن يحفظَه في أولاده فلا يُعتدى عليهم.

كما أنَّ دعاءَ الوالدَيْن لأولادهما بالحفظ والصون له تأثيرُه على حياتهم، وقد قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّـــذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:60]. وقال النبيُّ ﷺ في الحديث الحسن: ﴿ثلاثُ دعواتٍ مستجاباتٍ لا شكَّ فيهنَّ: دعوةُ المظلومِ، ودعوةُ المسافرِ، ودعوةُ الوالدِ﴾[رواه أبو داود والترمذي].

2- تفعيلُ الحوارِ والنقاشِ بين الوالدَيْن والأولاد، وتمتينُ العلاقةِ بينهما: فـــإن الولدَ إذا ما وجد صدرا رَحْبًا من الوالدَيْن، يُدردشان معه، ويشاركانه همومَه، فإنه سوف يبُوح لهما بكل ما يطرأ له من مستجدات، وثَمَّةَ يُمكن أن تُـــوأَدَ

الجريمةُ وهي في مَهدها، عندما تُكتشف بوادرُها من خلال ما يُفصح به الولــد لوالديْه عن طريق الحوار الدائم معه. وقد أعطانا النبيُّ ﷺ من نفــسه القــدوةَ الحسنةَ في مصاحبةِ وحُسْنِ التعاملِ مع سائر أهلِه: زوجــاتٍ وأولادٍ وخُــدَّامٍ وعبيدٍ، لا سِيَّمَا وهو القائل في الحديث الصحيح: ﴿خيرُكم خيرُكم لأهلِه، وأنا خيرُكم لأهلي﴾[رواه الترمذي]. أقول هذا؛ لأن بعضًا من الآباء يجعل بينه وبين أبنائه حاجزًا منيعًا، أو ينشغل عنهم بأعماله الخاصة، فلا يكاد يُجالــسهم، أو يُحادثهم، أو يُلاطفهم، أو يسألهم عن أحوالهم، فأمثال هؤلاء لا يمكن يتجــرَّأَ أبناؤهم -غالبًا- أن يُفصحوا لهم عما يجدونه من تحرُّشاتٍ جنسيةٍ مــن قِبَــلِ الشُّذَّاذِ.

3- متابعةُ الأولادِ ومراقبتُهم والسؤالُ عنهم وزيارتُهم في مدارسهم ورِيَاضِهم الحكوميةِ أو الخاصةِ، والأمرُ نفسُه عندما يذهبون لزيارة أقــاربهم في العُطــل والمناسبات المختلفة: ذلك أن بعضًا مِمَّن يُشرفون على تعليم الأطفــال فــيهم شذوذٌ، وهم يَعرفون كيف يصطادون فرائسَهم، فإذا لاحظوا جسرًا منصوبًا بين التلميذ ووليِّه، فإنهم يخافون من الاقتراب منه؛ على أساس أن هــذه المتابعــة والزيارات المتكرِّرة من الولي تُنْبِئُ بأنه على علاقة متينةٍ بولدِه، فلــو حــصل الاقترابُ منه، فإنه سيبُوح لوليِّه بما حصل، وثَمَّةَ يُفْضَحُونَ. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن زيارةَ الوليِّ للمعلم مِنْ شأنها أن تجعله يكتشف درجةَ دينِــه وخُلُقِه، فإذا لمس منه ثقةً مَكَّنَهُ من تدريس ابنِه، وإلا فإنه سيُبادر إلى تحويلــه للدراسة عند غيره من المعلمين الذين يَثِقُ فيهم.

ومسألةُ المتابعةِ مطلوبةٌ أيضا حين يذهب الأولاد لزيارة أقاربهم؛ إذ إن بعضًا من الأقارب فيهم انحرافٌ، فلو مُكِّنُوا من الولد فإنهم لا يتورَّعون عن انتــهاك

عِرضه، كما أن هؤلاء الأقارب -على فَرَضِ أنهم لا انحرافَ فيهم- قد يُطْلِقُونَ الْعِنَانَ للصغير أثناء وجوده معهم، فيخرج متى شاء، ويعود متى شاء، ويخالِط مَنْ شاء. وهَهُنَا مَكْمَنُ الخطرِ؛ فقد يتمكَّن منه الشَّاذُّ عندما يجده في مكان مهجورٍ، أو يعثر عليه في وقت قيلولةٍ، أو في ساعة متأخرة من الليل، فينقضُّ عليه، ويفعل به فعلتَه الدنيئةَ. لذا كان لزامًا على الوالدَيْن أن لا يُرسلوا بأولادهم إلا لمن يَأْمَنُونَهُمْ من الأقارب، وفي حالة الأمان، لا بُدَّ من المتابعة والتواصل مع أولادهم والأقارب الذين هم معهم.

4- عدمُ تركِ الأولادِ خارجَ البيتِ في أوقاتٍ غيرِ مناسبةٍ، كالقيلولة في فصل الصيف، وما بعد العشاء في كل الفصول، وكذا عدمُ تركِهم في أماكنَ خاليةٍ بعيدةٍ عن الأعين: نقول هذا؛ لأن بعضًا من الآباء والأمهات قد يَخْلُدُ للراحة، أو ينشغل بأعماله الخاصة، فلا يُبالي بحال أبنائه، فلربَّما خرجوا من البيت في أوقاتٍ غيرِ مناسبةٍ للخروجِ، أو قصدوا أماكنَ مهجورةً للعب فيها: كالمقابر، أو البنايات الْخَرِبَةِ، أو التي هي في طور الإنجاز، أو الغابات ونحوها، هذه الأوقاتُ والأماكنُ يَتَحَيَّنُهَا ويقصدُها المنحرفون، ولذا فإنهم إذا ما وجدوا الصغيرَ فيها اعتدوْا عليه بسهولةٍ تامة؛ لأنهم ينفردون به، ولا يجد -في الغالب- مَنْ يُنقذه مِنْ قبضتهم.

5- عدمُ تمكينِ الأطفالِ من مُجالسة أو مُصاحبة مَنْ يكبرُهم في السِّنِّ: فالصغير مِنْ شأنه أن يُجالس ويُصاحب مَنْ هم في مثل سِنِّه، أما إذا ما تُرِكَ لمجالسة ومصاحبة مَنْ يفوقُه في العمر بأربع أو خمس سنواتٍ أو أكثر-كما نلاحظ في بعض الحالات صغيرًا في سِنِّ العاشرة مثلاً يجالس شبابًا في العِشرينيَّات من

عمرهم، أو كهولاً، أو شيوخًا- فإن هؤلاء الكبار قد يستغلُّون ضعفَ الصغيرِ وسفاهتَه، فيستدرجُونه للرذيلة ويعتدُون عليه.

6- تشجيعُ الولدِ على رفضِ أيِّ هديةٍ من شخصٍ لا نرتاح إليه، أو لا يرتاح هو إليه، ولو كان هذا الشخص من الجيران أو الأقارب: فإن بعضًا من الأشخاص بحكم أننا لا نطمئن إليهم؛ على أساس أهم من المدمنين على الخمر، أو من المتعاطين للمخدرات، أو أن سيرتَهم فيها صفحات سوداء، أو نحو ذلك مما يجعلنا لا نرتاح إليهم، فهؤلاء نُوصي أبناءَنا ونُلحُّ في الوصية بأن لا يَقْبَلُوا منهم أيَّ هديةٍ أو عَرْضٍ، ونُحَسِّسُهم أن هؤلاء يشكِّلون لهم خطرًا إذا ما تعاملوا معهم بأيِّ نوعٍ من أنواع التعاملِ. كما أن الولد في حدِّ ذاته قد لا يرتاح إلى شخص معيَّن؛ بحكم أنه رأى منه ما يبعث على الرِّيبة، أو أنه غريبٌ عنه لم يَسْبِقْ له وأن عُرِّف به، فهذا النمط من الأشخاص نُشَجِّعُ أبناءَنا على التَّمَلُّصِ منهم، وعدمِ مسايرتِهم في أيِّ شيءٍ.

7- إلزامُ البنتِ الصغيرةِ غيرِ البالغةِ باللباسِ الْمُحْتَشِمِ: ذلك أن مِمَّا يُغْري الشُّذَّاذَ رؤيتَهم لفتاةٍ صغيرةٍ بلباسٍ قصيرٍ يَصِلُ في بعض الأحيان إلى ما فوقَ الركبةِ، أو ضَيِّقٍ يَصِفُ حوضَها، ونحوِ ذلك مِمَّا نراه مِمَّنْ لا يُعَوِّدُ ابنتَه على التَّسَتُّرِ منذ الصغرِ، فَيُجَرِّئُ هذا المشهدُ ذاك الشَّاذَّ عليها، فيندفِعُ إلى انتهاك عرضِها.

هذه هي أهمُّ الوسائلِ التي إذا ما رَعَاهَا الآباءُ حَفِظَ اللهُ تعالى أبناءَهم من أيِّ اعتداءٍ جنسيٍّ مُحْتَمَلٍ عليهم. نسأل اللهَ ﷻ أن يَقِيَنَا وأن يَقِيَ أبناءَنا جميعَ الشرورِ، وأن يحفظَنَا جميعًا في دينِنا وأنفسِنَا وأهلينَا وأعراضِنَا. ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً﴾[الكهف:10]. ولله الحمدُ أولاً وأخيرًا.

الخطبة السادسة

الإسلامُ يدعُو إلى الصدقِ ويُنَفِّرُ مِنَ الكذبِ[1]

إن الإسلامَ دينُ الفطرةِ، يدعو أتباعَه إلى كلِّ فضيلةٍ، ويُنَفِّرُهم من كلِّ رذيلة؛ ولذا فإننا نجده في نصوصٍ قرآنيةٍ وحديثيَّةٍ كثيرةٍ يحثُّ المسلمين على التَّحلي بخُلق الصدقِ في أقوالهم وأفعالهم ونيَّاتهم، ويحذِّرهم من خَصْلَةِ الكذبِ في الأقوال والأفعال والنيَّات. ومِنْ هذه النصوصِ ما يأتي ذِكْرُهُ:

- قولُه سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ﴾[التوبة:119]. فالمولى جلَّ وعلاَ في هذه الآية ينادينا بوصف الإيمان، ويأمرنا على سبيل الوجوب أن نلتزم الصدقَ؛ فإن الإيمانَ والصدقَ متلازمان. ذلك أن هذه الآيةَ نزلت في أعقابِ تقريرِ صدقِ توبةِ الصحابة الثلاثة الذين تخلَّفوا تهاونًا وتكاسلاً عن غزوة تبوك سنة 9هـ، لا قصدًا للتخلُّف ونفاقًا، وهم: مرارة بن الربيع، وكعب بن مالك، وهلال بن أمية ﷺ. فبعد عودة النبيِّ ﷺ منتصرًا من هذه الغزوة، جاء المنافقون يُلْقُونَ بأعذارهم الواهية بين يديْه ﷺ، بينما هؤلاء الثلاثة التزموا الصدقَ، واعترفوا بتقصيرهم، فنجَّاهم صدقُهم رغم ما ابْتُلُوا به من مقاطعة النبيِّ ﷺ ومَنْ معه من الصحابة ﷺ لهم في بداية الأمر، حتى ضاقت بهم الأرض بما رَحُبَتْ. ثم جاءت سورةُ التوبةِ تفضح المنافقين بكذبهم، وتؤكِّد صدقَ هؤلاء الثلاثةِ من الصحابة ﷺ.

---

[1]- مِنَ الأفضل أن يَتَحَيَّنَ الأخُ الخطيبُ بدايةَ شهرِ أفريل، لإثارة هذا الموضوع؛ ليحذِّر من كذبة أفريل التي بدأت تَدُبُّ في مجتمعنا الجزائري خصوصًا، والعالم الإسلامي عمومًا.

- وقولُه سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾[غافر:28]. فالمولى جلَّ وعلاَ يؤكِّد على أنَّ المسرِف الذي أكثر من الاعتداء والظلم، وكذا الكذَّاب الذي أكثر من الافتراء والكذب، يؤكِّد على أَنْ لاَ هدايةَ ولا توفيقَ لهما إلى الخير والفوز. وفي هذا تحذيرٌ من العاقبة الوخيمة للكذب؛ ذلك أنَّ المؤمنَ في حاجة ماسَّة في جميع شؤونه إلى هداية الله تعالى وتوفيقه، فإذا ما أصبح كذَّابًا، حُرِمَ منهما. والآية وإن كانت قد وردت في حق فرعون -عليه من الله ما يستحق-، إلاَّ أنَّ العبرةَ بعموم اللفظ لا بخصوص السببِ، وما قصَّ اللهُ تعالى علينا قصَّتَه إلا لأجل الاتِّعاظ والاعتبار بها.

- وقولُ النبيِّ ﷺ في الحديث الصحيح: ﴿عليكم بالصدقِ؛ فإنَّ الصدقَ يهدي إلى البرِّ، وإنَّ البرَّ يهدي إلى الجنةِ. وما يزالُ الرجلُ يَصْدُقُ ويَتَحَرَّى الصدقَ حتى يُكْتَبَ عند اللهِ صدِّيقًا. وإيَّاكم والكذبَ؛ فإنَّ الكذبَ يهدي إلى الفجورِ، وإنَّ الفجورَ يهدي إلى النارِ. وما يزالُ الرجلُ يكذبُ ويَتَحَرَّى الكذبَ حتى يُكْتَبَ عندَ اللهِ كذَّابًا﴾[رواه الشيخان]. فالنبيُّ ﷺ يأمر بالتحلي بالصدق؛ لأن الصادق يصبح بَارًّا خيِّرًا يسلك بصدقه الطريقَ الْمُعَبَّدَةَ إلى الجنة، بل سينال به مرتبةَ الصِّدِّقيَّةِ التي يكون أصحابُها في الجنة مع الأنبياء والشهداء والصالحين، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقاً﴾[النساء:69]. ثم ينهى النبيُّ ﷺ عن الكذب، ويبين أنه من شأنه أن يجعل الكذَّاب فاجرًا فاسقًا يسلك بكذبه الطريق المؤدية إلى النار-نعوذ بالله منها-.

- وقولُهُ ﷺ في الحديث الصحيح أيضاً: ﴿أربعٌ مَنْ كُنَّ فيه كان منافقًا خالصًا، ومَنْ كانت فيه خَصْلَةٌ منهنَّ كانت فيه خَصْلَةٌ مِنَ النفاقِ حتى يَدَعَهَا: إذا اؤْتُمِنَ

خَانَ، وإذا حَدَّثَ كَذَبَ، وإذا عاهدَ غَدَرَ، وإذا خاصمَ فَجَرَ﴾[رواه الشيخان].

فالنبيُّ ﷺ في هذا الحديث يقرِّر أنَّ الكذبَ مِنْ صفات المنافقين، والمسلمُ العاقلُ اللبيبُ يَأْنَفُ أن يُوصف بالنفاق في الدنيا؛ إذ إنَّ ذلك مِمَّا يَشينُهُ. كما أنه لا يرضى أن يكون في زمرة المنافقين؛ لأنه يعرف أن مآلهم سَيِّئٌ في الآخرة.

وبعد استعراض هذه النصوص الشرعية التي فهمنا منها أن ديننا الحنيف يدعونا إلى فضيلة الصدق، وينفِّرُنا من رذيلة الكذب، أريد أن أُبيِّنَ أن الكذب من شدة قبحه لم يتصوَّرْه النبيُّ ﷺ من مؤمن، فقد سأله بعضٌ من الصحابة ﷺ: "أيكونُ المؤمنُ جَبَانًا؟" قال: ﴿نعم﴾. فقيل: "أيكونُ المؤمنُ بخيلاً؟" قال: ﴿نعم﴾. فقيل: "أيكونُ المؤمنُ كذَّابًا؟" قال: ﴿لا﴾[رواه مالك والبيهقي في شُعَبِ الإيمانِ مُرْسَلاً]. بل إن العربيَّ الأصيل -ولو كان غيرَ مسلمٍ- يَأْنَفُ أيضًا مِنْ أن يكذب، ناهيك إذا ما كان مسلمًا، يتعبَّد إلى الله تعالى بتحرِّي الصدقِ، وتركِ الكذبِ؛ ولذا فقد أُثِرَ عن أبي سفيان بنِ حَرْبٍ ﷺ، وهو على شِرْكِهِ قبل أن يُسلم، أنَّ هرقلَ ملكَ الرومِ سأله عن النبيِّ ﷺ من حيث نسبُه وأخلاقُه وحالُ أتباعه، فكان بإمكانه أن يكذبَ ويقولَ غيرَ الحقيقةِ؛ انتصارًا لنفسه وعقيدته ومصالحه، لا سِيَّمَا وأن النبيَّ ﷺ هو عدوُّه اللَّدُودُ آنذاك، ولكنَّه -كما حدَّث عن نفسه بعد ذلك- ترفَّع عن الكذب؛ حتى لا تتناقل عنه العرب هذه الْمَثْلَبَةَ التي لا يرضاها العربيُّ الأصيلُ لنفسه أبدًا.

ولْيعلمِ الأخُ المسلمُ أن له في الْمَعَارِيضِ مَنْدُوحَةً وبديلاً عن الكذب الصريح حالَ الاضطرار إليه؛ وذلك بأن يقول كلامًا يَعرف هو من نفسه أنه صادقٌ فيه، ولكن في الوقت نفسِه يَعلم أن الذي يكلِّمه سوف يفهم منه شيئًا آخرَ غيرَ الذي يريده هو. فيكون بذلك قد ضرب عصفورَيْن بحجرٍ واحدٍ: ما قال إلاَّ

صدقًا، وتمكَّن من التخلص من الإحراج الذي كان يتوقَّعه من الشخص الذي يُحادثه. وقد ورد عن بعض السلف الصالح أنهم كانوا يَلجأون إلى المعـــاريض عندما يحتاجون إليها. فها هو التابعيُّ الجليلُ مُطَرِّفٌ بنُ عبدِ اللهِ بـــنِ الـــشِّخِّيرِ رحمه الله تعالى يقول لزيادٍ بنِ أبيه الوالي الأموي الذي كان فيه بطشٌ وظلمٌ لَمَّا سأله عن التأخُّر عن زيارته: "ما رفعتُ جنبي منذ فارقتُ الأميرَ، إلا ما رفعـــنيَ اللهُ"، ففهم زيادٌ بأنَّ مطرِّفًا كان مريضًا منذ آخرِ جلسةٍ جلسها معه، مـــع أن مطرِّفًا ما كان مريضًا، إلاَّ أنه أراد أن يتجنَّب أذيَّةَ زيادٍ له، فأَوْهَمَهُ بأنه كـــان مريضًا، في الوقت الذي ما قال فيه إلا صدقًا؛ فإنَّ الإنسانَ الصحيحَ لا يقوم من نومِه واضطجاعِه إلا بإرادة الله تعالى.

ومِنْ واقعيةِ الإسلامِ وسماحتِه أنه رخَّص في الكذب في مواضعَ معيَّنةٍ ثبـــت الترخيـــصُ فيها عن النبـــيِّ ﷺ، فقد جاء عن الصحابية الجليلة أمِّ كلثوم بنتِ عقبةَ بنِ أبي مُعَيْطٍ أنها قالت: "سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: ﴿ليس الكـــذَّابُ الذي يُصلح بين الناسِ، ويقول خيرًا، ويَنْمِي خيرًا[1]﴾"[متفق عليه]. وزاد مسلمٌ في صحيحه أنها قالت: "ولم أسمعْه -تعني النبيَّ ﷺ- يُرَخِّصُ في شيء مِمَّا يقولُه الناسُ إلاَّ في ثلاثٍ: الحربُ، والإصلاحُ بين الناسِ، وحديثُ الرجـــلِ امرأتَـــه وحديثُ المرأةِ زوجَها". فالنبيُّ صلواتُ اللهِ عليه وسلامُه يُجَوِّزُ للمسلم إذا كان بين يديْ عدوِّه أن يُخفيَ عنه الحقيقةَ فلا يبوح بها، ويصرفَ نظرَه عن جماعـــة المسلمين؛ ذلك أنه لو أفصح عن الحقيقة لترتَّب عن ذلك الإفصاحِ ما ترتَّب من المفاسد. كما أنه يُجَوِّزُ للمسلم أن يدَّعي أشياءَ لم تقع؛ بغرض الإصلاح بـــين

[1]- يَنْمِي خيرًا: أي يُبلِّغ خبرًا.

المتخاصمين من الأفراد والجماعات، حتى تعود علاقاتُهم إلى ما كانت عليـــه. كما أنه يُجَوِّزُ للزوجيْن أن يبالغ كلٌّ منهما في مدحِ الآخَرِ، وإظهارِ عظيمِ محبتِه له. إلا أن المسلمَ الحريصَ على تحرِّي الصدقِ إذا كان بإمكانه أن يستغنيَ عـــن هذا الترخيصِ النبويِّ فلْيفعل، بمعنى: أن المسلمَ إذا كان صدقُه التام، أو استعمالُه للمعاريض، يَفِي بالغرض في مثل هذه المواطن، فينبغي عليـــه أن لا يَلجـــأ إلى الكذب الصريحِ فيها.

وأريد ههنا أن أنبِّه إلى قضيةٍ هي غايةٌ في الأهمية؛ لتعلُّقها بتربية النَّشْءِ. هذه القضيةُ تعني عددًا مُعْتَبَرًا من الآباء والأمهات الذين يُعْطُونَ من أنفسهم لأبنائهم القدوةَ السيئةَ عندما يَسْتَبْسِطُونَ الكذبَ في بعـــض المواقـــفِ فيكـــذِبون في حضرتِهم. فمِنْ بين هذه المواقفِ:

- ادعاءُ عدمِ التواجدِ في البيت عندما يَطْرُقُ البابَ طارقٌ لا يرغبُ الوالدان أو أحدُهما في استقباله. والأمرُ نفسُه عندما يتصل أحدُ الأشخاصِ بأحدهما هاتفيًّا وهو لا يَوَدُّ الردَّ عليه.

- إعطاءُ وعودٍ للولد بأن يُؤخذ إلى المكان الفلانيِّ، أو أن يُشترى له الـــشيءُ الْعِلاَّنِيُّ، ونحو ذلك من الوعود، ثم لا يُوَفَّى بها.

فالولد في هذه المواطنِ وأمثالِها يتعلَّم الكذبَ من والديْه عمليًّا؛ لأنـــه وَقَـــفَ ميدانيًّا على كذبهما، وثَمَّةَ لا تنفع تلك الوصايا والمواعظُ التي كـــان يتلقَّاهـــا منهما قوليًّا. ولْيَعْلَمِ الوالدان أنَّ تَأَثُّرَ ولدِهما بهما من خلال أفعالِهما أبلغُ مِـــنْ تأثُّرِه بهما من خلالِ نصائحِهما وإرشاداتِهما القوليةِ. كما أنه من جرَّاء هـــذا الصنيعِ الذي اسْتَبْسَطَهُ الوالدان تَسقط مكانتُهما عند ولدهما؛ إذ إنـــه ســـوف يَزْدَرِيهِمَا، ويَستصغرُ شأنَهما، الأمرُ يجعله بعد ذلك يتجرَّأُ على عقوقِهما.

وأريد في الختام أن أحذِّرَ من عادةٍ غربيةٍ سيئةٍ بدأت تتفــشَّى في مجتمعنــا الإسلاميِّ شيئًا فشيئًا، حيث يتلقَّفُها بعضٌ من رجال الصحافة والإعلام، وبعضٌ من الشباب والشابات. بل إن بعضًا من رجال التربيةِ والتعليمِ قد سقط فيهــا أيضًا. هذه العادةُ السيئةُ هي كذبةُ الفاتحِ من أفريــل، فإنَّ بعضَهم يَفتعل كذبةً معينةً -عادةً ما تَحمل خبرًا سارًّا أو مُحزنًا- ثم يُواجــه بهــا أو يرســلها إلى الشخصِ أو الجهةِ التي يريد أن يَكذب عليها، فيتفاجأُ ذلك الشخص أو تلــك الجهةُ بمضمون الخبرِ، وفي بعض الأحيان يُحدث فيهم ما يُحدث من تفاعلاتٍ إيجابيةٍ أو سلبيةٍ، وبعد ذلك يَخرج مفتعلُ الكذبةِ لِيُعْلِنَ أنَّ ما صدر عنه ما هو إلا كذبةُ الفاتحِ من أفريل. فهذه العادة الغربية لا يجوز للمــسلم أن ينــساق وراءها؛ لعدَّة اعتبارات نذكر منها ما يأتي:

أولها: أنها مشتملةٌ على الكذب الصريحِ الذي حرَّمه الإسلام.

ثانيها: ما فيها من ترويعٍ للآمنين، وذلك عندما يكون فحوى الكذبــةِ خــبرًا محزنًا، كأنْ يُقال للشخص: لقد مات والدُك، أو فُصِلْتَ من عملك، ونحوُ ذلك مما يُحزنه ويُروِّعه. وترويعُ المؤمنِ أذيةٌ له، لا يجوزُ الإقدامُ عليها.

ثالثها: ما فيها من تشبُّهٍ بالكافرين وتقليدٍ أعمى لهم، وهو ما نهانا عنه النبيُّ ﷺ بقولِه: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كان قبلكم شبرًا بشبرٍ، وذراعًا بذراعٍ، حتى لو سلكوا جُحْرَ ضَبٍّ لسلكتمُوه. قال الصحابةُ ﭫ: يا رسولَ اللهِ اليهودَ والنــصارى؟ قال: فمَنْ» [رواه البخاري].

نسأل اللهَ تعالى أن يجعلَنا مِنَ الصَّادقين في أقوالِهم وأفعــالِهم ونيــاتِهم، وأن يَحْشُرَنا في زمرة الصِّدِّيقين مع الأنبياء والشهداء والصالحين وحَــسُنَ أولئــك رفيقًا، والحمد لله ربِّ العالمين.

الخطبة السابعة

مقارنةٌ بين حرارتيْ صيفِ الدنيا ونارِ الآخرةِ[1]

إننا الآن في فَحْلِ الصيفِ[2]، ولذا فإنا نعيش أيامًا حارَّةً جدًّا، تصل فيها درجةُ الحرارةِ في بعض الأحيانِ إلى 50 درجةً مئويةً، حتى إننا نجد الناسَ يتأفَّفون ويتأوَّهون[3] من شدة الحرارةِ، وحديثُ الكثيرين منهم واهتمامُهم لا يكاد يخرج عن هذا الموضوع: فبعضُهم اتَّجه إلى ربِّه تعالى داعيًا أن يبدِّل هذه الحالَ بما هو أخفُّ على الناس، وبعضُهم يتتبَّع النشراتِ الجويةَ لعلَّه يُبَشَّرُ فيُبَشِّرُ بتنبؤاتٍ حول تَغَيُّرِ حالةِ الطقسِ إلى ما هو ألطفُ، وبعضُهم يُبادر إلى استغلال ما هو مُتَاحٌ عنده من وسائل التبريدِ لِيَكْسِرَ حِدَّةَ الحرارةِ، وهكذا.

وأنا أريد أن أنتقلَ بإخواني وأخواتي في الله تعالى من عالَم الشهادةِ إلى عالَم الغيبِ، أنتقل بهم من عالَم الدنيا إلى عالَم الآخِرة؛ لِنَعْقِدَ مقارنةً بين حرارةِ صيفِ الدنيا وحرارةِ نارِ الآخرةِ. والعاقلُ اللبيبُ هو الذي يَربط ما هو مَعيشٌ محسوسٌ بما هو غيبيٌّ سيعيشُه حتمًا في الدار الأُخرى، وحِينَها يكون قد استثمر ما يتجرَّعُه من لَفْحِ حرارةِ الصيفِ عندما ذكَّره بنار الآخرةِ الاستثمارَ الحسنَ. وهذا المعنى أشار إليه القرآنُ الكريمُ؛ حيث نجدُ المولى عزَّ وجلَّ لما حدَّثنا عن نار الدنيا التي نُشعلها نحن بأيدينا، وبعد أن ذكَّرنا بأنه هو سبحانه وتعالى

---

[1]– يُؤْتِي هذا الموضوع أُكْلَهُ بإذن ربِّه تعالى إذا أثاره الأخُ الخطيبُ في عزِّ حرارةِ الصيفِ.

[2]– الناس في منطقة سوف بالجنوب الشرقي الجزائري يُسَمُّونَ شهرَ جويلية بفحل الصيف.

[3]– يتأفَّفون من قولهم: أُفٍّ؛ كنايةً عن التضجُّر. ويتأوَّهون من قولهم: آهٍ؛ دلالةً على التألم.

مُنْشِئُ وقودِها، وجاعلُها لمصلحة المسافرين وكلِّ مَنْ يحتاج إليها في طبخِه وإنارته وتدفئته ونحوِ ذلك ممَّا يُستعمَل فيه النارُ من سائرِ شؤونِ الناسِ، نجدُه في هذا السياقِ يقرِّرُ بأنه جلَّ وعلاَ جعلها أيضًا لتكون عبرةً للناس تذكِّرهم بحرارةِ نارِ الآخرةِ؛ حتى يعملوا في هذه الدنيا جاهدين لِتَجْنيبِ أنفسِهم عذابَها. يقول الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِؤُونَ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِّلْمُقْوِينَ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾[الواقعة: 71-74].

وبِعَقْدِ المقارنةِ بين حرارتيْ صيفِ الدنيا ونارِ الآخرةِ نجد بوْنًا شاسعًا وفرْقًا كبيرًا بينهما، يتجلّى ذلك فيما يأتي:

1- درجةُ حرارةِ صيفِ الدنيا أقلُّ بكثيرٍ من درجة حرارةِ نارِ الآخرة. يقول الله تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلاَفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُواْ أَن يُجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُواْ لاَ تَنفِرُواْ[1] فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾[التوبة: 81]. فهذه الآيةُ الكريمةُ تتحدَّث عن المنافقين الذين تخلَّفوا عن غزوة تبوك التي غزاها النبيُّ ﷺ سنة 9هـ، وكان صلواتُ اللهِ عليه وسلامُه قد خرج فيها لِمُلاَقَاةِ الرومِ في عزِّ الصيفِ، ولذا ثَقُلَ الخروجُ على المنافقين، فكان بعضُهم يقول لبعضٍ: "لا تنفروا في الحرِّ". يقولون ذلك؛ حتى يُجَنِّبُوا أنفسَهم عناءَ القتالِ في حرارة الصيف، وهو ما صنعوه فعلاً. فعقَّب اللهُ تعالى على صنيعهم ومَقالتِهم بقوله: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾. فهؤلاء المنافقون لو كان عندهم فَهْمٌ سديدٌ، وعقيدةٌ راسخةٌ في

[1]- لا تَنْفِرُوا: أي لا تَخْرُجُوا للقتالِ.

الآخرة، لأدركوا أنَّ نارَ جهنمَ من حيث شِدَّتُها لا تُقارَن بنار الدنيا؛ ولذا كان الأوْلى أن يخرجوا مع النبيِّ ﷺ، ويُقاتلوا معه، ويتحمَّلوا عناءَ الخروجِ والقتالِ في عِزِّ حرارةِ الصيفِ؛ حتى يُزَحْزَحُوا يومَ القيامةِ عن نار جهنمَ التي هي أشدُّ حرًّا.

وقد بيَّن النبيُّ ﷺ في الحديث الصحيحِ الذي يرويه الصحابيُّ الجليلُ أبو هريرة رضي الله عنه أنَّ نارَ الدنيا -لا مُجَرَّدَ حرارةِ الصيفِ- تُعَدُّ جزءًا من سبعين جزءًا من نار الآخرةِ. قال ﷺ: ﴿نارُكم جزءٌ من سبعين جزءًا من نار جهنمَ﴾. قيل: "يا رسولَ اللهِ إن كانت لَكَافِيَةً". قال: ﴿فُضِّلَتْ عليها بتسعةٍ وستِّينَ جزءًا، كلُّهُنَّ مثلُ حَرِّهَا﴾[متفق عليه].

وإذا كان الأمرُ كذلك، فإنَّ المؤمنَ بالله تعالى وباليوم الآخِرِ، الذي ما استطاع أن يتحمَّل حرارةَ صيفِ الدنيا، عليه أن يَأْتَمِرَ بأوامرِ اللهِ تعالى، وينتهيَ بنواهيه؛ حتى يَسْلَمَ من حرارة نارِ الآخرةِ التي لا يَقْوَى على تحمُّلها.

2- حرارةُ صيفِ الدنيا نستطيعُ التخفيفَ من حِدَّتِهَا باستعمال مبرِّداتٍ كثيرةٍ، أما حرارةُ نارِ الآخرةِ فلا يستطيع مَنْ وَجَبَتْ في حقِّه -نعوذ بالله تعالى من ذلك- لا يستطيع أن يُخَفِّفَ من حِدَّتِهَا. يقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾[فاطر:36]. ففي هذه الآية الكريمة يُقرِّر اللهُ عزَّ وجلَّ أن الكافرين جزاؤُهم يومَ القيامةِ العذابُ في نار جهنمَ، ويبيِّن أنهم لا يموتون وهم يُعَذَّبُونَ؛ حتى لا ينقطعَ عنهم العذابُ فيرتاحون، إذ إنه يبقى مستمرًّا، وفي الوقت نفسهِ فإنهم لا يَجدون أيَّ تخفيفٍ فيه.

نقول هذا؛ لأننا في خِضَمِّ حرارةِ الصيفِ نَفزع إلى وسائل التبريدِ المختلفـةِ: مراوحَ ومُكَيِّفَاتٍ هوائيةٍ في الغُرف والبيوت والمساجد والسيارات والحافلات، ثلجاتٍ ومياهٍ ومأكولاتٍ وفواكهَ باردةٍ، استظلالٍ بالأشجار وسائرِ الْمِظَلاَّتِ الاصطناعية، سباحةٍ في البحور والأنهار والوديان والمسابح، سفرٍ إلى المنـاطق الباردةِ أو المعتدلةِ من حيث درجةُ الحرارةِ، ونحوِ ذلك مِـنْ وسـائل التبريـدِ المتعددةِ التي أتاحها الله تعالى لنا بفضلِه وكرمِه ولطفِه بعباده. وهذا مِنْ شأنه أن يَكْسرَ حِدَّةَ درجةِ الحرارةِ؛ حتى إنَّ بعضَهم لا يكاد يعيشُ الصيفَ بحرارتـه إلا قليلاً. لكنَّ الأمرَ في الآخرة يختلف عن هذا تمامًا؛ إذ إنَّ مَنْ أُدخل النارَ يَظَـلُّ يتجرَّع عذابَها، ولا يَجد التخفيفَ أبدًا. يقول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾[السجدة:20].

وحينئذٍ سوف لا يَجِدُ المسلمُ الحريصُ على نَجاته في الآخرة بُدًّا من التشمير على ساعدِ الْجِدِّ في العبادة والطاعة وإرضاءِ ربِّه عزَّ وجلَّ؛ حتى يُعَافِيَـهُ مِـن عذابِ الآخرةِ الذي لا تخفيفَ فيه.

3- حرارةُ صيفِ الدنيا مؤقتةٌ بزمنٍ معيَّنٍ وهو فصلُ الصيفِ، بينما حرارةُ نارِ الآخرةِ أبديةٌ لا نهايةَ لها بالنسبة للكافر. يقول الله تعـالى: ﴿إِنَّ اللَّـهَ لَعَـنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لَّا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً﴾[الأحزاب:64-65]. فاللهُ سبحانه وتعالى يؤكِّد أنه طَرَدَ مَنْ مـات على الكفر من رحمته، وأنه أعدَّ له في الآخرة نارًا تَستَعِرُ، يدخلُها ويَبْقَى فيهـا إلى ما لا نهايةَ، ولا يَجد في النارِ مَنْ يتولَّى أمرَه لِيُخرجَه منها، أو مَنْ ينـصرُه فينقذُه مِنْ عذابها الأليمِ.

فشتَّان بين حرارةٍ مؤقتةٍ بفصل الصيف، وحرارةٍ أبديةٍ دائمةٍ. بل إن فصلَ الصيف تتخلَّله -في الغالب- أيامٌ باردةٌ نسبيًّا، حتى إننا في بعض الأحيان لا نكاد نصدِّق أننا في فصل الصيفِ. كما أن درجةَ الحرارةِ في اليوم الصيفيِّ الواحدِ ليست ثابتةً؛ إذ إنها ترتفع في النهار -خاصةً عند القيلولةِ-، ولكنها تَنزل إلى ما شاء اللهُ تعالى لها أن تَنزل بالليل -خاصةً في الثلث الأخيرِ منه، وما يَليهِ من أول النهارِ-. وههنا يزداد الْبَوْنُ اتِّسَاعًا بين حرارتَيْ صيفِ الدنيا ونارِ الآخرة.

وينبغي للمسلم أن يَسُدَّ الطريقَ على الشيطان، فلا يَدْخُلَنَّ عليه من باب أن الخلود في نار جهنم خاص بالكافرين الذين يموتون وهم كفار، بينما المؤمن الموحِّد فلا يُخَلَّدُ فيها، وإنما إن دخلها فإنه سيعذَّب فيها بقدر معاصيه ثم يخرج منها، ويدخل الجنةَ. فهذه المقالَةُ صحيحةٌ من الناحية العقائدية نظريًّا، ولكن مَنْ أدرى الذي هو مؤمنٌ الآن، ويريد أن يُطْلِقَ العنانَ لنفسه فيأتي ما شاءَ من المعاصي أنه سوف يموتُ على الإيمان، فلَرُبَّمَا جرَّتْه الصغيرةُ إلى الكبيرة، والكبيرةُ إلى الْمُوبِقَةِ، والموبقةُ إلى الكفرِ -عِيَاذًا بالله-، وثَمَّةَ قد يُباغتُه الأجلُ وهو خارجٌ عن دائرة الإيمانِ، فيكون من الخالدين في النار. وعلى فَرَضِ أنَّ العاصيَ مات وهو على التوحيد، ولم يَتُبْ من معاصيه، وأُدخل النارَ لِيُعَذَّبَ فيها على قَدْرِ معاصيه، فإنه لا يُعْقَلُ مِنْ مؤمنٍ يُقَدِّرَ اللهَ تعالى حقَّ قدره، ويعرفُ شدةَ حرارةِ نارِ الآخِرَةِ التي تفوقُ شدةَ حرارةِ نارِ الدنيا بتسعةٍ وستين جزءًا، أن يُعَرِّضَ نفسَه إليها وهو لا يستطيع في الدنيا أن يَلْمَسَ نارَها لَمْسًا رغمَ ضعفِها، بينما في الآخِرة سوف يُلْقَى فيها إلقاءً، ويمكث فيها مكوثًا.

وسلفُنا الصالحون كانوا يُدركون هذا المعنى جيدًا؛ حتى إننا نجد إحدى نسائِهم تقولُ لزوجها كلما أراد الخروجَ إلى عمله: "اتَّقِ اللهَ تعالى فينا ولا تُطعمْنا إلا من حلال؛ فإننا نستطيع أن نصبرَ على جوعِ الدنيا، ولكنَّنا لا نستطيعُ الصبرَ على حَرِّ نارِ الآخرةِ". فهذه المرأةُ الصالحةُ الناصحةُ لزوجها تَعْقدُ مقارنةً بين ما يُمكن أن تجدَه من عناءٍ ونَصَبٍ عندما تجوع؛ بسبب فَقْدِ الطعامِ، وبين العناءِ والنَّصَبِ الذي يُمكن أن تُلاقيَه إذا كانت -لا قدَّر الله- من أهل النارِ. وبعد المقارنةِ تصلُ إلى نتيجةٍ مهمةٍ جدًّا وهي: أنه بإمكانها أن تصبرَ على جوع الدنيا الذي له درجةٌ معينةٌ ومدةٌ محدودةٌ. إلا أنه ليس بإمكانها أن تصبرَ على حرِّ نارِ الآخرةِ الْمُسْتَعِرَةِ الممتدَّةِ.

ونحن في غُضُونِ موجةِ حَرِّ الصيفِ ينبغي أن نقولَ بعد عقدِ المقارنةِ بين حرارتِه وحرارةِ نارِ الآخرةِ: "إننا نستطيع أن نصبرَ على حرارة صيفِ الدنيا، ولكنَّنا لا نستطيع أن نصبرَ على حرارة نارِ الآخرةِ". ولو أنَّ المسلمَ وُفِّقَ إلى هذه المقالةِ، وكانت نابعةً من اعتقادٍ راسخٍ، ومقارنةٍ مُتَبَصِّرَةٍ، فإنَّ حالَه سوف يَصْلُحُ، فلا نجدُه إلا عاملاً للآخرةِ، مُسْتَبْسِطًا شأنَ الدنيا؛ حتى يَقِيَ نفسَه عذابَ جهنمَ الذي لا يَقْوَى على تحمُّله ومقاومته.

نسأل اللهَ تعالى أن يَلْطُفَ بنا، وأن يُخَفِّفَ عنَّا من حرارة صيفِ الدنيا، وأن يُجيرَنَا من عذاب نارِ الآخرةِ. ربَّنَا آتِ نفوسَنَا تقواها، وزَكِّهَا أنت خيرُ مَنْ زَكَّاهَا، أنت وَلِيُّهَا ومَوْلاَهَا. ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[البقرة: 201]. وآخِرُ دعوانا أنِ الحمدُ لله ربِّ العالمين.

الخطبة الثامنة

منْ أسبابِ ازديادِ حوادثِ المرورِ

إنَّ الناظرَ في دنيا الناسِ اليومَ سوف يجد أنَّ حوادثَ المرورِ قد كثُــرت إلى درجةٍ أنها أصبحت تهدِّدُ المجتمــعَ في أرواح أفرادِه وأجسادِهم وممتلكــاتِهم. فيوميًّا -تقريبًا- نُعايش أو نَسمع أو نَقرأ في الصحف الوطنيةِ أنَّ حادثًا مروريًّا قد وقع. وعندما نقول إنَّ حادثًا مروريًّا قد وقع، ينبغي أن نتصوَّر ما يُمكن أن يترتَّب عنه من خسائرَ بشريةٍ وماديةٍ، وما يُمكن أن يَنْجَرَّ عنــه مــن مــآسٍ وأحزانٍ. فكمْ من أرواح أُزهقت، وكمْ من إصاباتٍ وجروحٍ وكسورٍ وإعاقاتٍ قد تكبَّدها السائقون ورفقاؤُهم وحتى المارةِ والجالسين على جوانب الطرقِ[1]، وكمْ من أراملَ وأيتامٍ وثكالى قد خُلِّفت، وكمْ من مراكبَ تُثَمَّنُ بالملايين قــد تحطَّمت، وكمْ من أموالٍ يصرفها الأفرادُ أو تصرفها الدولةُ للتَّكفل بالمصابين في مثل هذه الحوادثِ. حتى إنه أصبح يَصِحُّ لنا أن نعتبرَ حوادثَ المرورِ هاجسًا أو شَبَحًا يهدِّد المجتمعَ.

والمسلمُ الحريصُ على حصول الخيرِ لإخوانه، والناصحُ الأمينُ لهم، لَتَهُمُّهُ هذه القضيةُ الاجتماعيةُ الخطيرةُ، ولَسوف يجلس مع نفسِه يُسَائِلُهَا: ما الأسباب التي

---

[1]- خَلَّفَتْ حوادثُ المرورِ في فترةِ ثمانيةِ أشهرٍ الأولى من سنة 2008م علــى المــستوى الوطنِيِّ حسبَ إحصاءاتِ المركزِ الوطنِيِّ للوقايــةِ وأمــنِ الطرقــات: 2746 قتــيلاً، و40871 جريحًا، في 25156 حادثًا. ينظر: جريدة صوتِ الأحرارِ، عدد: 3201، الصادر يوم: 28شعبان1429هـ/30أوت2008م.

جعلتْ حوادثَ المرورِ تتزايد، وتصل إلى هذه الدرجةِ من الخطورةِ؟ هذا السؤالُ المهمُّ ينبغي أن يطرحَه كلٌّ واحد منَّا عن نفسه، ومِنْ ثَمَّةَ سيبحث عن الإجابة، وإذا عُرِفَ السببُ بَطَلَ العجبُ، هذا من جهةٍ، ومن جهة أُخرى فإنه من خلال الوقوفِ على الأسباب، سوف يُوصَفُ العلاجُ المناسبُ للحدِّ أو التقليلِ من حالات حوادثِ المرورِ، وحينها تَسْلَمُ البلادُ والعبادُ.

إن أهم الأسبابِ التي تؤدي إلى وقوع حوادث المرور الأمور الآتية:

1- الإفراط في السرعة: حيث إن بعضهم يسير بمركبته بسرعة كبيرة يمكن لنا أن نسميها في أحيانٍ معينة بأنها جُنونيةٌ، وذلك إما بدافع أن له مصلحةً يرى أنه لا بُدَّ من تحصيلها في أقربِ وقت ممكن، وإما بدافع أنَّ صانعَ المركبةِ عندما جعل لها درجات قصوى في السرعة فلا حرج في الوصول إليها، وإما بدافع إظهار قدراته الفائقة على السياقة بين يديْ أقرانه؛ اختيالاً وتفاخرًا. بينما الأصل في المسلم إذا مشى راجلاً أو راكبًا أن يلتزم التوسطَ في مشيه بين الإبطاء والإسراع، وأن يجتنب الاختيالَ والتفاخرَ على غيره من الناس؛ لأنهما محرَّمان. يقول الله تعالى في ثَنَايَا وصايا لقمان الحكيمِ عليه السلام لابنه: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾[لقمان:18-19]. ومهما كانت المصلحةُ التي يريد أن يحصِّلها الشخصُ، فإنه لا يجوز له أن يَلجأ إلى الإفراط في السرعة التي يترتَّب عنها ما يترتَّب من الأضرار والمفاسد. ويُعجبني موقفٌ يُؤْثَرُ عن أحد السَّاسَةِ الْمُحْدَثِينَ لَمَّا تأخَّر عن موعد اجتماعٍ، فأراد سائقُه أن يُسْرِعَ، فقال له بِلُغَةِ الحكيمِ: "رُوَيْدَكَ، لا تُسْرِعْ؛ حتى نصلَ مُبكرين". فهو يريد أن يقول له: إننا إذا أسرعْنا

قد نقع في حادثِ مرورٍ، وعندها إما نموتُ فلا ينعقد الاجتماعُ أصلاً، وإما نُنْقَلُ إلى المستشفى لِتلقِّي الإسعافاتِ، وحِينها يتأخَّر الاجتماعُ إلى ساعاتٍ، وربَّما إلى أيامٍ أو أسابيع. ولذا كان الأفضل أن نسيرَ بسرعةٍ عادية؛ حتى نصلَ إلى الاجتماع ولو بتأخُّرٍ طفيفٍ يُقَدَّرُ بالدقائق، وثَمَّةَ نكون قد وصلْنا مُبكرين. ولْيَعْلَمِ السائقُ أن الدرجةَ القصوى للسرعة إنما جعلها صانعُ المركبةِ لِتُستعملَ في ظروفٍ مثاليةٍ، لا تُتَاحُ لِمَنْ يقودها في الطرقات العامة التي يسلُكها الناسُ داخلَ أو خارجَ المناطقِ العمرانيةِ.

2- تمكينُ الصغارِ من قيادة المركبات: إذ إن بعضًا من الآباء بحجة أنه يريد أن يُعَلِّمَ ولدَه الصغيرَ السياقةَ، أو أنه في حاجة إلى تكليفه ببعض المهام التي تتطلب للقيام بها استعمالُ المركبةِ، يُمَكِّنُ ولدَه من قيادتها بِمَعْزِلٍ عن إشرافه المباشر على ذلك. وبحكمِ أن الولدَ لا يُتقن السياقةَ جيدًا، أو أنه يُتقنها ولكن بحكمِ طيشِه، فإنه يتجاوز عن قوانين المرورِ، أو يُفرط في السرعة، ونحوِ ذلك ممَّا يُمكن أن يَصدر عنه كصغيرٍ، فهنا نتوقَّع منه أن يُوقع حوادثَ المرورِ، ويَذْهَبَ ضحيَّتُها مَنْ يذهب. وقد يلجأ الأبُ بعد ذلك إلى تزويرِ الواقعِ، وتغطيةِ الحقيقةِ، عندما يتكتَّم عن مباشرةِ ولدِه لقيادة المركبةِ، وتسبُّبِه في الحادث، بادِّعائه أنه هو أو غيرُه من الكبار كان في محلِّه. وعندئذ يكون قد جمع بين معصيتيْن: أُولاهما أنه مكَّنه من قيادةِ المركبةِ وهو ليس مُؤهلاً لها شرعًا ولا قانونًا، والثانية أنه قام بالتزوير والكذبِ المحرَّميْن كما هو معلوم من الدين بالضرورة. وعلى هذا فإن الأبَ إذا أراد أن يُعَلِّمَ ولدَه السياقةَ فله ذلك، بل إنَّ ذاك الصنيعَ منه يُعَدُّ مِنْ حُسن التربية والتنشئة للولد، لكن لا يجوز له أن يمكِّنه من المركبة فيقودها دون وجودِه معه، وإشرافِه المباشرِ عليه مهما كان السبب.

3- تكلُّمُ السائقِ بالهاتف المحمولِ وهو يقودُ المركبةَ، أو محادثُته غـيرَه أثنـاءَ قيادتِه لها: ذلك أن بعضًا من السائقين كلَّما اتُّصِلَ به هاتفيًّا، أو جاءتْه هو فكرةُ الاتصالِ، إلاَّ وبَادَرَ إلى الرَّدِّ أو إلى الاتصال دون أن يُوقِفَ مركبتَـه ليتفـرَّغ للمكالمة. وهذا التصرُّفُ فيه من الخطورة ما فيه؛ فإن الإنسانَ ضعيفٌ محـدودُ الطاقةِ والتركيزِ، لا يُمْكِنُهُ أن يُعْنَى بأكثر من موضوعٍ في آنٍ واحـدٍ، كـأنْ يَجْمَعَ بين السياقةِ ومعالجةِ الموضوعِ مَحَلِّ الاتصالِ الهاتفيِّ. وفي هـذا المعـنى يقول الله تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾[الأحـزاب:04]. ولذا فإن هذا السائقَ قد يَستطرد في تفاعُله مع موضوع الاتصال الهاتفي، حتى يصطدمَ بمركبة أُخرى، أو يسقبلَه جدارٌ، أو شجرةٌ، أو نحوُ ذلك مِمَّا يُمكن أن يَصطدم به، أو يُفَاجَأُ أثناءَ مكالمتِه بموقفٍ مروريٍّ ما، فلا يستطيع التحكُّم فيه، فيقع الحادث. وعلى هذا فإن التصرفَ اللائقَ في مثل هذه الحالـةِ أن يُوقِـف مركبتَه، ويُجري اتصالَه الهاتفي إنْ كان ولا بُدَّ منه، أو أن يواصـل مـسيرَه ويُؤجل الاتصالَ إلى ما بعد وصوله سالِمًا غانمًا.

4- التساهلُ في إعطاءِ رخصةِ السياقةِ لمن لم يُتْقِنْهَا: ذلك أن بعضًا من مدارس تعليمِ السياقةِ تُقَدِّمُ الرخصةَ للمتعلِّم قبل أن يُجيد السياقةَ مقابلَ مبلـغٍ مـاليٍّ معيَّنٍ، حتى إن بعضًا مِمَّنْ حاز الرخصةَ يَتَشَدَّقُ فيقول بأنه اشتراها اشتراءً دون أن يَتلقى أيَّ حصةٍ تدريبيةٍ، أو أنه تلقَّى عددًا محدودًا من الحصص، بحيـث لا يزال لحدِّ ساعةِ كلامِه وبإقراره هو لا يستطيعُ أن يقودَ السيارةَ منفردًا. فمِثْـلُ هذا الشخصِ لو أنه تجرَّأَ يومًا مَا على السياقة، فإنه يُتصوَّر منه أن يُوقع حوادثَ المرورِ. وذاك الصنيعُ من المشرفين على تعليم السياقةِ يُعَدُّ خيانةً للأمانـةِ الـتي تحمَّلوها، والنبيُّ ﷺ يقول: ﴿أربعٌ مَنْ كُنَّ فيه كان منافقًا خالصًا، ومَنْ كانت

فيه خَصْلَةٌ منهنَّ كانت فيه خَصْلَةٌ مِنَ النفاقِ حتى يَدَعَهَا: إذا ائْتُمِنَ خَانَ، وإذا حَــدَّثَ كَذَبَ، وإذا عاهــدَ غَدَرَ، وإذا خاصــمَ فَجَرَ﴾[رواه الــشيخان].

وعلى هذا، فإن مدارسَ التعليمِ لا يجوز لها بحالٍ من الأحوال أن تُسَلِّمَ رخــصةَ السياقةِ إلا لمن أتقنها؛ تبرئةً لذمتِها أمامَ اللهِ تعالى وأمامَ عباده.

5- السياقةُ في حال سكرٍ: ذلك أن بعضًا مِمَّنْ ابْتُلُوا بشرب الخمرِ، أو تعاطي المخدراتِ، بعد تناولِهم لهما، وتعدِّيهم على حدود اللهِ تعالى بارتكاب كــبيرةِ شربِ المسكرِ، بعد هذا كلِّه يَسمحون لأنفسهم بقيادةِ المركباتِ وهم فَاقِــدُوا العقلِ والتركيزِ والتوازنِ، فيُوقعون حوادثَ تكون في الغالب خطيرةً. والواقــعُ يُثْبِتُ أن أكثرَ حالاتِ حوادثِ المرورِ إنما تقع مِمَّنْ يسوقون في حالِ ســكرٍ. ولذا نُذَكِّرُ كلَّ مَنْ يتناول المسكراتِ بحُرمتها، بل إن الشرعَ الحنيفَ قد جعل لمتناولِها حدًّا وهو ثمانون جلدةً. ومَنْ أَبَى إلا أن يتعــدَّى حــدودَ اللهِ تعــالى فيتناولُها، فلا يزيد تَعَدِّيًا آخرَ بأن يقودَ مركبتَه في حال سكرٍ؛ فيُزهقُ الأرواحَ، ويعوِّقُ الأجسادَ، ويُذْهِبُ الأموالَ، ويحطِّمُ الممتلكاتِ.

6- الاستعراضاتُ العبثيَّةُ من قِبَلِ بعضِ الشبابِ: حيث إننا نجد بعضًا منــهم مِمَّنْ فيهم طيشٌ وإعجابٌ زائدٌ بقوَّتِهم الجسميةِ وقدرتِهم على التحكُّم في قيادة المركباتِ، نجدهم يستغلُّون الأعراسَ على وجهِ الخصوصِ، وكذا أجــزاء مــن الليل، ليَستعرضوا قوَّتَهم وقدرتَهم، وثَمَّةَ قد يُحَوِّلُونَ العرسَ إلى مأتمٍ، وقوَّتَهم إلى جُثَّةٍ هامدةٍ أو معاقةٍ، وسياراتِهم إلى حُطَامٍ، فيَجْنُونَ على أنفسهم أصــالةً، وعلى غيرهم بالتَّبَعِ. وهذا الإعجابُ بالذاتِ محرمٌ ابتداءً، حتى وإن لم يُــؤَدِّ إلى حوادثَ أليمةٍ؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّــكَ لَــن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً كُلُّ ذَلِكَ كَــانَ سَــيِّئُهُ عِنْــدَ رَبِّــكَ

مَكْرُوهاً﴾[الإسراء:37-38]، فما بَالُكَ إذا ما كان يؤدي في حالاتٍ كثيرةٍ إلى أحداثٍ مروريةٍ تتفاوت في درجة خطورتِها. ولذا نُناصح هؤلاء الشبابَ بالتزام التواضعِ والسكينةِ والوقارِ عند السياقة؛ فإن ذلك من صفات عباد الرحمن الذين قال فيهم جلَّ وعلاَ: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً﴾[الفرقان63]. كما أنَّ ذلك أَسْلَمُ لأنفسهم وممتلكاتِهم وأنفسِ وممتلكاتِ غيرِهم. ونُنَاصِحُ أيضًا الذين يُشرفون على تسيير شؤونِ العرسِ أن لا يُمَكِّنُوا أمثالَ هؤلاءِ من اللعبِ والعبثِ بأرواحِ وأموالِ الغيرِ؛ إذ إن النفسَ والمالَ من المقاصد الضروريةِ الخمسةِ التي جاءت الشريعةُ الإسلاميةُ لأجل الحفاظِ عليها إلى جانب الدينِ والعقلِ والعرضِ.

7- التجاوزُ عن قوانين المرورِ: إذ إن بعضًا من السائقين لا يُبالون في حالاتٍ معيَّنةٍ بما تُقَرِّرُهُ قوانينُ المرورِ، فيَقْفِزُونَ عليها، الأمرُ الذي يجعل مُستعملي الطريقِ يَتفاجأُون بذلك التجاوزِ، وقد لا يستطيعون التحكُّم في الموقف، فتحدثُ الكارثةُ. لذا نغتنمُ الفرصةَ لنقولَ للسائقين: إن احترامَ قوانينِ المرورِ وتطبيقَها واجبٌ شرعيٌّ، يَأْثَمُ مَنْ لا يحترمُها أو يتجاوزُ عنها. ويَعْظُمُ الإثْمُ إذا ما ترتَّب عن هذا التجاوزِ حادثُ مرورٍ، وكلما كانت الأضرارُ أكثر، إلا وكان الإثْمُ أعظم. ودليلُ وجوبِ احترامِ وتطبيقِ قوانينِ المرورِ؛ أن في ذلك مصلحةً مؤكَّدةً يُحَصِّلُهَا الأفرادُ وأسرُهم ومجتمعُهم ودولتُهم. فعندما يلتزمُ جميعُ السائقين بهذه القوانينِ، سنحافظُ على الأنفسِ والممتلكاتِ. والعكسُ صحيحٌ؛ فإنَّ عدمَ التقيُّدِ بها يُؤدي إلى ما نراه من الحوادثِ الأليمةِ التي لا تُحْمَدُ عُقباها.

نسأل اللهَ تعالى أن يُبَصِّرَنَا بعيوبنا، وأن يُعيننا على إصلاح ما فَسَدَ من أمورنا، وأن يحفظَنا جميعًا في أنفسِنا وأموالِنا، والحمدُ لله ربِّ العالمين.

الخطبة التاسعة

مِنْ علاماتِ إرادةِ اللهِ تعالى الخيرَ بعبدِهِ

إنَّ المتأملَ في النصوص الشرعيةِ من آياتٍ وأحاديثَ، يَجد أنَّها تُقَــرِّرُ بــأنَّ علاماتٍ معينةً لو أنَّ المسلمَ وَجَدَهَا في نفسِهِ، أو كَلَّفَهَا وجَاهَدَهَا حتى تكونَ فيها، فإنَّهُ من خلالِ ذلك يستطيعُ أن يُبَشِّرَ نفسَهُ وهو في الدنيا بأنَّ اللهَ تعالى قد أرادَ به خيرًا، ومِنْ ثَمَّةَ يَثْبُتُ على ما هو عليه، ويــسألُ اللهَ تعــالى القبــولَ، ويَطْمَئِنُّ إلى أنه في طريقِهِ إلى النجاة من عذاب الآخرةِ، والفوزِ بنعيمِهَا. ومِــنْ أهمِّ تلك العلاماتِ ما يأتي ذِكْرُهُ:

1- انشراحُ الصدرِ للإسلام: فإنَّ الإنسانَ إذا ما وَفَّقَهُ اللهُ تعالى لاعتناق دينِــه القويمِ، فنشأ ابتداءً في أسرةٍ مسلمةٍ -كحالنا نحن الجزائريين، الذين فتحْنا أعيُنَنا على هذه الدنيا، فوجدْنَا أنفسَنا بين يديْ أبويْنِ مسلميْنِ-، أو ذاك الذي نــشأ في وَسَطٍ غيرِ مسلمٍ، لكنَّ اللهَ تعالى سَهَّلَ له طريقًا للتعرُّفِ عليه -كما نسمع ونقرأُ يوميًّا تقريبًا في الصحف الوطنيةِ أو المنشوراتِ والمواقعِ العالميةِ عن دخول أعدادٍ في دين اللهِ تعالى-، وبعد ذلك يُوَسِّعُ هذا الإنسانُ صدرَه لتلقِّي تعــاليمِ الإسلامِ عقيدةً وأخلاقًا وعباداتٍ ومعاملاتٍ، ثم يَسعى في تطبيق هذه التعــاليمِ بكل ما أُوتِيَ من قوةٍ، مطمئنًّا تمامَ الاطمئنانِ لِمَا هو عليه، فهذا الإنسانُ قــد أراد اللهُ به خيرًا يقينًا؛ لِمَا رأى فيه سبحانه وتعالى من استعدادٍ لقبولِ الحــقِّ. والعكس صحيحٌ؛ فإن الذي ينشأُ في بيئةٍ مسلمةٍ ثم يَرْتَدُّ عن الإسلام -كالذي نلاحظُه الآن في بلادنا الجزائر من ظاهرة التَّنَصُّرِ، والعزوفِ عن الإسلام، مــن

بعض الناسِ، وفي بعض المناطقِ-، وكذا الذي يكون من غـير المـسلمين، ثم يُعْرَضُ عليه الإسلامُ، فيَضِيقُ صدرُه به، ولا يتقبَّلُه، فهذا دليلٌ على أن الله تعالى ما أراد خيرًا بهذا النمطِ من الناس؛ لِمَا رأى فيهم من عدم استعدادٍ لقبول الحقِّ.
وفي هذا المعنى يقول الله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء[1] كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾[الأنعام:125]. وحتى يَظْفَرَ الناسُ جميعًا بإرادةِ اللهِ تعالى الخيرَ بهم دَعَاهُمْ قاطبةً دون استثناءٍ إلى التصديقِ برسـالة محمد ﷺ، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُواْ خَيْراً لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾[النساء:170].

2- الفقهُ في دين الله تعالى: فقد صحَّ عن معاويةَ ؓ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: ﴿مَنْ يُرِدِ اللهُ بهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ﴾[متفق عليه]. والمقصودُ بالفقه في الدين العلمُ بأحكام الشريعةِ الإسلاميةِ من حيث العقائدُ والأخلاقُ والعباداتُ والمعاملاتُ، ثم العملُ بتلك الأحكامِ التي عُلِمَتْ. بمعنى أن الفقهَ في الدين هو علمٌ وعملٌ[2]؛ إذ إنَّ مَنْ عَلِمَ شيئًا من أحكام الشريعةِ ولم يعملْ به فهو ليس بفقيه، كمـا أنَّ الذي يعمل من غير علمٍ ليس بفقيه. فالشخصُ الأولُ يكون علمُه حجةً عليـه يومَ القيامةِ؛ ولذا كان السلفُ الصالحون يُحَذِّرون من كثرةِ العلماءِ الـذين لا يعملون -ويسمُّونهم بالقُرَّاءِ-، وقلةِ الفقهاءِ الذين يَعْلَمُونَ ويَعْمَلُونَ. قال عبـدُ

---

[1]- أي: أنه يَصْعُبُ عليه تقبُّل الإسلامِ حتى كأنَّه يتكلَّف الصعودَ إلى السماء.

[2]- نقول هذا؛ لأن الفقهَ في اللغة هو الفهمُ. فمن عَلِمَ ولم يعملْ، فهذا ليس بفاهمٍ. ومَنْ عَمِلَ بغير علمٍ، فهو ليس بفاهمٍ أيضًا.

اللهِ بنُ مسعودٍ ﵁: "كيف بِكُمْ إذا كَثُرَ قُرَّاؤُكم، وقَلَّ فقهاؤُكم". والشخصُ الثاني بِحُكْمِ أنه يعملُ بغير علمٍ سيقع في البدعة، بأن يتعبَّدَ إلى الله تعالى بما لم يُشَرِّعْ، وثَمَّةَ يكون قد أتعبَ نفسَه فقط؛ لأن عملَه مردودٌ عليه، وههنا يتأكَّدْ أنه ليس بفقيهٍ؛ لأنه أتعبَ نفسَه فيما لا طائلَ منه، والنبيُّ ﷺ يقول: ﴿مَنْ أحدثَ في أمرِنا هذا ما ليس منه فهو رَدٌّ﴾[رواه الشيخان]. وعلى هذا فإن المسلمَ الذي أراد الله به خيرًا هو ذاك الذي يسعى جاهدًا لِتَعَلُّمِ أحكامِ دينِه، مستغلاًّ كلَّ الوسائلِ المتاحةِ لتحصيله: حِلَقٌ تُعْقَدُ في المساجد، ومحاضراتٌ تُلْقَى في دُورِ العلمِ والثقافةِ المختلفةِ، بعضُ القنواتِ الفضائيةِ الطيبةِ التي يُطِلُّ علينا منها علماءُ ودعاةٌ ومُفتون يَعرضون بضاعتَهم المباركةَ، كتبٌ ورسائلُ وأشرطةٌ وأقراصٌ لأهل العلمِ الْمُعْتَبَرِينَ والمتخصِّصين. فالمسلمُ يستغلُّ كلَّ هذه الوسائلِ ليتعلَّم، ومع العلم يُبادر إلى التطبيق؛ حتى يَظْفَرَ بالْحُسْنَيَيْنِ: العلمِ والعملِ. بينما مَنْ عُنِيَ بالعلم دون عملٍ، أو بالعملِ دون علمٍ، أو مَنْ لم يُعْنَ بالاثنيْن معًا، فهذا ما أراد الله تعالى به خيرًا.

3- الابتلاءُ مع الصبر والاحتسابِ: فقد ثبت عن أبي هريرةَ ﵁ أن النبيَّ ﷺ قال: ﴿مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُصِبْ مِنْهُ﴾[رواه البخاري]. أي: أن اللهَ تعالى إذا أراد الخيرَ بعبده المؤمنِ -لا الكافرِ-، فإنه جلَّ وعلاَ يَبْتَلِيهِ بمصيبةٍ في جسده أو زوجِه أو ولدِه أو مالِه أو نحوِ ذلك مِمَّا يُمْكِنُ أن يُبْتَلَى به المؤمنُ في هذه الدنيا من أنواعِ الْبَلاَيَا، ثم يُوَفِّقُهُ إلى الصبرِ، والرِّضَى بقضاءِ اللهِ وقدرِه، واحتسابِ وادخارِ الأجرِ عنده سبحانه وتعالى. وكَوْنُ المصيبةِ خيرًا للمؤمن في مثل هذه الحالِ مع ما فيها من أَلَمٍ ووَجَعٍ ونَصَبٍ؛ أن المؤمنَ إذا ما ابْتُلِيَ بالمصيبة كَفَّرَ اللهُ تعالى عنه بها ذنوبَه. يقول النبيُّ ﷺ: ﴿ما يُصيبُ المسلمَ من نَصَبٍ، ولا

وَصَبٍ[1]، ولا هَمٍّ، ولا حَزَنٍ، ولا أذًى، ولا غَمٍّ، حتى الشوكةُ يُشَاكُهَا، إلا كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ﴾[رواه الشيخان]. فتكفيرُ الذنوبِ لا شَكَّ خيرٌ للإنسان؛ لأنَّ مصائبَ الدنيا غايةُ ما فيها أنها مصائبُ تزولُ بالأيامِ، لكنَّ عذابَ الآخرةِ بَاقٍ، فإذا كَفَّرَ اللهُ عن المؤمن بهذه المصائبِ صَارَ ذلك خيرًا له. ومِمَّا يؤكِّد ذلك أنه سوف يُحَصِّلُ من خلال صبره أجرًا عظيمًا لا يعلم مَدَاهُ إلا الله تعالى؛ قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[الزمر:10]. أما الذي يُبتلى فيَصْدُرُ عنه ما يُنْبِئُ بأنه ساخطٌ غيرُ راضٍ بقضاءِ اللهِ وقدرِه، فهذا ما أراد الله به خيرًا؛ لأنه سوف يتجرَّع ألَمَ المصيبةِ في الدنيا، ويُؤَاخَذُ في الآخرة على تَسَخُّطِهِ وعدمِ تسليمِه لقضاء اللهِ وقدرِه. ومع أنَّ الابتلاءَ مع الصبر والاحتسابِ من علامات إرادةِ اللهِ تعالى الخيرَ بعبده، فإنه لا ينبغي للمسلم أن يَسْتَدْعِيَ البلاءَ، كأَنْ يطلبَه من الله تعالى، أو أن يفعلَ ما مِنْ شأنه أن يُدْخِلَهُ فيه؛ لأنه قد يَحِلُّ به، ولكنه لا يستطيع الصبرَ والتحمُّلَ، وحينها تكون العاقبةُ سيئةً. وعلى هذا، فإن المسلمَ يسألُ ربَّه دائمًا السلامةَ والعافيةَ، فإنْ حَلَّ به البلاءُ استعانَ بالله تعالى عليه وصَبَرَ واحْتَسَبَ. ولذا صَحَّ أن رسولَ اللهِ ﷺ في بعض أيامِه التي لَقِيَ فيها عدوَّه -ولقاءُ العدوِّ من الابتلاء-، انتظرَ حتى مَالَتِ الشمسُ، ثم قامَ في الناس فقال: ﴿يَا أَيُّها الناسُ لا تَتَمَنَّوْا لقاءَ العدوِّ، واسْأَلُوا اللهَ العافيةَ، فإذا لَقِيتُمْ فاصْبِرُوا﴾[رواه الشيخان].

4- تعجيلُ عقوبةِ الذنبِ في الدنيا، وعدمُ إرجائِها للآخرةِ: فالإنسان لا يَخْلُو من معصيةٍ أو تقصيرٍ في الواجب، فإذا أراد اللهُ تعالى به خيرًا، عجَّل له العقوبةَ

[1]- الْوَصَبُ: هو المرضُ والْوَجَعُ.

في الدنيا، فيُبتلى في نفسه أو مالِه أو بأحد ممَّنْ يَتَّصِلُ به، أو بإقامة الْحَدِّ عليه. والعقوبة تُكَفِّرُ السيئاتِ، فإذا تعجَّلت وكَفَّرَ الله تعالى بها عن العبد، فإنه يَلْقَاهُ في الآخرة وليس عليه ذنبٌ؛ لأن العقوبةَ العاجلةَ طهَّرته. وهذه نعمةٌ كبيرةٌ؛ لأن عذابَ الدنيا أهونُ من عذاب الآخرةِ. لكن إذا أراد الله تعالى بعبده الشرَّ أمْهَلَهُ واستدرجَه، وأَدَرَّ عليه النعمَ، ودَفَعَ عنه النِّقمَ، حتى يَبْطَرَ ويَطْغَى، ثم يُدْرِكَهُ الموتُ وهو على تلك الحالِ، فيُلاقي ربَّه وهو مغمورٌ بسيئاته، فيعاقبُه بها. وفي هذا المعنى يروي أنسٌ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «إذا أراد اللهُ تعالى بعبده الخيرَ عَجَّلَ له العقوبةَ في الدنيا، وإذا أراد اللهُ بعبدِه الشَّرَّ أَمْسَكَ عنه بذنبِه، حتى يُوَافِيَهُ به يومَ القيامةِ»[رواه الترمذي]. وجاء في الأثر الصحيحِ أنَّ رجلاً لَقِيَ امرأةً كانت بَغِيًّا في الجاهلية، فجعل يُلاَعِبُهَا، حتى بَسَطَ يدَه إليها، فقالت: "مَهْ[1]؛ فإنَّ الله قد أَذْهَبَ الشركَ، وجاء بالإسلامِ". فتركها وولَّى، فجعلَ يلتفتُ خَلْفَهُ ينظرُ إليها، حتى أصابَ الحائطُ وجهَه، فأخبرَ النبيَّ ﷺ، فبيَّن له أن الله تعالى أراد به خيرًا؛ عندما عجَّل له عقوبةَ ذنبِه في الدنيا، ولم يُرْجِئْهَا للآخرة.

5- فُشُوُّ الرفقِ في التعامل بين أفرادِ الأسرةِ: فالرفقُ ما كان في شيءٍ إلا زَانَهُ، ولا نُزِعَ من شيءٍ إلا شَانَهُ. وعلى هذا، فإن الله تعالى إذا أراد بأسرةٍ خيرًا زَيَّنَ حياتَها بنشرِ الرفق فيها، فلا تَجِدُ فيهم غلظةً ولا فُحْشًا ولا عقوقًا ولا تكليفًا بما يُرْهِقُ ولا استبدادًا بالرأي. بل تَجِدُ فيهم لِينًا وقولاً طيبًا وبِرًّا وتَفَهُّمًا وتعاونًا ومشاورةً. وإنْ نَزَغَ الشيطانُ الإنسيُّ أو الجنيُّ بينهم، فسُرعان ما يتسامحون ويتصالحون. وقد جاء في هذا الْمِضْمَارِ عن أُمِّنَا عائشةَ رضي الله عنها أنَّ

---

[1]- مَهْ بتسكين الهاء أو بكسرها اسمُ فعلِ أمرٍ، ومعناه: اكْفُفْ.

رسولَ اللهِ ﷺ قال لها: ﴿يا عائشةَ ارْفِقِي؛ فإنَّ اللهَ إذا أراد بأهلِ بيتٍ خـــيرًا، أَدْخَلَ عليهم الرِّفْقَ﴾[رواه أحمد].

6- تسخيرُ وزيرٍ صالحٍ للحاكم: فمعلومٌ أن مسؤوليةَ الملوكِ والأمراءِ والرؤساءِ وسائرِ وُلاَّةِ أمورِ المسلمين مسؤوليةٌ عظيمةٌ؛ حيث إنهم يُشْرِفُونَ علـــى تـــدبير شؤونِ الدينِ والبلادِ والعبادِ. ومعلومٌ أيضًا أنهم بَشَرٌ يُخطئون ويُـــصيبون، وأن طاقتَهم محدودةٌ. ولذا كان لزامًا عليهم أن يَتَّخِذُوا لأنفسهم وزراءَ ومستشارين، يُعينونهم على القيام بمسؤوليَّتهم، وأداءِ مهمتهم. وههنا إذا أراد اللهُ تعالى بحاكمٍ معيَّنٍ خيرًا هَيَّأَ له من الوزراء والمستشارين الْأَكْفَاءِ والنُّزَهَاءِ، فيكونُون له عَضُدَ خيرٍ؛ إذا هَمَّ بفعلِ ما فيه مصلحةٌ للإسلام والمسلمين أعانوه على ذلك بالرأي والتشجيع، وإذا نَسِيَ أمرًا معينًا كان من الْمُفْتَرَضِ أن يَفعلَه ذكَّروه بـــه، وإذا غَفَلَ عن شيءٍ فيه منفعةٌ فطَّنوه إليه، وإذا أَحْسَنَ قالوا لـــه: "أحـــسنتَ"، وإذا أخطأَ قالوا له: "أخطأتَ". رَوَتْ أُمُّنَا عائشةُ رضي الله عنها أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال لها: ﴿إذا أراد اللهُ بالأميرِ خيرًا، جعلَ له وزيرَ صِدْقٍ: إنْ نَسِيَ ذَكَّرَهُ، وإنْ ذَكَرَ أَعَانَهُ. وإذا أراد اللهُ به غيرَ ذلك، جَعَلَ له وزيرَ سوءٍ: إنْ نَسِيَ لَمْ يُذَكِّرْهُ، وإنْ ذَكَرَ لَمْ يُعِنْهُ﴾[رواه أبو داود]. وعلى هذا، فَـــوَلِيُّ أمرِ المسلمين عليه أن يَتَخَيَّرَ ابتداءً من الوزراء والمستشارين والأعوانِ مِمَّنْ هم من أهل الدينِ والخِبرةِ. فإذا ما وجدَهم كذلك، فلْيعلمْ بأن اللهَ أراد به خيرًا. وإذا وَجَدَ غـــيرَ ذلـــك فلْيبادرْ إلى تَنْحِيَتِهِمْ وإبعادِهم عنه؛ حتى لا يُحرِّفوه عن الجادَّة، وإلا كان حسابُه عسيرًا في الآخرة.

7- حُسْنُ الختامِ بفعل الطاعةِ قبل الموتِ: فإذا قُبِضَ الإنسانُ وهو على الإيمانِ والطاعةِ، فهذه أمارةٌ على أن اللهَ تعالى أراد به خيرًا؛ وإلاَّ ما كان لِيُوَفِّقَـــهُ إلى

هذه الخاتمةِ الحسنة. والعكسُ صحيحٌ؛ فإن الإنسانَ إذا ما قُبِضَ وهو مقيمٌ على المعاصي، فهذا دليلٌ على أنه عزَّ وجلَّ ما أراد به خيرًا؛ وإلاَّ ما كان لِيجعلَ خاتمتَه سيئةً. وقد ثَبَتَ عن أنسٍ ﷺ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: ﴿إذا أراد اللهُ بعبدٍ خيرًا استعملَه﴾. فقيلَ: "كيفَ يستعملُه يا رسولَ الله؟" قال: ﴿يُوَفِّقُهُ لعملٍ صالحٍ قبلَ الموتِ﴾[رواه الترمذي]. وإذا كانت الأعمالُ بالخواتيمِ، فإن المسلمَ العاقلَ اللبيبَ الحريصَ على تأمين مصيرِه في الآخرة، هو ذاك الذي يتحرَّز دائمًا من الوقوع في المعاصي، ويسعى جاهدًا في الإتيان بالطاعات؛ تَحَسُّبًا لساعة الختامِ، التي إذا ما جاءته وهو على هذه الحالِ من الاستقامة، لَقِيَ ربَّه وهو عليه راضٍ. وهذا الصنفُ من الناس هو الذي لا يهابُ الموتَ، بل إنه إذا جاءه فرح به؛ لأنه سينقلُه إلى حالٍ أفضل. ولذا لما احْتُضِرَ بلالُ بنُ رباحٍ ﷺ، كانت زوجتُه تقول: "وَاوَيْلاَهُ". فكان هو يقول: "وَافَرْحَاهُ؛ غدًا نَلْقَى الأحبةَ محمدًا وحِزْبَهُ". ولْيحذرْ المسلمُ أن يكون من المفرِّطين الذين يُطْلِقُونَ العنانَ لأنفسهم، فيأْتون الفواحشَ ما ظهرَ منها وما بَطَنَ، ولا يكادون يأْتون الطاعةَ إلا قليلاً، ولذا عندما تأتي المنيةُ أحدَهم بغتةً يقول: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ﴾ فيقال له: ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[المؤمنون:99-100].

أسأل اللهَ تعالى أن يشرحَ صدورَنا للإسلام، وأن يُفقهنا في دينه، وأن يرزقَنا الصبرَ عند الإصابة منَّا، وأن يجعلَ أُسَرَنَا ملْؤُهَا الرفقُ في التعامل بين أفرادها، وأن يُهَيِّئَ لولاَةِ أمورِنا البطانةَ الصالحةَ الناصحةَ، وأن يستعملَنا في طاعته، وأن يَختم لنا بالْحُسْنَى. وصلِّ اللهمَّ وسَلِّمْ على محمدٍ وعلى آله وصحبِه ومَنْ تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدينِ، وآخرُ دعوانا أَنِ الحمدُ لله ربِّ العالمين.

الخطبة العاشرة

مِنَ الأسبابِ المُعِينَةِ على الخشوعِ في الصلاةِ

مِنَ المقرَّر في الفقه الإسلامي أنَّ الخشوعَ في الصلاة فرضًا ونَفْلاً مِنْ المستحبَّات التي يُثَابُ المسلمُ على فِعلها، ولا يُعاقب على تركِها. ومِنْ حيث الصِّحَّةُ والبطلانُ، فإن الخشوعَ إذا ما غاب عن الصلاة لا يُبطلها، ولكن يجعلها ناقصةً؛ إذ إنَّ الخشوعَ فيها هو سُكُونُ الأعضاءِ، وحضورُ القلبِ لِمُنَاجَاةِ ربِّه ﷻ، فهو بهذا المعنى إذا غَابَ عنها تُصبح كالجسد بِلاَ روحٍ؛ فالصلاة كَكَيَانٍ ظاهريٍّ موجودةٌ، إلا أنَّ لُبَّهَا وجوهرَها غيرُ موجود. ولذا لا تكاد الصلاةُ الخاليةُ من الخشوع تُؤْتِي ثمارَها الْمَرْجُوَّةَ، ولا تكاد تُحَقِّقُ المقاصدَ التي لأجلها شُرِعَتْ؛ فهي حينئذٍ لا تكون صلةً حقيقيَّةً بين العبدِ وربِّه، ولا تنهى صاحبَها عن الفحشاء والمنكرِ.

وعلى هذا، فإن المسلمَ الحريصَ على أن تكون صلاتُه كاملةً، وأجرُها تَامًّا، وتُحَقِّقُ فيه المقاصدَ التي لأجلها شُرِعَتْ، سيَطرحُ هذا السؤالَ الأساسَ: ما هي الأسبابُ التي تُعِينُنِي على الخشوع في صلاتي؟ وما هي العواملُ التي تَجعل قلبي حاضرًا فيها لمناجاةِ ربِّي؟ وما هي الوسائلُ التي تُسَكِّنُ أعضائي فلا تَنْشَغِلُ إلا بأفعالِ وأقوالِ الصلاةِ؟ نقول هذا؛ لأنَّنا في زمنٍ أصبح فيه الخشوعُ غائبًا عن صلاةِ عددٍ مُعْتَبَرٍ من الناس، حتى إن بعضَهم لا يكادُ يَذْكُرُ ما قرأَهُ الإمامُ في الصلاةِ الجهريَّة، أو في أيِّ ركعةٍ هو من ركعاتِ الصلاةِ، وبعضَهم لا تكاد تَسْكُنُ يدُه: فمَرَّةً يَحُكُّ بها أجزاءَ من أعضاء جسدِه، ومَرَّةً يُرَتِّبُ بها ثيابَه،

وبعضَهم تبقى عينُه وأذنُه منشغلةً بما يدور حولَه من أمور الدنيا، وبعضَهم لا تأتيه الأفكارُ ومعالجةُ قضايا حياتِه الخاصةِ إلا في الصلاة، ونحو ذلك مِمَّا يَجده المصلُّون في هذا الزمان مِمَّا يُنافي الخشوعَ في صلاتهم.

ومن خلال النَّظَرِ في النصوص الشرعيةِ، يُمْكِنُ أن نتَناصحَ بمراعاةِ الأمورِ الآتيةِ؛ فهي مِمَّا يُوَلِّدُ الخشوعَ في الصلاة:

1- إبعادُ كلِّ ما مِن شأنِه أن يُشْغِلَ عن الصلاة عند إرادةِ الشروعِ فيها: وذلك كالطعام الذي يحتاج إليه المصلِّي أو يشْتهيه، ومدافعةُ الأخْبَثَيْنِ. فإذا ما كان في حالةٍ ما في حاجةٍ إلى الطعام، أو وَجَدَ أنَّ نفسَه تشْتهيه عندما رَآهُ، فلْيبدأْ بِه؛ فيُشْبِعُ حاجتَه ورغبتَه، ثم يتفرَّغ للصلاة. ومِثْلُ ذلك إذا ما دَافَعَهُ البولُ أو الغائطُ، فلا يَدْخُلُ في الصلاة حتى يَقضيَ حاجتَه. يقول النبيُّ ﷺ: ﴿لاَ صلاةَ بحضرةِ طعامٍ، ولاَ هو يُدَافِعُهُ الْأَخْبَثَانِ﴾[رواه الشيخان].

2- استحضارُ فضلِ الخشوعِ في الصلاة: فإن الإنسانَ مَجْبُولٌ على أنْ لا يعملَ إلا بمقابلٍ، سواء كان هذا المقابلُ ماديًّا أو معنويًّا. أما إذا لم يكن هناك مقابلٌ، فإنه يَفشل عن القيام بأي عملٍ. والأمر نفسُه في مسألة الخشوع في الصلاة؛ فإن المصليَ إذا لم يَسْتَحْضِرْ حين صلاتِه ما سينالُه عن الخشوع من ثوابٍ جزيلٍ، فإنه سوف لا يُعْنَى به. والعكسُ صحيحٌ؛ فإنه إذا ما استحضرَ بأنه سينال أجرًا عظيمًا، ويَظْفَرُ بالفردوس الأعلى، إذا ما خشع في صلاته، اندفعتْ نفسُه إليه، وسَعَتْ في تحصيله. يقول الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ ثم يُعَدِّدُ مجموعةً من صفات المؤمنين المفلحين بعد أن جعل أولَ صفاتهم الخشوعَ في الصلاة، إلى أن يُقَرِّرَ مآلَهم في الآخرة قائلاً: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[المؤمنون:1-2 و10-11].

3- جَعْلُ قاعدةِ: "ليس للمصلِّي من أجرِ صلاتِه إلا بقدرِ ما عَقَلَ منها" نَصْبَ الْعَيْنَيْنِ عند الدخول في أيِّ صلاةٍ: فالمصلي ينبغي أن يعتقدَ أنــه إذا خــشع في صلاته كثيرًا كان أجرُه كبيرًا، وإذا كان خشُوعه فيها قليلاً أو منعدمًا، فليس له من أجرِها إلا بمقدار ذاك الخشوعِ. يقول النبيُّ ﷺ في الحديث الحــسنِ: ﴿إنَّ الرجلَ لَيَنْصَرِفُ وما كُتِبَ له إلا عُشْرُ صلاتِه، تُسعُهَا، ثُمُنُهَا، سُبُعُهَا، سُدُسُهَا، خُمُسُهَا، رُبُعُهَا، ثُلُثُهَا، نِصْفُهَا﴾[رواه أبو داود]. فإذا استحضرَ المصلي هــذا المعنى دائمًا وأبدًا، فإنه سوف يُجاهد نفسَه، ويَحْمِلُهَا على الخشوعِ؛ حــتى لا تذهبَ صلواتُه سُدًى، ولا يستفيد من أجورها.

4- ذِكْرُ الموتِ عند الصلاةِ: فالمسلمُ عند دخولِه في الصلاة المعيَّنَةِ، إذا تــذكَّر الموتَ الذي هو بَوَّابَةٌ إلى العالم الأخرويِّ الدائمِ، فإن قلبَه سوف يَرقُّ، ويترفَّع عن الدنيا وشهواتِها ومشاغلِها، ويَنصرفُ إلى الآخرة، ويتمحَّضُ لربِّه، ويُوَفَّقُ إلى الحضور والتفاعل مع الصلاة في أقوالها وأفعالها. بل إن المصليَ عليه أن يَعْتَبِرَ الصلاةَ التي هو فيها آخِرَ صلاةٍ سيُصليها؛ لأنه حينئذٍ سيُصلي صــلاةَ مُــوَدِّعٍ للدنيا، مُقْبِلٍ على الآخرة، فيكون خاشعًا لا مَحَالَةَ. يقول النبيُّ ﷺ: ﴿اذْكُــرِ الموتَ في صلاتِك؛ فإنَّ الرجلَ إذا ذَكَرَ الموتَ في صلاتِه، لَحَــرِيٌّ أنْ يُحْــسِنَ صلاتَه. وصَلِّ صلاةَ رجلٍ لاَ يَظُنُّ أنهُ يُصَلِّي صلاةً غيرَها﴾[رواه الديلمي].

5- أنْ يُوقِنَ المسلم وهو يُصلي بأنه بين يديْ ربِّه الــذي يُراقــب الــصغيرةَ والكبيرةَ والظاهرَ والباطنَ من أقواله وأفعاله: فالصلاة صلةٌ بين العبد وربِّه، ولذا فإنَّ المصليَ عندما يُكَبِّرُ ينبغي أن يَسْتَشْعِرَ بأنه بين يديِ اللهِ ﷻ الذي لا تخفى عليه خافيةٌ. وهذا الشعورُ يَجعلُه يَصِلُ إلى درجة الإحسانِ التي قال عنها النبيُّ ﷺ: ﴿أنْ تعبدَ اللهَ كأنَّك تراهُ، فإنْ لَمْ تكنْ تراهُ، فإنَّهُ يَرَاكَ﴾[رواه مــسلم].

ومِنْ صُوَرِ الإحسانِ في الصلاة أن يَخشع المسلم في جميع أجزائِها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. بل ينبغي على المصلي أن يَعْلَمَ بأن اللهَ تعالى يُجيبُهُ عندما يقرأُ الفاتحةَ؛ فقد صَحَّ عن أبي هريرةَ ﷺ أنه قال: "سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: ﴿قالَ اللهُ تعالى: قَسَّمْتُ الصلاةَ[1] بَيْني وبين عبدي نصفيْن، ولِعبدي ما سأل. فإذا قالَ العبدُ: الْحَمْدُ للَّه رَبِّ الْعَالَمِينَ، قال اللهُ: حَمِدَنِي عبدي. فإذا قالَ: الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ، قالَ: أَثْنَى عليَّ عبدي. فإذا قالَ: مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ، قالَ: مَجَّدَنِي عبدي. فإذا قالَ: إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ، قالَ: هذا بَيْني وبين عبدي ولِعبدي ما سألَ. فإذا قالَ: اهدِنَا الصِّرَاطَ الْمُستَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ، قالَ: هذا لِعبدي ولِعبدي ما سألَ﴾"[رواه مسلم]. وللهِ المثلُ الأعلى، فإنَّ الإنسانَ إذا ما كان في اتِّصَالٍ هاتفيٍّ مع شخصيةٍ مرموقة، فإنه سوف يتفاعلُ مع المحادثة، ويُصغي لِكلماتها أَيَّمَا إصغاءٍ؛ احترامًا وإجلالاً لهذه الشخصيةِ. فما بَالُ المصلِّي إذا كانت محادثتُه مع اللهِ جلَّ في عُلاَهُ، أليس حَرِيًّا به أن يَخشع ويَتفاعل؟

6- أنْ يُبَكِّرَ المصلي للصلاة المفروضةِ، وأنْ يُداومَ على الذِّكر عَقِبَهَا، وأنْ يُحافظَ على الرواتبِ[2] ما استطاع إلى ذلك سبيلاً: فلو تصوَّرْنا أن مسلمًا معيَّنًا عندما سمع الأذانَ اتَّجَهَ إلى المسجد في سكينةٍ ووَقَارٍ لأداء صلاته في جماعة -أو كان متواجدًا أصلاً فيه-، وجاء بسنة التَّرْدِيدِ مع المؤذِّن، ثم سأل الوسيلةَ للنبيِّ

---

[1]- يُقْصَدُ بالصلاة هنا: سورة الفاتحة.

[2]- الرواتبُ من الصلوات هي النوافل التي كان النبيُّ ﷺ يُواظب على الإتيان بها قبل أو بعد الصلواتِ المفروضةِ، وهي عشرُ ركعاتٍ: اثنتان قبل الفجر، واثنتان قبل الظهر، واثنتان بعده، واثنتان بعد المغرب، واثنتان بعد العشاء.

ﷺ، وأتى بذكْر الذهابِ إلى المسجد والدخولِ إليه، وصلَّى تحيةَ المسجدِ وكذا الراتبةَ -إن كانت هناك راتبةٌ-، وجلس في الصفِّ الأولِ فالأولِ، وشَهِدَ تكبيرةَ الإحرامِ مع الإمام، وبعد الخروجِ من الصلاة بالتسليم بَقِيَ في مكانــه وجــاء بالأذكار الْمَسْنُونَةِ عَقِبَ الصلواتِ المفروضةِ، ثم أتى بالراتبةِ -إن كانت هناك راتبةٌ-، فمِثْلُ هذا المصلي يكون قد سَيَّجَ فريضتَه بسياجٍ متينٍ قبلَ الدخولِ فيها وبعد الخروجِ منها، فتَسْلَمُ صلاتُه -وقد جاءت في الوسط- مــن الــشواغل، فيكون بهذه التهيئةِ النفسيةِ لذاته قد تمكَّن من الخشوع في صلاته إلى حَدٍّ كبيرٍ.

7- مراعاةُ أحكامِ التلاوةِ حين قراءةِ القرآنِ الكريمِ في الصلاة، وتحسينُ الصوتِ بها، مع تنويع المقروءِ به من السُّوَرِ والآيات: يقول الله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُــرْآنَ تَرْتِيلاً﴾[المزمل:04]. وقد أثنى النبيُّ ﷺ على أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه -كما في الصحيحيْن- لَمَّا سمعه يُحَسِّنُ صوتَه بتلاوة القرآنِ الكريمِ. وعلى هذا، فإن المسلمَ إذا صلَّى بالناس إمامًا، أو صلَّى فَذًّا، يتلُو الفاتحةَ وما تيسَّر من القــرآن بعدها ترتيلاً، سواء كانت التلاوةُ سريةً أم جهريةً، ومع الترتيل ينبغي أن يُحَسِّنَ صوتَه بالتلاوة ما استطاع. فههنا نتصوَّرُ منه الخشوعَ؛ لأنَّ الحروفَ والكلماتِ واضحةٌ، وقد صدرتْ بصوتٍ شَجِيٍّ. أما إذا قرأَ المصلي القرآنَ غيرَ مرتلٍ فلم يُعْطِ الحروفَ حقَّها، أو لَمْ يُحَسِّنْ صوتَه به، فأنَّى له أن يَخشعَ؟! وممَّا يُساعد على الخشوع أكثرَ في الصلاة التنويعُ في السُّوَرِ والآياتِ الْمَتْلُوَّة بعد الفاتحةِ؛ لأن النفسَ تتطلَّعُ للجديد، فإذا ما قَرَعَ أُذُنَهَا موضعٌ جديدٌ من كتــاب الله تعــالى انتبهتْ وتفاعلتْ، بينما إنْ تكرَّرَ عليها الموضعُ فقد تنصرفُ عنه ذهنيًّا؛ بِحُكْمِ أنها أَلِفَتْهُ.

8- التأمُّلُ والتدبُّرُ فيما يُقال من آياتٍ وأذكارٍ ودعاءٍ: فالمصلي حتى يَحْصُلَ له الخشوعَ في صلاته ينبغي أن يتدبَّرَ في الآيات المقروءةِ فيها تدبُّرَ تَفَهُّمٍ، أو تدبُّرَ مَحَبَّةٍ[1]، وإلا فإنه ما وَقَّرَ القرآنَ حقَّ التوقير. ولذا وَبَّخَ اللهُ تعالى أقوامًا لا يتمعَّنون في الآيات القرآنيةِ فقال عنهم: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[محمد:24]. كما أن الصلاةَ مشتملةٌ على أذكارٍ مختلفةٍ كالتكبير والتسبيح والتشهد، ومِنَ المستحبِّ أن تشتملَ على الدعاء في السجود وعَقِبَ التشهدِ وقبلَ التسليمِ. فالمصلي وهو يَتَفَوَّهُ بهذه الأذكارِ والأدعيةِ عليه أن يتمعَّن فيها؛ فإن ذلك مِمَّا يُعينه على استحضارِ القلبِ.

9- استحضارُ صُوَرِ الخشوعِ عند السلفِ الصالحِ الذين جعلهم اللهُ تعالى للمتقين أئمةً: وَلِي أن أَذْكُرَ في هذا الْمِضْمَارِ نموذجًا رائعًا في تمام الخشوعِ لله في الصلاة، وهو عروةُ بنُ الزبيرِ بنِ العوامِ ﷺ، فإنه لَمَّا أصاب رجلَه داءُ الْأَكَلَةِ[2]، قيل له: "لا بُدَّ من قطعِ قدمِك؛ حتى لا ينتشرَ المرضُ في جسمِك كلِّه". ثم عَرَضُوا عليه الخمرَ والْمُنَوِّمَ؛ لِيَغيبَ عقلُه، فلا يُحِسُّ بألم القطعِ. فرفضَهما. ثم عَرَضُوا عليه الرجالَ لِيُمسكوه، فقال: "أنا أُعينكم على نفسي". قالوا: "لا تُطيق". قال: "دَعُونِي أُصلي -وهنا مَحَلُّ الشاهدِ-، فإذا وجدتُموني لا أتحرَّك، فقد سكنتْ جوارحي واستقرَّتْ، فأَنْظِرُونِي حتى أَسجدَ، فإذا

---

[1]- تَدَبُّرُ القرآنِ الكريمِ على نوعيْن: تدبرُ تَفَهُّمٍ وتأملٍ في الألفاظ والمعاني -وهذا لا يستطيعه الأميُّ في أغلب أحوالِه-، وتدبرُ محبةٍ لِمَا يُتْلَاَ؛ وذلك بأنْ يُصْغِيَ للآيات وهو لا يفهم معانِيَها، إلا أنه يستعذبُها ويُجِلُّهَا ويَخْشَعُ لها؛ لأنه يعتقد اعتقادًا جازمًا بأنها من عند الله تعالى -وهذا يستطيعه كلُّ واحدٍ من المسلمين بما فيهم الأميُّ-.

[2]- الْأَكَلَةُ: مرضٌ أشبهُ ما يكون بالسرطان -نسأل اللهَ تعالى العافيةَ-.

سجدتُ فما عُدْتُ إلى الدنيا، فافعلوا بي ما تشاؤون". فجاء الطبيبُ وانتظــرَ، فلما سجدَ أَتَى بالمنشار فقطعَ قدمَ الرجلِ، ولم يَصْرُخْ، بل كان يقول: "لا إله إلا الله، رضيتُ بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمدٍ نبيًّا ورسولاً"، حتى أُغْــشِيَ عليه ولم يصرخْ صرخةً واحدةً. فلمَّا أفاقَ أَتَوْهُ بقدمه، فنظرَ إليهـــا، وقـــال: "أُقْسِمُ بالله أني لم أَمْشِ بك إلى حرامٍ، ويَعلم اللهُ كَمْ وقفتُ عليك بالليل قائمًا لله". فقال أحدُ أصحابِه: "أَبْشِرْ، جزءٌ من جسدك سَبَقَكَ إلى الجنة". فقـــال: "واللهِ ما عزَّاني أحدٌ بأفضلَ من هذا العزاءِ". فهذا النموذجُ الحيُّ من الخاشعين وأمثالُه، إذا ما اطَّلع عليه المسلمُ، فإنه سيَحْذُو حَذْوَهُ، ويُحاول أن يتشبَّه بـــه، فيتكلَّف الخشوعَ في بدايةِ أمرِه، ثم يصبحُ بعد ذلك عنده سَلِيقَةً.

10- التجاءُ العبدِ إلى الله تعالى بالدعاء في الصلاة وخارجها بأنْ يرزقَه الخشوعَ فيها: فالدعاء سلاحُ المؤمنِ ومَلاَذُهُ الذي يلجأ إليه في الْمُلِمَّـــاتِ، والله ﷻ لا يُخَيِّبُ عبدَه إذا ما رأى فيه صدقًا في الالتجاء إليه. يقول جلَّ وعلاَ: ﴿وَقَـــالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[غافر:60]. وعن عثمانَ بنِ أبي الْعَاصِ رضي الله عنه أنه أَتَى النبيَّ ﷺ فقال: "يا رسولَ اللهِ إن الشيطانَ قد حَالَ بيني وبين صلاتي وقراءتي يُلَبِّسُهَا علـــيَّ". فقال رسولُ اللهِ ﷺ: ﴿ذاك شيطانٌ يُقَالُ له خِنْزَب، فإذا أحسَسْتَـــه فتَعَوَّذْ بالله منه، وَاتْفُـــلْ على يسارك ثلاثًا﴾. قـــال: "ففعلـــتُ ذلـــك، فأَذْهَبَـــــهُ اللهُ عنِّي"[رواه مسلم].

نسأله ﷻ أن يجعلَنا من أهلِ الخشوعِ في صلواتِهم، وأن يوفِّقنا إلى ما يحبُّـــهُ ويرضاه، وأن يُسكننا الفردوسَ الأعلى مع الأنبيـــاءِ والـــصِّدِّقِين والـــشهداءِ والصالحين وحَسُنَ أولئك رفيقًا، والحمدُ لله رَبِّ العالمين.

الخطبة الحادية عشرة

لماذا لا يُوَفَّق بعضُ التائبين في توبتهم؟

إن المسلمَ بِحُكْمِ بشريَّته قد يقع في المعصية، فهو ليس نبيًّا معصومًا، ولا مَلَكًا مَجْبُولاً على الطاعة، فقد يَسْتَزِلُّهُ الشيطانُ العدوُّ المبينُ، أو تُغْوِيه نفسُه الأمارةُ بالسوء، فيُقَصِّرُ في أداء واجبٍ شرعيٍّ، أو يرتكبُ فعلاً مَنهيًّا عنه شرعًا. يقول النبيُّ ﷺ في الحديث الحسنِ: ﴿كلُّ ابنِ آدمَ خَطَّاءٌ، وخيرُ الخطَّائين التَّوَّابُونَ﴾[رواه الترمذي وابن ماجه]. فالنبيُّ ﷺ يُقَرِّرُ بأن الإنسانَ كثيرُ الخطأِ، إلا أنه يدعو مُقْتَرِفَ الخطأِ إلى التوبة. وهذا هو شأنُ كثيرٍ من النصوص الشرعيةِ التي تَحُثُّ أصحابَ المعاصي إلى المبادرة على التوبة منها، وعدمِ الإصرارِ على البقاءِ عليها. ومِنْ هذه النصوصِ:

- قولُه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[التحريم:08]. فالمولى جلَّ وعلاَ يُنادي المؤمنين بوصف الإيمانِ، ويأمرهم بالتوبة من ذنوبهم، إلا أن هذه التوبةَ يجب أن تكون نصوحًا. والتوبةُ النصوحُ هي ما اجتمعت فيها ثلاثةُ أمورٍ: الندمُ على فعل الذنبِ، والإقلاعُ عن فعله، والعزمُ على عدم الرجوعِ إليه. وإذا كان الذنبُ متعلقًا بالعباد، فلا بُدَّ من أمرٍ رابعٍ، وهو إرجاعُ الحقوقِ إلى أصحابها.

- قولُه ﷺ في الحديث الصحيحِ: ﴿إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يَبْسُطُ يدَه بالليل لِيَتُوبَ مُسِيءُ النهارِ، ويَبْسُطُ يدَه بالنهارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ الليلِ، حتىَّ تطلعَ الشمسُ من مغربِها﴾[رواه مسلم]. فالنبيُّ ﷺ يبيِّنُ أن الله جلَّ في عُلاَهُ مِنْ رحمتِه أنه يَقْبَلُ توبةَ الْمُذْنِبِينَ بالنهار إذا رجعوا إليه بالليل، كما أنه يَقْبَلُ توبةَ الْمُذْنِبِينَ بالليل إذا رجعوا إليه بالنهار، إلا أنَّ بابَ التوبةِ يُغْلَقُ، فلا تُقْبَلُ من الْمُذْنِبِ، إذا ظهرتْ علامةٌ من علاماتِ الساعةِ الكُبرى، كطلوعِ الشمسِ من مغربِها.

والملاحظُ في دنيا الناس، يَجدُ أن بعضَهم يَقَعُ في المعصية، كأنْ ينظرَ إلى الحرامِ، أو يَقَعَ في الفاحشةِ، أو يسمعَ غناءً ماجنًا، أو يشربَ خمرًا، أو يتعاطى مخدرات، أو يُدْمِنَ على الدخان، أو يلعبَ الميسرَ، أو يُخْرِجَ الصلاةَ عن وقتها، أو يتركَها كُلِّيَّةً، أو يَسْتَرْزِقَ من حرامٍ، أو نحوِ ذلك من سائر المحرماتِ التي يُمكن أن يَتَلَبَّسَ بها المسلمُ. وهؤلاءِ العصاةُ قد يَمُنُّ اللهُ تعالى عليهم بفضله وكرمه فيتوبون. إلا أنهم في توبتهم على صنفيْن: صنفٌ يُصْلِحُ اللهُ تعالى حالَه، فيَثْبُتُ على توبته إلى أن يَلْقَى ربَّه. وصنفٌ آخَرَ لا يَثْبُتُ على توبته؛ إذ إننا نجدُه بعد مدةٍ قد تَطُولُ أو تَقْصُرُ يَنْتَكِسُ، فيَعُودُ إلى ما كان عليه من المعاصي. وههنا نطرحُ السؤالَ الْآتِيَ: لماذا لم يُوَفَّقْ هذا الصنفُ من التَّائبين في توبتِهم؟ إن أسبابَ عدمِ التوفيقِ في التوبة متعدِّدةٌ، نذكر أهمَّها فيما يأتي:

1- عدمُ صدقِ النيةِ في التوبة من المعصية المعيَّنَة: ذلك أن بعضَهم قد يَتَصَنَّعُ التوبةَ تَصَنُّعًا؛ فمنهم مَنْ يكون قد أظهر توبتَه استحياءً من الناس فقط، كأنْ يُنَاصِحَهُ بعضُ الصالحين فيُدْعَى إلى التوبة، فيَستحيي مِنْ أن يَرُدَّهُمْ، فيدَّعي أنه تاب، وما اطمأنَّ قلبُه لها، ولا يزال شيطانُه مُسْتَحْوِذًا عليه. ومنهم مَنْ يتظاهرُ بالتوبة لأجل تحقيقِ غرضٍ دنيويٍّ معيَّنٍ، كأنْ يَظْفَرَ بالزواج من امرأةٍ أرادها، أو

ينالَ مشاركةَ شخصٍ في مشروعٍ ما، أو يَحُوزَ ثقةَ جماعةٍ من الناس فتُقَدِّمُـــهُ لِتَوَلِّي مسؤولياتٍ معيَّنَةٍ. ونحوِ ذلك من صُوَرِ وأسبابِ التَّصَنُّعِ في التوبة. فمَـــنْ كانت نِيَّتُهُ غيرَ صادقةٍ في التوبة، فإنه سُرعان ما يَتراجعُ عنها؛ لأن اللهَ تعالى لا يُوَفِّقُه فيها بسبب سوءِ نِيَّتِه. وههنا يَصْدُقُ عليه قولُ الـــنبيِّ ﷺ في الحـــديث الصحيحِ: ﴿إنَّما الأعمالُ بالنِّيَّاتِ وإنَّما لكلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى. فمَنْ كانتْ هجرتُه إلى اللهِ ورسولِه، فهجرتُه إلى اللهِ ورسولِه. ومَنْ كانتْ هجرتُه إلى دنيا يُصِيبُهَا، أوِ امرأةٍ يَنْكِحُهَا، فهجرتُه إلى مَا هاجرَ إليه﴾[متفق عليه]. ولذا فإننـــا نقـــولُ لإخواننا: الصدقَ الصدقَ في النيةِ في التوبةِ؛ حتى يُوَفَّقَ التائبُ إلى الثَّبات عليها، واللهُ تعالى يقول: ﴿يَـــا أَيُّهَـــا الَّـــذِينَ آمَنُـــواْ اتَّقُـــواْ اللّـــهَ وَكُونُـــواْ مَـــعَ الصَّـــادِقِينَ﴾[التوبة:119]. أي: كُونُوا مع الصادقين في أفعالهم وأقـــوالِهم ونياتِهم.

2- إبقاءُ التائبِ بعضًا مِمَّا يُذَكِّرُهُ بالمعصية في حَوْزَتِهِ: فالأصلُ في التائب وقد مَنَّ اللهُ تعالى عليه بالرجوع إليه، والتَّخَلِّي عن المعصية، أن يُتْلِفَ ويَتَجَرَّدَ مـــن كلِّ ما له علاقةٌ بها؛ حتى لا يُذَكِّرَه بها، فيَسْهُلَ عليه أن يَقَعَ فيها من جديـــدٍ. فالذي كان مُبْتَلًى بمشاهدة الأفلامِ والصورِ الخليعةِ، عليه أن يُبادر إلى إتـــلافِ الأشرطةِ والصورِ التي تَحْمِلُهَا. والذي كان مُدْمِنًا على سماع الأغاني الماجنـــةِ عليه أن يُسارع إلى إتلافِ الأشرطةِ والأقراصِ التي تَشْتَمِلُ عليها. ومَنْ كـــان يُعاكس الفتياتِ والفاسقاتِ ويَتَّصل بهنَّ هاتفيًّا، وربَّما يَزْنِي بهنَّ بعد ذلك، عليه أن يُلْغِيَ أرقامَهُنَّ من قائمة الهواتفِ التي عنده. وهكذا. نقول هذا؛ لأنَّ الـــذي يتوب من معصيةٍ معيَّنَةٍ، ويُبْقِي ما له علاقةٌ بها عنده، نجدُه بهذا التصرفِ يؤكِّد على عدم صدقِ نيتِه في التوبة؛ ولذا نتصوَّر بعد مدةٍ -عادةً ما تكون قصيرةً-

انتكاستَه. هذا من جهةٍ، ومن جهةٍ أخرى، فهو باحتفاظِه بما له علاقةٌ بالمعصية التي كان عليها سيُعِينُ شيطانَه ونفسَه الأمارةَ بالسوء على ذاتِه، فإذا ما استدعَيَاهُ إلى العودة إلى المعصية، أجابَهما ببساطة؛ لأنَّ أدواتِها موجودةٌ بين يديْه. وهذه المعاني التي نُقَرِّرُهَا، أشار إليها حديثُ مَنْ قَتَلَ مائةَ نفسٍ؛ فإنه لَمَّا أعلنَ توبتَه، نَصَحَهُ العالِمُ أن يَخرجَ من الأرض التي هو فيها؛ حتى يَطْوِيَ صفحةَ المعصيةِ نهائيًّا. فقد صَحَّ عن النبيِّ ﷺ قولُه وهو يَقُصُّ على الصحابة ﵃ قصةً من قَصَصِ الأممِ السابقة: ﴿إنَّ رجلاً قَتَلَ تسعةً وتسعين نفسًا، ثم عَرَضَتْ له التوبةُ، فسألَ عن أعلمِ أهلِ الأرضِ، فدُلَّ على راهبٍ، فأتاه، فقال: "إنه قَتَلَ تسعةً وتسعين نفسًا، فهلْ له من توبةٍ؟". فقال: "لاَ". فقَتَلَهُ، فكمَّلَ به مائةً. ثم سألَ عن أعلمِ أهلِ الأرضِ، فدُلَّ على رجلٍ عالِمٍ، فقال: "إنه قَتَلَ مائةَ نفسٍ، فهلْ له من توبةٍ؟". قال: "نعم؛ ومَنْ يَحُوُل بينه وبين التوبةِ؟! انْطَلِقْ إلى أرضِ كَذَا وكَذَا؛ فإنَّ بها أُنَاسًا يَعبدون اللهَ، فاعبدِ اللهَ معهم، ولا ترجعْ إلى أرضِك؛ فإنها أرضُ سوءٍ". فانطلَقَ، حتى إذا نَصَفَ الطريقُ، أتاه الموتُ، فاختصمتْ فيه ملائكةُ الرحمةِ وملائكةُ العذابِ، فقالتْ ملائكةُ الرحمةِ: "جاء تائبًا مُقْبلاً بقلبِه إلى اللهِ تعالى". وقالتْ ملائكةُ العذابِ: "إنَّه لم يعملْ خيرًا قَطْ". فأتاهم مَلَكٌ في صورةِ آدميٍّ، فجعلوه بينهم. فقال: "قِيسُوا بين الأرضيْن، فإلَى أيَّتِهِمَا كان أدْنى فهو لها". فقاسُوا فوجدُوه أدْنى إلى الأرضِ التي أرادَ، فقبضتْه ملائكةُ الرحمةِ﴾[رواه الشيخان].

3- عدمُ إحداثِه القطيعةَ مع رفقائه في المعصية المعيَّنَةِ: حيث نَجدُ بعضًا ممَّنْ فَتَحَ اللهُ تعالى عليهم بالتوبة، يُبْقُونَ على علاقاتِهم مع مَنْ كانوا يشاركونهم في إتيانِ تلك المعصيةِ، وحينئذٍ يَتحوَّل الواحدُ من هؤلاء إلى شيطانٍ إِنْسِيٍّ، فيُزَيِّنُ

لرفيقِه التائبِ الرجوعَ إلى المعصية، ويُهَوِّنُ عليه من فَضَاعَتِهَا، ويُذكِّره بلـــذَّة الأيامِ الْخَوَالِي. وههنا قد يَستجيب له فيَنْكِصُ على عقبيْه، ويَقَعُ في مُستنقعِها من جديدٍ. لذا فإن التائبَ عليه أن يُحْدِثَ القطيعةَ بيْنه وبين هؤلاءِ؛ ائْتِمَارًا بأمرِ النبيِّ ﷺ القائلِ في الحديث الحسنِ: ﴿الرجلُ على دينِ خَليله فلْينظرِ أحدُكم مَنْ يُخَالِلُ﴾[رواه أبو داود والترمذي]. وربَّما يَدخل الشيطانُ على التائب مِنْ بابِ أنه من الْمُفْتَرَضِ فيه بعد أنْ ذَاقَ حلاوةَ التوبةِ أنْ يعودَ إلى زملائِـــه القُـــدامى لِيَنْتَشِلَهُمْ من وَهْدَتِهَا[1]. وههنا فخٌّ لا بُدَّ من الانتباه إليه؛ ذلك أن التائبَ الجديدَ على وجه الخصوصِ، بِحُكْمِ أنه حديثُ عهدٍ بالتوبة، قد يَحْدُثُ أنه عِوَضَ أن يُؤَثِّرَ فيهم إيجابًا فيجعلُهم يَتوبون، أن يُؤَثِّرُوا هم فيه سَلْبًا فيجعلُونه يَنْتَكِسُ عن توبته. وعلى هذا، فإنه إذا أراد أن يَدْعُوَهُمْ للتوبة عليه أن يَقْتَصِدَ في تواجـــده معهم، وربَّما استعانَ بِمَنْ هو أعلمُ منه وأقدرُ على النصيحة، ونحوِ ذلك ممَّـــا ينبغي أن يَتَسَلَّحَ به عند إرادةِ الالتقاءِ بهم والتأثيرِ فيهم. وفي هذا المقامِ نُوَجِّـــهُ أهلَ الخيرِ والالتزامِ بأحكام الشريعةِ إلى ضرورة احتضانِ التائـــبِ، خاصـــةً في مراحلِه الْأُولى من توبتِه؛ حتى يَجِدَ فيهم البديلَ الطَّيِّبَ عـــن رفقـــاءِ الـــسوءِ السابقِين، فيكونون له عَضُدَ خيرٍ في الثَّبات على توبته، والاستزادةِ من الخير.

4- عدمُ سؤالِ اللهِ تعالى التوفيقَ في التوبة والثباتَ عليها: فالدعاء سلاحُ المؤمنِ ومَلاَذُهُ الذي يلجأ إليه في الْمُلِمَّاتِ، واللهُ سبحانه وتعالى لا يُخَيِّبُ عبدَه إذا ما رأى فيه صدقًا في الالتجاء إليه. يقول جلَّ وعلاَ: ﴿وَقَـــالَ رَبُّكُـــمُ ادْعُـــونِي

---

[1]- الْوَهْدَةُ هي الْحُفْرَةُ أو الأرضُ المنخفضةُ. واستعملْتُها في هذا السياق للإشـــارة إلى أن المعصيةَ تُوَرِّطُ الإنسانَ وتُهلكُه، تمامًا كما تصنعُ الحفرة عندما يَقَعُ فيها مَنْ لم يَرَهَا.

أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّـذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[غافر:60]. فإذا كان التائبُ صادقًا في توبته، و لم يُبْقِ أيَّ شيءٍ في حوزته يُذكِّره بالمعصية، وأحْدَثَ القطيعةَ مع رفقائه سابقًا فيها -وهذا يَعْني أنه أَخَذَ بأسباب التوفيقِ في التوبة والثَّباتِ عليها-، ثم توجَّه إلى الله جلَّ وعلاَ في تذلُّلٍ وخضوعٍ وانكسارٍ وإلحاحٍ، سائلاً إيَّاهُ أن يُباركَ له في توبته، ويُثَبِّتَهُ عليها، فإنه تعالى وَعَدَ بإجابةِ مَنْ دَعَاهُ، وهو لا يُخلف الميعادَ. والمسلمُ يعتقد أنه ضعيفٌ بنفسه، قويٌّ بالله تعالى؛ ولذا هو لا يريد أن يَكِلَهُ اللهُ تعالى لنفسه؛ حتى لا يَهْلَكَ. وإنما يُريد أن يتولَّى اللهُ ﷻ أمرَه، فيُسدِّدَه ويُوفِّقَه ويُثبِّتَه على الحقِّ.

5- عدمُ تقديرِ العاقبةِ الوخيمةِ للمعصية في الدنيا والآخرةِ: ذلك أن بعضَ التَّائبين عندما تُحَدِّثُهُمْ نفسُهم الأمارةُ بالسوء بالرجوع إلى المعصية، يُسارعون إلى الاستجابة إليها؛ لأنهم لا يُقَدِّرُونَ الْمَآلَ السَّيِّئَ للمعصية في الدنيا والآخرة. فلَوْ أن التائبَ عندما يُفكر في العودة إلى المعصية يَستحضرُ أنه قد يُضْبَطُ مُتَلَبِّسًا بها من قِبَلِ الأفرادِ العاديِّين من الناس فَيُفْضَحُ، أو من قِبَلِ رجالِ الأمنِ فيُحَاكَمُ ويُسْجَنُ، أو يُصَابُ بمرضٍ خطيرٍ من جَرَّائِهَا -كما هو الحالُ في داءِ السيدا ونحوِها مِمَّا يترتَّبُ على إتيانِ الفواحشِ-، فلو أنه استحضرَ مثلَ هذه المآلاتِ السيئةِ التي قد تَحْصُلُ له في الدنيا إذا اقْترف المعصيةَ من جديدٍ لَارْتَدَعَ وأَحْجَمَ عن الإقدام عليها. والأمرُ نفسُه فيما يتعلَّقُ بالآخرة، فلو أن التائبَ استحضرَ أنه قد تُقْبَضُ روحُهُ عند مُعاودته المعصيةَ، فيَمُوتُ على سوءِ الخاتمة، ويُبْعَثُ على ما مَاتَ عليه يومَ القيامة، أو أنه سيُعَذَّبُ في قبره، أو أنه ستَزِلُّ به القدمُ عند المرورِ على الصراط، فيُقْذَفُ في جهنم يَتَجَرَّعُ لَفَحَهَا، ونحوَ ذلك مِمَّا سيُكابدُه

أصحابُ المعاصي في الآخرة، فلو أنه استحضرَ هذه المواقــفَ لَعُــصِمَ مــن الانتكاسة.

6- الرِّضَا عن النفس بالنظر إلى مَا فيها من مَحَاسِنَ، والتَّصغيرُ مِــنْ هَــوْلِ المعصيةِ التي هو مُقيمٌ عليها: أي أنَّ بعضَهم عندما يُجَاهِدُ نفسَه، ويتخلَّصُ من معصيةٍ معينة، يدخلُ عليه الشيطانُ من باب تعْدَادِ محاسنه، فيَبْــدَأُ في إحــصاء صالحاتِه. وفي الوقت نفسِه يُقَزِّمُ له من شأنِ المعصيةِ، ويُهَوِّنُ أمرَها، كأنْ يقولَ له: "إنها تُغْمَرُ في بَحْرِ حسناتِك الكثيرةِ". عندئذٍ يَنْسَى المسكينُ توبتَه، ويندفعُ إلى المعصية التي طلَّقها من مُدَّة. ولذا، فإن المسلمَ اللَّبيبَ هو الذي لا يُزَكِّــي نفسَه؛ لأنه لا يَدري أَقُبِلَتْ أعمالُه أم لا؟ واللهُ تعالى يقولُ: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾[النجم:32]. وعن عائشةَ رضي الله عنها قالتْ: "قلتُ يا رسولَ اللهِ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾[المؤمنون:60] هو الذي يَزني ويَشربُ الخمرَ ويَسرقُ؟" قالَ: «لاَ يَا ابْنَةَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُ الرَّجُلُ يَــصُومُ وَيُصَلِّي وَيَتَصَدَّقُ وَيَخَافُ أَنْ لاَ يُقْبَلَ مِنْهُ»[رواه الترمذي وابن ماجة]. ومَهْمَا كانتِ المعصيةُ، فإن المسلمَ عمومًا، والتائبَ الذي تَنْتَابُهُ فكرةُ التصغيرِ من هوْلِهَا خصوصًا، ينبغي أن يكون شعارُهما ما قَالَهُ السلفُ الصَّالِحُ: "لا تَنْظُرْ إلى صِغَرِ المعصيةِ، ولكنِ انْظُرْ إلى عَظَمَةِ مَنْ تَعْصِي".

7- مُسَايَرَةُ الناسِ في الوقوع في المعصية المعيَّنَة: إذ إنَّ بعضَ التَّــائبين بعــد أن هَجَرُوا الذنبَ الذي كانوا يَقْتَرِفُونَهُ، قد تُراودهم فكرةُ مُجَــارَاة الآخَــرين في إتيانِهم لذلك الذنب، فيقولُ أحدُهم في نفسه -وربَّما يُفْصِحُ عن ذلك أمــامَ الناسِ أيضًا-: "إن الناسَ يَأْتُونَ هذا الذنبَ، فلاَ بَأْسَ إنْ لَمْ أَشِذَّ عليهم، فأفعلُ ما يَفعلون". وثَمَّةَ يَتَشَجَّعُ على الرجوع إلى اقْتِرَافِهِ بعد هُجْرَانٍ دَامَ كَذَا مِــنَ

الزمنِ. فهؤلاء نُذَكِّرُهم بأنَّ كلَّ فردٍ من الناسِ سيُسأَلُ وحدَه في قبرِه، وسيُحاسبُ وحدَه بين يديْ ربِّه يومَ القيامةِ، وحينئذٍ لا تَشْفَعُ له حُجَّةُ مُسايرةِ الناسِ في إتيانِ الذنب، ويَتَعَثَّرُ في الإجابة عن السؤال، ويكونُ حسابُه عسيرًا. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[الأنعام:94].

والأصلُ في المسلم أنْ لا يفعلَ إلا ما يُرضي اللهَ تعالى، فإنْ وَجَدَ استجابةً وإعانةً مِنْ غيرِه من الناس على ذلك، فلْيحمدْه ﷻ على هذه النعمةِ. وإنْ وَجَدَ منهم إعراضًا وتَثْبيطًا، فلْيَسْتَعِنْ بالله تعالى، ولْيَسْلُكْ سبيلَ الرَّشَادِ ولوْ كان وحدَه. يقول النبيُّ ﷺ: «لا تَكُونُوا إِمَّعَةً، تقولون: إنْ أحسنَ الناسُ أَحْسَنَّا، وإنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا. ولكنْ وَطِّنُوا أنفسَكم: إنْ أحسنَ الناسُ أَنْ تُحْسِنُوا، وإنْ أساؤُوا فلاَ تَظْلِمُوا»[رواه الترمذي، وفيه ضعفٌ].

وفي الختام، نَتَوَجَّهُ إلى الله تعالى، رَافعين أَكُفَّ الضَّرَاعَةِ، سائلِينَه أنْ يَعْصِمَنَا جميعًا من الزَّلَلِ، وأنْ يُوَفِّقَ العاصيَ منَّا إلى التوبة النصوحِ، وأنْ يَتَقَبَّلَ منَّا سائرَ صالحاتنا. ﴿رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾[آل عمران:08]. اللهمَّ يا مُقَلِّبَ القلوبِ ثَبِّتْ قلوبَنا على دينك. ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الصافات:180-182].

الخطبة الثانية عشرة

مِنَ الوسائلِ التي تزرعُ المحبَّةَ في اللهِ تعالى في قلوبِ المؤمنين

الأصل في المؤمنين الموحِّدين أن يكونوا متحابِّين في الله تعالى، لا يُريدون من تلك المحبةِ إلا التقربَ بها إلى الله عز وجل؛ ذلك أنَّ آياتٍ وأحاديثَ كثيرةً، تدعو إلى التَّحَابِّ لوجهِ الله. منْ ذلك:

- قولُه تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّـهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَـئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[التوبة:71]. فالمولى جلَّ وعلاَ في هذه الآيةِ أراد أن يَصِفَ حالَ المؤمنين ذكورًا وإناثًا في هذه الدنيا، فجعلَ أولَ صفاتِهم أنَّ بعضَهم يُوَالِي بعضًا. والْمُوَالاَةُ فيها معنى المحبةِ في الله تعالى وزيادةٌ؛ إذ يَدخل فيها أيضًا معنى التعاونُ والتَّنَاصرُ. وفي خاتمةِ الآيةِ قَرَّرَ تعالى بأن المؤمنين الْمُتَّصفينَ بما ذُكِرَ فيها من صفاتٍ -وعلى رأسِ تلك الصفاتِ التَّحَابُّ في الله-، قَرَّرَ بأنَّ رحمتَه ستنالُهم في الدنيا والآخرةِ.

- وقولُه صلى الله عليه وسلم: ﴿إنَّ اللهَ يقولُ يومَ القيامةِ: أينَ الْمُتَحَابُّونَ بِجَلاَلِي؟ اليومَ أُظِلُّهُمْ في ظِلِّي، يومَ لاَ ظِلَّ إلاَّ ظِلِّي﴾[رواه مسلم]. فالنبيُّ صلى الله عليه وسلم في هذا الحديثِ القدسيِّ يُبيِّنُ أن اللهَ جلَّ وعلاَ عندما يَجمع الأوَّلِين والآخِرين في ساحة الْمَحْشَرِ، وتَدْنُو منهم الشمسُ، ويَجِدُونَ من حَرِّهَا ما يَجِدُونَ، يُبَيِّنُ أنه سبحانه وتعالى سيُبَرِّدُ عن صنفٍ من الناس، فيجعلُهم في ظِلِّه، حيثُ لا ظلَّ إلا ظلُّه. هذا الصنفُ من الناس هُمُ المؤمنون المتحابُّون في الله جل جلاله.

فالمؤمنُ الذي يُريد أن يُحِبَّ إخوانَه المؤمنين في الله تعالى مهما كان عِـــرْقُهم أو لونُهم أو لسانُهم أو مكانُهم أو زمانُهم؛ استجابةً لدعوةِ النصوصِ الشرعيةِ، وطمعًا في أنْ يَظْفَرَ بفضائل المحبةِ في الله تعالى، التي ذَكَرْنَا منها نيلَ رحمتِه ﷻ في الدنيا والآخرةِ، والاستظلالَ في ظلِّه يومَ القيامةِ، هذا المؤمنُ سيَطرحُ السؤالَ الآتِيَ: ما هي الوسائلُ التي تجعلُنـــي أُحِبُّ سائرَ إخواني المؤمنين في الله تعالى؟ فهذا السؤالُ المهمُّ ينبغي أن يُطرحَ؛ لأنَّنا في زمنٍ أصبح فيه الحبُّ في الله غائبًـــا عن عددٍ مُعْتَبرٍ من المسلمين -إلا مَنْ رحمَ ربي-؛ وذلك لأسبابٍ كثيرةٍ منها:

- الاختلافُ في التَّوجُّهات السياسيةِ أو الفكريةِ.
- التَّعَصُّبُ لِلْعِرْقِ أو اللونِ أو اللسانِ أو الجهةِ أو القطرِ أو المذهبِ الْعَقَدِيِّ أو الفقهيِّ.
- طغيانُ المادةِ على القلوب؛ حتى إنَّنا أصبحنا لا نكاد نَجِــدُ علاقــةً -إلا في النَّادر- تنشأُ إلا على أساسِ المصلحةِ الماديةِ الدنيويةِ العاجلةِ.

فالعقلاءُ من المسلمين يُمْكِنُ أن يَختلفوا سياسيًّا، أو فكريًّا، أو عرقيًّا، أو لسانيًّا، أو جهويًّا، أو قطريًّا، أو مذهبيًّا، أو أن تكون بينهم علاقاتٌ ماديةٌ، ولكـــن لا يَجوز أن يكون ولاؤُنا لبعضِنا، أو بَرَاؤُنَا من بعضِنا، قائمًا على هذه الأســـسِ، وإنما يَجب أن يكونَ الولاءُ والبراءُ، والحبُّ والبغضُ في الله تعالى لا غـــير. وفي الوقتِ نفسِه ينبغي أن يَتَوَسَّلُوا بكلِّ ما مِنْ شأنِه أنْ يَزرعَ في قلـــوبهم حُـــبَّ إخوانِهم المسلمين، ممَّا سنذكُر أهمَّه فيما يأتي:

1- إلقاءُ السلامِ: فالمسلمُ إذا لَقِيَ أخاه المسلمَ يُسَنُّ له أنْ يُبـــادرَه بالـــسلام، ويَجب على مَنْ أُلْقِيَ عليه السلامُ أنْ يَرُدَّ بمثله، أو بما هو أحسنُ منه. يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ

شَيْءٍ حَسِيباً﴾[النساء86]. ويقول النبيُّ ﷺ: ﴿والذي نفسِي بيدِه لا تدخلُوا الجنةَ حتى تُؤْمِنُوا، ولا تُؤْمِنُوا حتى تَحَابُّوا. أَوَلاَ أدلُّكم على شيءٍ إذا فعلتمُــوه تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السلامَ بينَكم﴾[رواه مسلم].

2- التكافلُ الاجتماعيُّ بجميع صُوَرِه الماديةِ والمعنويةِ: فالمسلمُ إذا وَجَدَ مِــنْ أخيه تعاونًا وتضامنًا ماديًّا: كتقديمِ الزكاةِ المفروضةِ والصدقةِ التطوعيةِ والهديةِ، أو معنويًّا: كعيادةِ المريضِ واتباعِ الجنازةِ وإِسْدَاءِ النصيحةِ وإجابةِ الــدعوةِ، إذا وَجَدَ منه مِثْلَ هذا أَحَبَّهُ. ولذا قال الشاعرُ:

أَحْسِــنْ إلى الناسِ تَسْتَعْبِــدْ قُلوبَهم   لَطَالَمَا اسْتَعْبَــدَ الإنسانَ إحســانُ[1]

3- الرِّقَّةُ في التعاملِ: فإذا كان الكبيرُ[2] من المــسلمين رحيمًــا بــصغارهم، وصغيرُهم يُوَقِّرُ كبارَهم، والكلمةُ الطيبةُ مُتداولةً بينهم، وبعضُهم يُنادي بعضًا بالاسم الجميلِ، والابتسامةُ باديةً على وجوههم عند ما يَلتقون، ونحوُ ذلك من مجالات التعاملِ التي ينبغي أن تَتَّسِمَ بالرقة، فإنهم سوف يتحــابُّون لا مَحَالَــةَ. ولولا هذه الرقةُ واللينُ والرحمةُ في التعامل لَمَا استطاعَ النبيُّ ﷺ أن يَــصِلَ إلى قلوب أصحابه ﷺ، ويجمعَهم بين يديْه. يقول الله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَــةٍ مِّــنَ اللّهِ لِنــتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَــظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْــفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُــمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾[آل عمران:159].

---

[1]- لفظُ الإنسانِ في البيت الشعريِّ جاء منصوبًا؛ لأنه مفعولٌ به مُقَدَّمٌ، والفاعــلُ جــاء مُؤَخَّرًا، وهو لفظُ الإحسانِ المرفوعُ.

[2]- لا أَقْصُدُ بالكبير في هذا السياقِ كبيرَ السنِّ فقط، وإنما أَقْصُدُ به أيضًا الكبيرَ في العلــمِ، والكبيرَ في الجاه.

4- العفوُ عند المقدرةِ على الانتقام: فالمسلمُ عندما يُخْطِئُ أخـــوه في حقِّـــه، ويكون قادرًا على الانتقام منه لنفسِه، ولكنه يَعفو ويَصفح، فإنه بذلك سيَملك قلبَ أخيه، ويُحَوِّلُه من عدوٍّ لَدُودٍ إلى حبيبٍ مُقَرَّب. يقول الله تعالى: ﴿وَلَـــا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَـــدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَـــبَرُوا وَمَـــا يُلَقَّاهَـــا إِلَّـــا ذُو حَـــظٍّ عَظِيمٍ﴾[فصلت:34-35]. والنبيُّ ﷺ في فتح مكةَ سنة 8هـــ، لَمَّا عَفَا عن القُرشيِّين المشركين الذين أخرجوه من بلدِه، وآذَوْهُ ماديًّا ومعنويًّا، وواجهوه في الحروب، لَمَّا عَفَا عنهم -رغم قدرتِه على أن يَقْتَصَّ لنفسه وأصحابِه منـــهم- صَيَّرَهم من أعداءَ أَلِدَّاءَ، إلى أحباءَ مُناصرين.

5- الإفصاحُ عن الْحُبِّ لِمَنْ يُحِبُّ: فلو أن واحدًا من المسلمين أحبَّ آخَرَ في الله تعالى؛ لِمَا رأى فيه مثلاً من قوةٍ في الدين، أو حُسْنٍ في الأخلاق، أو عملٍ لصالحِ المسلمين، ونحوِ ذلك مِنْ دواعي الحبِّ في الله تعالى، ولكنَّه لم يُعْرِبْ له عن ذاك الحبِّ الذي يُكِنُّهُ له، فإن المحبوبَ لا يستطيع أن يَشُقَّ عن قلبِه؛ لِيَطَّلِعَ على ما فيه؛ حتى يُبادلَه حبًّا بحبٍّ. لذا، فإن المسلمَ إذا أحبَّ أخاه في الله تعالى، ينبغي أن يُبادر إلى الإفصاح عنه له؛ حتى يُبادله الشعورَ نفسَه. يقول الـــنبيُّ ﷺ في الحديث الصحيحِ: ﴿إذا أَحَـــبَّ الرجلُ أخاه فلْيُخْبِـــرْهُ أنَّه يُحِبّـــُهُ﴾[رواه أبو داود]. ومِنَ السنةِ أنْ يَرُدَّ الذي أُفْصِحَ له عن الحبِّ بقولِه: "أحبَّك الـــذي أحبْبْتنـــي له".

6- الإيثارُ ولو تَكَلُّفًا: إن تقديمَ الغيرِ على الذَّاتِ كثيرًا مـــا يَـــصْعُبُ علـــى الإنسان، ولكنْ لو أن المسلمَ تَكَلَّفُه، كأنْ يُقَدِّمَ غيرَه في مجلسٍ أو طعامٍ أو نحوِ ذلك، فإنه سوف يَكْسِبُ قلبَ المقدَّمِ؛ لأن النفسَ مَجْبُولَةٌ على حبِّ مَنْ أحسنَ

إليها، والإيثارُ مِنْ أعلى صورِ الإحسانِ. والصحابةُ ﷺ ما كَوَّنُوا ذلك المجتمعَ الفاضِلَ الْمِثَالِيَّ الْمُتَحَابَّ، إلا عندما آثَرَ الأنصارُ منهم إخوانَهم المهاجرين على أنفسِهم. قال عنهم القرآنُ الكريمُ: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[الحشر:09]. وصَحَّ في سببِ نزولِ هذه الآيةِ أَنَّ رجلاً أتى النبيَّ ﷺ، فبعثَ إلى نسائِه، فقُلْنَ: "ما مَعَنَا إلا الماءُ". فقال رسولُ اللهِ ﷺ: ﴿مَنْ يُضَيِّفُ هذا؟﴾. فقال رجلٌ من الأنصارِ: "أنا". فانطلقَ به إلى امرأتِه، فقال: "أكرِمي ضيفَ رسولِ اللهِ ﷺ". فقالت: "ما عندنا إلا قوتُ الصبيانِ". فقال: "هَيِّئِي طعامَكِ، وأَصْلِحِي سراجَكِ، ونَوِّمِي صبيانَكِ إذا أرادوا عشاءً". ففعلَتْ، ثم قامتْ كأنها تُصلح سراجَها فأطفأتْه، وجعلاَ يُرِيَانِه أنهما يأكلانِ، وبَاتَا طَاوِيَيْنِ. فلما أصبح غدًا إلى رسولِ اللهِ ﷺ، قال له: ﴿لقدْ ضَحِكَ اللهُ -أو عَجِبَ- مِنْ فَعَالِكُمَا[1]﴾. وأنزل اللهُ تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

7- اجتنابُ كلِّ ما مِنْ شأْنه أن يُوغِرَ القلبَ[2] ضدَّ الإخوانِ في اللهِ تعالى: ولذا نَجدُ المولى جلَّ وعلاَ ينهى في كتابه العزيز عن أخلاقٍ ذميمةٍ، لو انتشرتْ في المجتمعِ المسلمِ لَشَتَّتَتْهُ. قال تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ وَلَا

1- فَعَالِكُمَا: كَرَمِكُمَا، وعَمَلِكُمَا الحسنِ.

2- يُوغِرُ القلبَ: أي يجعلُه يتغيَّر، فيمتلئُ غيظًا وحقدًا.

تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾[الحجرات:11-12].

كما جَمَعَ النبيُّ ﷺ في الحديث الصحيحِ عددًا من الخصال التي تُفسد العلاقة بين المسلمين فحذَّر منها قائلاً: ﴿إيَّاكم والظَّنَّ؛ فإنَّ الظَّنَّ أكذبُ الحديثِ. ولا تَحَسَّسُوا ولا تَجَسَّسُوا ولا تَنَافَسُوا[1] ولا تَحَاسَدُوا ولا تَبَاغَضُوا ولا تَدَابَرُوا. وكُونُوا عبادَ اللهِ إخوانًا كما أمركُم اللهُ. المسلمُ أخُو المسلمِ لا يَظْلِمُهُ ولا يَخْذُلُهُ ولا يَحْقِرُهُ. التقوى ههنا -يُشيرُ إلى صدرِه-. بِحَسْبِ امرئٍ من الشرِّ أنْ يَحْقِرَ أخَاه المسلمَ. كلُّ المسلمِ على المسلمِ حرامٌ: دمُه وعرضُه ومالُه. إنَّ اللهَ لا ينظرُ إلى أجسامِكم ولا إلى صُوَرِكُمْ، ولكنْ ينظرُ إلى قلوبِكم وأعمالِكم﴾[رواه الشيخان].

8- الالتجاءُ إلى الله تعالى بالدعاء بأنْ يَنْزِعَ كُرْهَ إخوانه من قلبه، وأن يَزْرَعَ فيه حُبَّهُمْ: فالعبدُ إذا ما قَصَدَ ربَّه بالدعاء، وسأله خاشعًا متذلِّلاً، فإنه لا يُخَيِّبُهُ. قال ﷻ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[البقرة:186]. وهذا هو دَأْبُ الصَّالحين؛ فإنهم يتوجَّهون إلى ربِّهم يسألونَه أن يرزقَهم حبَّ إخوانهم، وأن يعافيَهم من بُغْضِهِمْ. قال ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا

[1]- لا تَنَافَسُوا: أي لا تتسابقوا في امتلاك الأشياءِ المادية، أو في إتيانِ المحرمات. أما المنافسةُ في الخيرات فهذه ممدوحةٌ مطلوبةٌ شرعًا، وهي المقصودةُ من قوله تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾[المطففون:26].

وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[الحشر:10].

9- استحضارُ فضائلِ المحبةِ في الله تعالى: أي أنَّ المسلمَ إذا جعل نَصْبَ عينيْه ما يُمْكِنُ أنْ يَجْنِيَهُ من أجرٍ وبركاتٍ وخيراتٍ في الدنيا والآخرةِ إذا أحبَّ إخوانَه، فإنه سوف يُبَادِرُ إلى فعلِ ما مِنْ شأنه أنْ يُحَبِّبَهُ إلى إخوانه المؤمنين، ويُحَبِّبَهُمْ إليه. فمِنْ هذه الفضائلِ ما ذَكَرْنَا في صدر الموضوعِ من نيلِ رحمةِ الله تعالى في الدنيا والآخرةِ، والاستظلالِ في ظلِّه يومَ القيامةِ، ونُثْبِتُ هنا هاتيْن الفضيلتيْن:

- جَلْبُ محبةِ اللهِ تعالى للعبد: فعن أبي هريرةَ ﷺ، عن النبيِّ ﷺ: ﴿أن رجلاً زَارَ أخًا له في قريةٍ أخرى، فأَرْصَدَ اللهُ على مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا[1]، فلما أَتَى عليه، قال: "أين تُرِيد؟" قال: "أُرِيد أخًا لي في هذه القريةِ". قال: "هلْ لَكَ عليه من نعمة تَرُبُّهَا[2]؟" قال: "لاَ، غيرَ أنِّي أحبُّه في اللهِ". قال: "فإنِّي رسولُ اللهِ إليك، بأنَّ اللهَ قد أحبَّك كما أحببْتَه فيه﴾[رواه مسلم].

- الظَّفَرُ بالجنةِ: فعن أبي هريرةَ ﷺ أيضًا، عن النبيِّ ﷺ أنه قال: ﴿مَنْ عَادَ مريضًا، أو زَارَ أخًا له في اللهِ، نَادَاهُ مُنَادٍ أَنْ طِبْتَ وطَابَ مَمْشَاكَ، وتَبَوَّأْتَ من الجنةِ مَنْزِلاً﴾[رواه الترمذي].

نسأل اللهَ تعالى أن يرزقَنا محبةَ إخواننا المؤمنين، وأن يُزِيلَ الحقدَ من صدورِنا عليهم، وأن يُؤَلِّفَ بين قلوبِنا، وأن يُصْلِحَ ذاتَ بينِنا، وأن يحشرَنا في زُمْرَةِ أحبابِنا محمدٍ وآلِه وصحبِه الطاهرين، وآخرُ دعوانا أنِ الحمدُ لله ربِّ العالمين.

[1] - أَرْصَدَ اللهُ على مَدْرَجَتِه مَلَكًا: أي وَكَّلَ مَلَكًا يَحفظُه وهو في طريقِه.

[2] - تَرُبُّهَا: أي تحفظُهَا وتُنَمِّيهَا، وتسعىَ في صلاحِهَا وتَمْتِينِهَا.

الخطبة الثالثة عشرة

بعض من فضائل الاستغفار

إنَّ الناظرَ في كتاب الله تعالى وسنةِ نبيِّه ﷺ، سيَجدُ آياتٍ وأحاديثَ كثيرةً، تَدعو إلى الاستغفار، وتُرَغِّبُ فيه. فمنْ بين تلك الآياتِ والأحاديث:

– قولُه ﷻ: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[المزمل:20]. فهذه الآية بعد أن أمرتِ المؤمنين بجملةٍ من الأعمال الصالحةِ، ختمتْها بالاستغفار، مُثْبِتَةً لله تعالى اسماً يُنَاسِبُ الاستغفارَ وهو "الغفور"، أي: كثير المغفرة؛ تحفيزًا لهم عليه.

– وقولُه ﷺ: ﴿إنَّه لَيُغَانُ[1] على قلبِي، وإنِّي لَأَستغفرُ اللهَ في اليومِ مائةَ مرة﴾[رواه مسلم]. فالنبيُّ ﷺ في هذا الحديثِ يُعطينا القدوةَ الحسنةَ من نفسه في لُزومِ الاستغفارِ والإكثارِ منه، رغمَ أن الله تعالى غَفَرَ له ما تقدَّمَ من ذنبه وما تأخَّرَ. وقد ثَبَتَ عن الصحابة ﵃، أنهم كانوا يَعُدُّونَ له قولَه: ﴿ربِّ اغفرْ لي وارحمْني﴾ في المجلس الواحدِ مائةَ مرةٍ أو أكثر. فإذا كان المغفورُ له صلواتُ اللهِ عليه وسلامُه يَستغفر، بل يُكثر من الاستغفار، فإنه من باب أوْلى أنْ يُعْنَى به العبدُ الضعيفُ الْخَطَّاءُ.

والمقصودُ بالاستغفار طلبُ المغفرةِ من الله جلَّ وعلاَ قولاً وفعلاً. أما من حيث القولُ، فيقول المسلم دائمًا وأبدًا: "أستغفرُ الله"، أو "رَبِّ اغفرْ لي" ونحوَ

[1]– يُغَانُ على القلب: أي يَحْدُثُ له شيءٌ من الهمِّ والغمِّ، أو فُتُورٌ عن الذكرِ.

ذلك من صيغِ الدعاءِ التي فيها طلبُ المغفرةِ من الله تعالى. وأما من حيث الفعلُ، فيأتي بالتوبة بشروطها المقرَّرةِ شرعًا وهي: الندمُ على فعل الذنبِ الذي اقْتَرَفَهُ، والإقلاعُ عن فعله، والعزمُ على عدم الرجوعِ إليه. وإذا كان الذنبُ متعلِّقًا بالعباد، فلا بُدَّ من شرطٍ رابعٍ، وهو إرجاعُ الحقوقِ إلى أصحابها.

وللاستغفار فضائلُ وخيراتٌ وبركاتٌ كثيرةٌ، لو عَلِمَهَا المسلمُ لَأَدْمَنَ عليه، ولَمَا تقاعسَ عليه أبدًا. فمِنْ بين تلك الفضائلِ والخيراتِ والبركاتِ ما يأتي ذكرُه:

1- رَفْعُ العذابِ عن العبد في الدنيا، وعدمُ الانتقامِ منه فيها: فالمسلمُ إذا كان من المستغفرين عَافَاهُ اللهُ تعالى من عذاب الدنيا، حتى إنَّ قريشًا لَمَّا كذَّبت بدعوةِ النبيِّ ﷺ، ودَعَت اللهَ تعالى أن يُنَزِّلَ عليها عذابًا، لم يُسَلِّطِ المولى جلَّ وعلاَ عليها العذابَ؛ لأنَّ الْقُرَشِيِّينَ كانوا إذا طافوا بالبيت قالوا: "غفرانَك ربَّنا، غفرانَك". قال اللهُ تعالى في حقِّهم: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[الأنفال:33].

2- نزولُ الغيثِ، وزيادةُ القوةِ: فمَنْ كان مقيمًا على الاستغفار، أنزلَ الله تعالى عليه المطرَ النافعَ؛ لِتَحْيَى به الزروعُ والنفوسُ. وزَادَه قوةً إلى قوتِه؛ حتى يستطيعَ مُجَابَهَةَ أعباءِ الحياة، ولا يَطْمَعَ فيه عدوُّه. قال الله تعالى على لسانِ هود عليه السلام: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ﴾[هود:52].

3- العيشُ الماديُّ الْهَنِيءُ في الدنيا، والنعيمُ الدائمُ في الآخرة: فالذي يَنْشُدُ السعادةَ الدنيويةَ في شِقِّهَا الماديِّ، فيَسْتَمْتِعُ في الحلالِ بسائر مَلَذَّاتها، عليه بالمداومة على الاستغفار. يقول المولى عز وجل: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ

يُمَتِّعْكُم مَّتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾[هود:03].

4- الظَّفَرُ بالراحة النفسيَّةِ في الدنيا: ذلك أن الاستغفارَ ذكرٌ، والذكرُ يَبعث الطمأنينةَ والسكينةَ في قلبِ المؤمنِ؛ لأنَّه حينَ الذكرِ يكون مُتَّصلاً بالله جلَّ وعلاَ، جاريًا اسمُه على لسانِه. يقول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[الرعد:28].

5- الْإِمْدَادُ بالأموال والْبَنِينَ: فمَنْ حُرِمَ المالَ أو الولدَ، فلَهُ أن يَطْلُبَهما عن طريقِ الاستغفارِ. ولذا لَمَّا جاء ثلاثةٌ إلى الحسنِ البصريِّ رحمه اللهُ تعالى، يَشتكي إليه أحدُهم الْجَدْبَ، والثاني الفقرَ، والآخَرُ عدمَ الولدِ. فنصحَ الثلاثةَ بالاستغفار، وهو يَسْتَشْهِدُ بقوله تعالى على لسان نوحٍ عليه السلام وهو يُناصح قومَه: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً﴾[نوح:10-12].

6- يُفْتَحُ به ما أُغْلِقَ عليه من الأمور: فالمسلم في هذه الدنيا قد تُسَدُّ في وجهه أبوابٌ، وقد يَجِدُ منْ جرَّاء ذلك من الْهَمِّ والْغَمِّ ما يَجِدُ. وحينَها يكون الاستغفارُ سببًا من أسباب فَتْحِ الأبوابِ الْمُوصَدَةِ، وطَرْدِ الْهَمِّ والْغَمِّ. يقول النبيُّ ﷺ: ﴿مَنْ لَزِمَ الاستغفارَ، جَعَلَ اللهُ له من كلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا، ومن كلِّ هَمٍّ فَرَجًا، ورَزَقَهُ من حيثُ لا يَحْتَسِبُ﴾[رواه أبو داود، وفيه ضَعْفٌ]. ولذا كان بعضٌ من أهل العلمِ من السلفِ إذا اسْتَغْلَقَتْ عليه مسألةٌ من مسائل العلمِ، استغفرَ اللهَ تعالى كَذَا مَرَّةً، فيُفْتَحُ عليه فيها؛ ببركةِ الاستغفارِ.

7- تكفيرُ الذنوبِ، وعدمُ المؤاخذةِ عليها في الآخرة: فالمسلمُ إنسانٌ، والبشرُ بِحُكْمِ ضعفِه مُعَرَّضٌ للخطأِ، ولذا فإنه قد يَقَعُ في صغائر الذنوبِ، وربَّما في

كبائرِها أيضًا. وعندئذ يَجدُ الاستغفارَ وسيلتَه لِمَحْوِ آثارِ تلك الذنوبِ الــتي تَلَبَّسَ بها. يقول الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللّــهَ يَجِدِ اللّهَ غَفُوراً رَّحِيماً﴾[النساء:110].

هذه بعضٌ من فضائل الاستغفارِ الكثيرةِ التي يُمْكِنُ أن يُحَصِّلَهَا المــسلمُ إذا وَاظَبَ عليه، وأكثرَ منه. والآن أريدُ أن أُشيرَ إلى أن الاستغفارَ مطلــوبٌ مــن المسلم ابتداءً؛ من بابِ استدامةِ الذِّكْرِ -والاستغفارُ نــوعٌ مــن أنواعــه-، والاستزادةِ من الأجر؛ إذ إنه عبادةٌ يُتَقَرَّبُ بها إلى الله تعالى، والاقتداءِ بالنبيِّ ﷺ الذي كان يُكْثِرُ من الاستغفار. إلا أنه يتأكَّد في مواضعَ معيَّنَةٍ، دَلَّــتْ عليهــا نصوصُ الكتابِ والسنةِ، نَذْكُرُ فيما يأتي أهمَّها:

1- بعد ارتكابِ الذنبِ: وهذا أهمُّ مواضعِ الاستغفارِ على الإطلاق؛ ذلك أن المسلمَ إذا أَذْنَبَ، عَلِمَ بأنه سيُؤَاخَذُ بذنبه يومَ القيامةِ. ولذا يَجِبُ عليه أن يُبَادِرَ إلى الاستغفار؛ حتى يَمْحُوَ عنه ربُّه ذنبَه، فإذا لَقِيَهُ للحساب كان على أحــسن حال. قال ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُــسَهُمْ ذَكَــرُواْ اللّــهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُــمْ يَعْلَمُونَ أُوْلَــئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَــارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾[آل عمران:135-136].

2- عَقِــبَ الصلواتِ المفروضةِ: فقد ثَبَتَ عن النبيِّ ﷺ، أنه كان إذا فَرَغَ من صلاته، وخرج منها بالتَّسليم، يقولُ: ﴿أستغفرُ الله﴾ ثلاث مَــرَّات. ولعلَّــه صلواتُ الله عليه وسلامُه أراد أن يُعَلِّمَنَا الاعتذارَ إلى الله جلَّ وعلاَ بعد كــلِّ صلاة عمَّا كان منَّا مِنْ تقصيرٍ فيها عن طريقِ الاستغفارِ؛ حتى يُكْتَبَ لنا أجرُها كاملاً.

3- حَالَ قيامِ الليلِ: فإن الله تعالى لَمَّا عَدَّدَ صفاتِ المتقين الذين يَخْشَوْنَه حقَّ الخشيةِ، جعلَ مِنْ بين تلك الصفاتِ الاستغفارَ عندما يقومون لله تعالى مُتَعَبِّدِينَ بالليل، خاصةً في الثلث الأخيرِ منه. قال ﷻ: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾[الذاريات:15-19]. وعن أبي هريرةَ ﷺ أن رسولَ الله ﷺ قالَ: ﴿يَنْزِلُ ربُّنا كلَّ ليلةٍ إلى سماءِ الدُّنيا حينَ يَبْقَى ثلثُ الليلِ الآخرِ فيقولُ: مَنْ يَدْعُونِي فأستجيبُ له، مَنْ يَسْأَلُنِي فأُعطيه، مَنْ يَستغفرُنِي فأغفرُ له﴾[رواه الشيخان].

4- بعد الفراغِ من أداءِ مناسكِ الحجِّ: فإنَّ في الاستغفار حينئذٍ اعتذارًا لله تعالى -كما رأيْنا في الصلاة- عمَّا كان من التقصير في القيامِ بالمناسكِ المشروعةِ. يقول جلَّ وعلاَ: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُواْ اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّآلِّينَ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[البقرة:198-199].

5- عند حصولِ الفتحِ والنجاحِ والتوفيقِ: فالمسلم عندما يَفْتَحُ اللهُ تعالى عليه في أمرٍ معيَّنٍ، أو يُنَجِّحُهُ ويُوَفِّقُهُ في مشروعٍ ما، يتذكَّرُ ربَّه الذي بنعمته تتمُّ الصَّالحاتُ، فيشكرُه على ذلك، ويطلبُ منه المغفرةَ؛ لأن نفسَه قد تُحَدِّثُهُ بأن حصولَ الفتحِ والنجاحِ والتوفيقِ كان بسببِ سعيِه وقدراته الخاصَّة. ولذا أَمَرَ الله تعالى نبيَّه ﷺ -وهو يُعَلِّمُنَا نحن- بالاستغفار لَمَّا نصرَه على أعدائه في آخرِ حياتِه، ورأى الأثرَ الطيبَ لدعوتِه. قال ﷻ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ

النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾ [النصر: 01-03].

6- في حَقِّ النساءِ خصوصًا: ذلك أنَّ النبيَّ ﷺ أَمَرَهُنَّ بالإكثار منه، عندما خَصَّهُنَّ بالخطاب قائلاً: ﴿يا معشرَ النساءِ تصدَّقْنَ وأكثرْنَ مِنَ الاستغفارِ؛ فإنِّي رَأَيْتُكُنَّ أكثرَ أهلِ النارِ﴾. فقالت امرأةٌ منهنَّ جَزْلَةٌ[1]: "وما لنا يا رسولَ اللهِ أكثر أهلِ النارِ؟" قال: ﴿تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ[2]، وتَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ[3]﴾ [رواه البخاري].

7- عند خَتْمِ المجالسِ: فالمسلمُ عندما يَجلس مع إخوانه في مجلسِ علمٍ، أو مجلسِ عقدٍ معيَّنٍ، أو مجلسِ مُسَامَرَةٍ مباحةٍ، أو نحوِ ذلك من المجالس التي يَحْضُرُهَا، يُسَنُّ له أن لا يَنْفَضَّ من المجلس حتى يستغفرَ اللهَ تعالى بصيغةٍ وَرَدَتْ عن النبيِّ ﷺ، رواها الصحابيُّ الجليلُ أبو بَرْزَةَ الأسلميُّ رضي الله عنه حين قال: "كان رسولُ اللهِ ﷺ، إذا جلسَ مجلسًا، يقولُ بآخرِه إذا أرادَ أن يقومَ من المجلسِ: ﴿سبحانَك اللَّهُمَّ وبحمدك، أشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ أنتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وأتوبُ إليْك﴾. فقال رجلٌ: "يا رسولَ اللهِ، إنَّك لَتَقُولُ قولاً ما كنتَ تقولُه فيما مَضَى". فقال: ﴿كَفَّارَةٌ لِمَا يكونُ في المجلسِ﴾" [رواه أبو داود].

وفي الختامِ، نذكِّر بأفضلِ وأعظمِ صيغةٍ للاستغفار، ينبغي أن يُعْنَى بها المسلم يوميًّا؛ لما ثبت فيها من الفضلِ العظيمِ. فعن شَدَّادٍ بنِ أَوْسٍ رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ

---

[1]- جَزْلَةٌ: ذاتُ رأيٍ وشجاعةٍ وكلامٍ قويٍّ شديد.

[2]- المقصود باللَّعن: السبُّ والشتمُ. وقد يَعْنِي: طلبُ طردِ الشخصِ من رحمة اللهِ تعالى؛ ذلك أن المرأةَ يَجْرِي اللَّعْنُ بهذا المعنى على لسانِها، حتى إنها تَلْعَنُ أحبَّ الناسِ إليها وهو ولدُها فلْذَةُ كبدِها.

[3]- تَكْفُرْنَ العشيرَ: أي تَجْحَدْنَ نِعَمِ الزوجِ عليكنَّ.

قال: ﴿سَيِّدُ الاستغفارِ أنْ يقولَ العبدُ: اللهمَّ أنتَ ربِّي لا إلهَ إلاَّ أنتَ، خلقْتَنِي وأنا عبدُكَ، وأنا على عهدِكَ ووَعْدِكَ ما استطعتُ، أعوذُ بك مِنْ شَرِّ ما صنعتُ، أَبُوءُ[1] لك بنعمتِكَ عليَّ، وأَبُوءُ بذنبِي، فاغفرْ لي؛ إنَّه لا يغفرُ الذنوبَ إلاَّ أنتَ. مَنْ قالَها مُوقِنًا بها حينَ يُمسي، فماتَ من ليلته، دخلَ الجنةَ. ومَنْ قالَها مُوقِنًا بها حينَ يُصبح، فماتَ من يومه دخلَ الجنةَ﴾[رواه البخاري].

أسألُ اللهَ العظيمَ ربَّ العرشِ العظيمِ أن يَغْفِرَ ذنوبَنا، وأن يَسْتُرَ عيوبَنا، وأن يَكشف كروبَنا، وأن يُطَهِّرَ قلوبَنا، وأن يُحَصِّنَ فروجَنا، وأن يُؤْتِيَنَا في الدنيا حسنةً، وفي الآخرة حسنةً، وأن يَقِيَنَا عذابَ النارِ. ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَاراً﴾[نوح:28]. وآخِرُ دعوانا أنِ الحمدُ للهِ ربِّ العالمين.

1- أَبُوءُ بالشيءِ: أي أَعْتَرِفُ به.

الخطبة الرابعة عشرة

وقفاتٌ مع التَّفجيرات الإرهابيَّة التي تَقَعُ في الجزائرِ

يُفَاجَأُ الجزائريُّون من حينٍ إلى آخَرَ، منذُ بدايةِ الأزمةِ الأمنيةِ في مطلعِ التسعينيَّاتِ من القرن الميلاديِّ الماضي، يُفَاجَأُونَ بتفجيراتٍ تَقَعُ هنا وهناك في شَتَّى أنحاءِ الوطنِ. ولا يَخفى ما يترتَّبُ عن هذه التفجيراتِ وأمثالِها من سائر أنوعِ الاعتداءاتِ الإرهابيةِ من أضرارٍ ومآسٍ وأحزانٍ تتجرَّعُها البلادُ والأسرُ والأفرادُ. لذا أردتُ أن أُبَيِّنَ رأيَ الشرعِ الحنيفِ في مثل هذهِ الأعمالِ؛ من باب الحرصِ على مصلحةِ البلادِ والعبادِ عمومًا، ومن باب مُنَاصَحَةِ مَنْ يتجرَّأُ على فعلِها والإسهامِ فيها -إعدادًا وتخطيطًا وتنفيذًا، أو دعمًا ومساندةً ماديةً أو معنويةً- على وَجْه الخصوصِ؛ حتى يُرَاجِعُوا أنفسَهم، ويَعودوا إلى رُشْدِهِمْ.

ويُمْكِنُ لي أنْ أُبَيِّنَ ما أردتُ بيانَه من خلال الْوَقَفَاتِ الآتيةِ:

الوقفة الأولى: أنَّ في هذه الأعمالِ مخالفةً للأمرِ الإلهيِّ القاضي بسؤالِ أهلِ العلمِ في كلِّ ما يَسْتَشْكِلُ على المسلم من أمورٍ: فالأصلُ في المسلم أن يعودَ في النوازلِ والْمُلِمَّاتِ لأهل العلمِ الْمُعْتَبَرِينَ المعروفين الذين تَلَقَّتِ الأمةُ الإسلاميةُ علمَهم بالقَبول، فهؤلاءِ هم الذين أمرَ اللهُ تعالى عبادَه المؤمنين أن يسألُوهم، وأن يتعرَّفوا من خلالِهم على الأحكام الشرعية. قال ﷻ: ﴿فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾[النحل:43]. ولَمَّا نرجعُ إلى هؤلاء سوف نجدُهم مُجْمِعِينَ على تحريم وتَجْرِيمِ هذه التفجيراتِ وأمثالِها من الأعمال التي تروِّعُ الآمنين، وتُزْهِقُ الأرواحَ، وتُتْلِفُ الأموالَ والممتلكاتِ. ولي أن أَسُوقَ في هذا المقامِ

كلامًا في عُمْقِ الموضوع لأحد أعلامِ الأمةِ في هذا العصرِ، وهو الشيخُ يوسف القرضاوي -حفظه الله تعالى-: "وإنِّي لَأتساءل: كيف يَزْعُمُ هؤلاء الذين يَسفكون دماءَ أهليهم أنَّهم إسلاميُّون، وهم يَرفضون الدعوةَ إلى الْمُسَالَمَة والمصالحةِ، في حينِ يأمرُ القرآنُ الكريمُ بقَبُولِ الدعوةِ إلى الْمُسالمة من الحربيِّين المشركين الذين قاتلوا المسلمين، وبَدَؤُوهُمْ بالعدوان، فيقول تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[الأنفال:61]. فكيف إذا كانت هذه الدعوةُ للمسالمة بين أهلِ القبلةِ بعضِهم وبعضٍ؟! وكيف يَسْتَبِيحُ هؤلاء دماءَ الأبرياءِ بتفجيراتهم الهمجيَّة، وقد حرَّم الله تعالى قتلَ النفسِ إلا بالحق؟! وقَرَّرَ القرآنُ مع كتبِ السماءِ ﴿أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً﴾[المائدة:32]. وقال عليه الصلاةُ والسلامُ: ﴿لَزَوَالُ الدنيا أَهْوَنُ على الله مِنْ قَتْلِ رجلٍ مسلمٍ﴾[رواه الترمذي]. وأَنَّبَ النبيُّ ﷺ أسامةَ بنَ زيدٍ -وهو حِبُّهُ وابنُ حِبِّه[1]- على قَتْله رجلاً مشركًا في المعركة وقد قال: "لا إلهَ إلا اللهُ" قائلاً: ﴿مَنْ لَكَ بلاَ إلهَ إلا اللهُ يومَ القيامةِ؟!﴾. فقال أسامةُ: "يا رسولَ الله إنَّما قَالَهَا مخافةَ السلاحِ". قال: ﴿أَفَلاَ شَقَقْتَ عن قلبه حتَّى تَعْلَمَ مِنْ أجلِ ذلك قَالَهَا أمْ لاَ، مَنْ لَكَ بلاَ إلهَ إلا اللهُ يومَ القيامةِ؟!﴾. يقول أسامةُ: "فَمَا زَالَ يَقُولُهَا حتى وَدِدْتُ أنِّي لَمْ أُسْلِمْ إلا يَوْمَئِذٍ"[رواه أبو داود]. وهؤلاء يتعمَّدون قَتْلَ أهلِ "لا إله إلا الله" بالعشراتِ والمئاتِ ولا يُبالون. فمِنْ أين يَسْتَقِي هؤلاء

---

[1] - حِبُّهُ وابنُ حِبِّهِ: أي حبيبُه وابنُ حبيبه؛ إذ إنَّ النبيَّ ﷺ كان يُحب الولدَ وهو أسامة، وكذا الوالدَ وهو مَوْلاَهُ زيد بن حارثة، رضي الله عنهما.

أفكارَهم السوداءَ التي تَسْتَحِلُّ قَتْلَ الناسِ بالجملةِ، والرسولُ الكريمُ يُحَرِّمُ أن يُشير المسلمُ إلى أخيه بالسلاح، مُجَرَّدُ الإشارةِ محرمةٌ؟! بل يَحْرُمُ ترويعُ الناسِ وإخافتُهم بأدنى شيءٍ، ولو كان على سبيل الْمُزَاحِ. وحين نَزَعَ مسلمٌ سهمًا من كِنَانَةِ أخيه وهو نائمٌ مداعبًا له، ففَزِعَ من نومه مُرتاعًا، فقال ﷺ: ﴿لا يَحِلُّ لمسلمٍ أن يُرَوِّعَ مسلمًا﴾[رواه أبو داود والترمذي]. فكيف بِمَنْ رَوَّعَ الآلافَ والملايين بتفجيراته الإجرامية؟! إنَّني أدعو هؤلاء الشَّاردين أن يَؤُوبُوا إلى رشدِهم، ويتُوبوا إلى ربِّهم، ويُراجعوا دينَهم."[1] فهذا نموذجٌ من آراء العلماءِ الْمُعْتَبَرين في تحريم وتجريمِ هذه التفجيرات. لكنَّ الذين يَقومون بها، لا يَرْجِعُونَ -كما أمر الله تعالى- إلى هؤلاء، وهنا مَكْمَنُ الخطرِ. بل يَعودون إلى أشخاصٍ مَغمورين ولَيْسُوا مُتخصصين. وقد يكونون معروفين أو مُتخصصين، ولكنَّ الأمةَ لم تَتَلَقَّ علمَهم بالقَبول، أو شَهِدَ العلماءُ المعتبَرون بشذوذِهم. فأمثالُ هؤلاء لا يجوز للمسلم أن يعودَ إليهم لمعرفة الأحكام الشرعية، خاصةً عندما يتعلَّق الأمرُ بالحكم على الأشخاص بالارتداد عن الدين، أو بسَفْكِ دمائِهم.

الوقفة الثانية: أنَّ فيها مشابهةً لفعلِ اليهودِ الذين يُخرِبُونَ بيوتَهم بأيديهم: لقد حدَّثنا القرآنُ الكريمُ عن يهود بني النضير الذين أجْلاهم النبيُّ ﷺ عن المدينة سنة 4هـ؛ لما ظهرت منهم الخيانةُ، عندما حاولوا اغتيالَه ﷺ، ولكنَّ اللهَ

---

[1] – هذه مقتطفاتٌ من رسالة تعزيةٍ –مع تصرفٍ يسيرٍ في ضبطِ النصوصِ الشرعيةِ الْمُسْتَشْهَدِ بها، وتخريجها–، وجَّهها العلامةُ يوسف القرضاوي لرئيس الجمهورية عبد العزيز بوتفليقة، بمناسبة مأساةِ تفجيريْ باتنة ودلِّسْ اللذيْن وَقَعَا في سبتمبر 2007م. وأخذتُ النَّصَّ عن نسخةٍ من مراسلة وزارةِ الشؤونِ الدينيةِ والأوقافِ لمديريَّتها بولاية الوادي، تحت رقم: 480، المؤرَّخة في: 19سبتمبر2007م.

عَصَمَهُ منهم. فلمَّا حَكَمَ عليهم بالخروج، أمرَهم أن لا يأخذوا معهم من ممتلكاتِهم إلا ما تَحْمِلُهُ إبلُهُمْ. ولذا فإنهم كانوا يُخْرِبُونَ بيوتَهم بأنفسهم؛ وذلك بنَزْعِ أبوابِها وشبابيكِها وأَوْتَادِهَا وجذوعِ سُقُفِهَا. ومنْ قبلِ ذلك، كان النبيُّ ﷺ ومَنْ معه من الصحابة قد حاصروهم أيامًا، ثم اضْطُرُّوا إلى أن يَقطعوا ويَحْرِقُوا نخيلَهم وبساتينَهم، ويَهْدِمُوا حصونَهم؛ حتى يَسْتَسْلِمُوا. قال تعالى: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾[الحشر:02]. ونحن نَجِدُ هؤلاء الذين يَقومون بهذه التفجيراتِ ونحوِها من الأعمالِ التي تُحْدِثُ تخريبًا ودَمَارًا بالممتلكات العامةِ والخاصةِ، نَجِدُهم قد فعلوا ما فَعَلَهُ يهودُ بني النضيرِ وأكثر. فكم مِنْ مَبَانٍ ومُنْشَآتٍ حكومية، أو التي يَملكها أفرادُ الناسِ قد أصبحت حُطَامًا، أو لَحِقَتْهَا أضرارٌ جسيمةٌ؛ بسبب هذه الأعمالِ. وكم من مركباتٍ تابعةٍ للقطاعِ العام أو الخاص قد تَحَطَّمَتْ أو تضرَّرت بنسبةٍ كبيرةٍ؛ من جَرَّائِهَا. والمسلمُ يَرْبَأُ بنفسه[1] أن تُشَبَّهَ باليهود الْمَلاَعِين؛ لذا كان لزامًا عليه أن لا يَسْمَحَ لها أن تُخَرِّبَ بلادَها وممتلكاتِ إخوانِها بيدِها، مهما كان الدافعُ لذاك التخريبِ.

الوقفة الثالثة: أنَّ الله تعالى يتبرَّأُ من فاعليها: ذلك أن الله تعالى تَوَعَّدَ مَنْ تَجَرَّأَ على قَتْلِ المؤمنِ بغيرِ حقٍّ متعمدًا بوعيدٍ لا تَكَادُ تَجِدُ له نظيرًا في النصوص الشرعية قد رُتِّبَ على فعلِ معصيةٍ أخرى. يقول الله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً﴾[النساء93]. فهذا الوعيدُ تضمَّنَ أربعَ عقوباتٍ: الخلودُ في نار جهنم،

1– يَرْبَأُ بنفسه: أي يُنَزِّهُها، ويجعلُها تَتَرَفَّعُ.

وغضبُ اللهِ تعالى، والطَّرْدُ من رحمته، والعذابُ الأليمُ. وقريبٌ من هذا الوعيدِ هو ذاك الذي تَوَعَّدَ به النبيُّ ﷺ مَنْ يقتلُ غيرَ المؤمنِ إذا كان مُعَاهَدًا، كالرَّعَايَا الذين دَخلوا بلادَنا من سائر الأجناسِ والدياناتِ بإذنٍ منَّا، فهـؤلاء في ذِمَّـةِ المسلمين، فلا يجوز لأحدٍ أن يَعتديَ عليهم بشتَّى صُنُوفِ الاعتداءِ. وعلى رأس هذه الاعتداءاتِ المحرمة القتلُ بغير حقٍّ. يقول النبيُّ ﷺ: ﴿مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَـمْ يُرِحْ رائحةَ الجنةِ[1]، وإنَّ رِيحَها يُوجَدُ من مسيرةِ أربعين عَامًا﴾[رواه البخاري]. ولذا فإنَّ سلفَنا الصالحين كانوا يَفقهون هذا المعنى جيدًا، حتى إنَّ عبدَ اللهِ بـنَ عمرَ رضي الله عنهما قال: "إنَّ مِنْ وَرْطَاتِ الأمورِ التي لا مَخْرَجَ لمـن أَوْقَـعَ نفسَه فيها: سفكَ الدَّمِ الحرامِ بغيرِ حِلِّه". وهو ترجمةٌ لِقَوْلِ النبيِّ ﷺ: ﴿لاَ يَزَالُ العبدُ في فُسْحَةٍ من دينه ما لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا﴾[رواه البخاري]. وينبغـي أن نَنْتَبِهَ إلى أنَّ الوعيدَ الشديدَ الواردَ في النصوص الشرعيةِ السابقةِ مُتَرَتِّبٌ على مَنْ قَتَلَ نفسًا واحدةً مسلمةً أو معاهَدَةً، فما بَالُكَ بالذي يَقْتُلُ بالجملةِ، ويُنَظِّرُ لهذا التَّقْتيلِ ويُؤَطِّرُهُ ويُنَظِّمُهُ ويُكَرِّرُهُ! ولْيعلمْ هؤلاء أن نِيَّتَهم الحسنةَ لا تشفعُ لهـم عند الله تعالى يومَ القيامة؛ ذلك أنهم يقولون: "نحن ما نصنعُ هـذا إلا لخدمـةِ الإسلام". فنذكِّرهم بأن الإسلامَ لا يُخْدَمُ إلا بما هو مشروعٌ. وقد قَرَّرَ أهـلُ العلمِ الْمُعْتَبَرِينَ أن صنيعَكم غيرُ مشروعٍ، فلا تَسَعَكُمُ الآنَ إلا التوبةُ والإنابةُ إلى الحقِّ، وإلا فإنَّكم بإصرارِكم على ما أنتم عليه تَجْلِبُونَ لأنفسكم براءةَ اللهِ تعالى منكم يومَ القيامةِ، يومَ لا ينفعُ مالٌ ولا بنونَ ولا فتاوى شاذَّةٌ، إلا مَنْ أَتَى اللهَ تعالى بقلبٍ سليمٍ وأَيْدٍ نظيفةٍ لم تَتَلَطَّخْ بالدماءِ المحرَّمَةِ.

---

[1]- لم يُرِحْ رائحةَ الجنةِ: أي لم يَجِدْهَا، ولم يَشَمَّهَا.

الوقفة الرابعة: أنَّها تأتي على المقاصدِ الضروريةِ التي جاءت الشريعةُ الإسلاميةُ لأجل الحفاظِ عليها: فمعلومٌ أن الإسلامَ جاء لحفظ خمسةِ أمورٍ: الدينُ والنفسُ والعرضُ والعقلُ والمالُ. وهذه التفجيراتُ تأتي عليها جميعًا فتُضَيِّعُهَا. وبيان ذلك كالآتي:

– فهي تأتي على مقصدِ الدينِ مثلاً عندما تُعطي صورةً سيئةً عن الإسلام والمسلمين لغيرِ المسلمين؛ الأمرُ الذي يُنَفِّرُهم من دينِ اللهِ تعالى. فيصبحُ الْمُفَجِّرُونَ بذلك مِمَّنْ فَتَنَهُمْ عن دينِ اللهِ الحقِّ، فيَقَعُون فيما كان يَتَخَوَّفُ منه عبادُ اللهِ الصالحون عندما كانوا يَدْعُونَ ربَّهم بقولهم: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[الممتحنة:05].

– وأما من حيثُ إتيانُها على مقصد النفسِ؛ فإن هذه التفجيراتِ تَحْصُدُ أرواحَ الآحادِ أو العشراتِ من الناس بِمَنْ فيهم الْمُفَجِّرُونَ أنفسُهم، إذا كانتِ العمليةُ انتحاريةً، وتُخَلِّفُ أيضًا إعاقاتٍ عند عددٍ آخَرَ منهم؛ إذ إنَّ بعضَهم تُبْتَرُ أجزاءُ من أجسادِهم، أو تَذْهَبُ منافعُ بعضِ أعضائِهم، كمنفعةِ الأذنِ التي هي السمعُ، من خلال الصَّمَمِ الذي تُحْدِثُهُ قوةُ الانفجارِ. هذا كلُّه فَضْلاً عن الجروح الخفيفةِ، أو الخطيرةِ التي يُشْفَى منها المصابُ بعد العناية الطبيةِ المركَّزةِ.

– وأما كَوْنُهَا تأتي على مقصد العرضِ؛ ذلك لأنَّ عوراتِ نساءٍ ورجالٍ ستَنْكَشِفُ في ساحة التفجيرِ وحين الاستطبابِ.

– وأما من حيث إتيانُها على مقصد العقل؛ فإن بعضًا مِمَّنْ يَشهدُ عمليةَ التفجيرِ ويَنْجُو بنفسه، قد يَجِنُّ من هَوْلِ ومُبَاغَتَة الكارثة، فيَفْقدُ عقلَه كليةً، أو يُصاب بصدمةٍ نفسيةٍ يحتاج معها إلى رعايةٍ نفسيةٍ مُطَوَّلَة؛ لِيَرْجِعَ إلى قِوَاهُ النفسيةِ والعقليةِ. بل إن الإصابةَ بالْجُنُونِ والمرضِ النفسيِّ ليست قاصرةً على

مَنْ يَشْهَدُ التفجيرَ، وإنما تَتَعَدَّاهُ إلى ذَوِيهِمْ عندما يَبْلُغُهم نَبأُ مَقتـــلِ قـــرِيبِهم أو إصابتِه.

- ومن حيث إتيانُها على مقصد المالِ؛ فإن هذه التفجيراتِ تَهْدِمُ البناياتِ وما فيها من أمتعة، وتَحْرِقُ المركباتِ، وتُتْلفُ الأوراقَ النقديةَ التي تكـــون عنـــد الضَّحايا، وتَتَطَلَّبُ مصاريفَ كثيرةً تُنْفَقُ علـــى الاستـــشفاء، والاتـــصالاتِ، والتعويضِ عن الأضرارِ، وعملياتِ التَّرميمِ وإعادةِ الإعمارِ. هذا زيـــادة عـــن الأموال التي تُصْرَفُ من قبل الْمُفَجِّرِينَ أنفسِهم لجلب الموادِ لتصنيعِ المتفجراتِ.

وعلى هذا، فإنَّ المأمولَ من المسلم الذي يَنظرُ إلى القـــضية بهـــذا المنظـــارِ المقاصديِّ، أنْ يُوَفَّقَ إلى معرفةِ حكمِ اللهِ تعالى فيها، وهو الحرمةُ. ومِـــنْ ثَمَّـــةَ يتقرَّبُ إلى ربه جلَّ وعلاَ بتركِ سبيلها إعدادًا وتخطيطًـــا وتنفيـــذًا، أو دعمًـــا ومساندةً ماديةً أو معنويةً.

ويَجْدُرُ بي في آخرِ هذا الموضوعِ أن أُنَبِّهَ إلى ما على الآباء والأمهاتِ وسائرِ المعلِّمين والْمُرَبِّين، من مسؤوليةِ العملِ على تحصينِ النَّشْءِ؛ حتى لا تَتَسَرَّبَ إليه أفكارُ التكفيرِ، والخروجِ عن المجتمع، واستباحةِ الدماءِ والأموالِ، والانضمامِ إلى صفوفِ الْمُفَجِّرِينَ والْمُنْتَحِرِينَ والْمُعْتَدِينَ؛ ذلك أن بعضًا من مُنَفِّـــذي هـــذه العملياتِ ومِنْ مُتَبَنِّيهَا مِنَ المراهقين الذين هم في الْعِقْدِ الثاني مـــن عُمـــرهم. فهؤلاء ما اقْتنعوا بما اقْتنعوا به، إلا في غياب دورِ الْمُرَبِّينَ. فلـــو عَظَّمُـــوا في نفوسهم شأنَ الدماءِ والأموالِ والأمنِ الذي يقول فيه النبيُّ ﷺ: ﴿مَنْ أصـــبحَ منكم آمِنًا في سِرْبِهِ[1]، مُعَافًى في جسدِه، عنده قُوتُ يومِه، فكأنَّما حِيزَتْ لـــه

[1]- سِرْبِهِ: نفسه وجماعته وقومه.

الدنيا بِحَذَافِيرِهَا[1]﴾[رواه الترمذي]، ولو أنهم غَرَسُوا فيهم روحَ السِّلْمِ والمصالحةِ، وتَعَرَّفُوا على أصحابهم وجلسائهم ومَنْ يُؤَثِّرُ فيهم، وراقَبُوا ما يقرؤُونهُ، وما يسمعونه من أشرطةٍ وأقراصٍ، وما يشاهدونه من مُصَوَّرَاتٍ، وما يَدخلون إليه من المواقع على شبكة الأنترنيت، لَحَصَّنُوهم من دخول هذا البابِ الخطيرِ عليهم أصالةً، وعلى أهليهم ومجتمعهم بالتَّبَعِ[2]. والله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[التحريم:06]. والنبيُّ ﷺ يقول: ﴿كلُّكم راعٍ، وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيَّته﴾[رواه الشيخان].

نسأل اللهَ جلَّ وعلاَ أن يجعلَ بلادَنا آمنةً مطمئنةً رخاءً سخاءً وسائرَ بلادِ المسلمين، وأن يُؤَمِّنَنَا في أوطاننا ولا يَفْتِنَّا، وأن يرفعَ مَقْتَهُ وغضبَه عنَّا، وأن لا يُؤاخذَنا بما فعل السفهاء منَّا، وأن يَحْقِنَ دماءَ المسلمين في كلِّ مكانٍ، وأن يُوَفِّقَ ولاةَ أمورِنا إلى ما يُحِبُّهُ ويرضاه، وأن يُبَصِّرَنَا بعيوبنا، وأن يُعيننا على إصلاحِ ما فَسَدَ من أمورنا. ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً﴾[الكهف:10]. والحمدُ لله الذي بنعمتِه تَتِمُّ الصالحاتُ.

---

[1] - حِيزَتْ له الدنيا بِحَذَافِيرِهَا: جُمِعَ له ما فيها مِنْ نعيمٍ.

[2] - يُعجبني تَصَرُّفُ بعضِ الإخوةِ الصالحين الواعين من الْمُرَبِّينَ، عندما يَغتنمون فرصةَ حدوثِ تفجيرٍ أو عمليةٍ إرهابيةٍ أخرى -في الجزائر خصوصًا، وفي غيرها من البلدان عمومًا-، فيُحَادِثُونَ أولادَهم أو تلاميذَهم عنها، فيَعْرِفُونَ منهم انطباعاتِهم عنها، فيُثَبِّتُونَ ويُصَوِّبُونَ ويُوَجِّهُونَ ويُبَيِّنُونَ ويُحَذِّرُونَ.

الخطبة الخامسة عشرة

ما ينبغي أنْ يُحَاسِبَ عليه المسلمُ نفسَه وهو يُوَدِّعُ سنةً ويَستقبلُ أُخرى

إنَّنا في هذه الأيامِ نُوَدِّعُ سنةً هجريةً، ونَستقبلُ سنةً هجريةً أخرى. ولذا فإنَّه من الجديرِ بالفعلِ أنْ يُحَاسِبَ المسلمُ نفسَه على ما قَدَّمَتْ في السنة الْمُنْصَرِمَةِ؛ حتى يَستأنفَ حياتَه على نَحْوٍ أفضلَ، بحيث إنْ أدركتْه الْمَنِيَّةُ خلالَ السنةِ التي هو مُقْدِمٌ عليها، تَلَقَّاهَا وهو على أحسنِ حالٍ.

وينبغي أن نَعْلَمَ أنَّ المقصودَ بالمحاسبة ليس هو فقط جَلْدُ الذَّاتِ، وذِكْرُ مساوِئها وأخطائِها وزَلاَّتِهَا -وإن كان هذا مطلوبًا؛ حتى يستغفرَ المسلمُ ربَّه ويتوبَ-، ولكن يدخلُ في معناها أيضًا تعدادُ المحاسنِ، ومواطنِ الإصابةِ، ومواضعِ الخيرِ في الإنسان؛ حتى يَشْكُرَ اللهَ تعالى على توفيقِه إليها، ويَدْعُوَهُ أن يَتَقَبَّلَهَا منه، ويَعْزِمَ على الاستمرار عليها.

ومِنْ بابِ ضبطِ الأمورِ، فإنَّ المسلمَ عليه أن يَعْلَمَ بأنَّ ما ينبغي أن يُحَاسِبَ نفسَه عليه هو ما يأتي ذِكْرُهُ:

1- اللَّفَظَاتُ: إن المسلمَ عند المحاسَبَةِ يرى فيما تَلَفَّظَ به، وما صدرَ عن لسانه، وما خرجَ مِنْ فِيهِ، فإنْ وَجَدَ قولاً سديدًا وكلامًا طيبًا: سلامٌ على الناس، ودعوةٌ إياهم إلى الله تعالى، وتلاوةٌ للقرآن الكريم، وذكرٌ ودعاءٌ، فلْيَحْمَدِ اللهَ تعالى على ذلك، ولْيَسْأَلْهُ القبولَ، ولْيُثَبِّتْ نفسَه على هذا المنوالِ. وإنْ وَجَدَ -لاَ قَدَّرَ اللهُ- غيرَ ذلك: سبٌّ وشتمٌ، غيبةٌ ونميمةٌ، كذبٌ ويمينُ غَمُوسٍ، قذفٌ وشهادةُ زورٍ، سخريةٌ بالناس ومُنَابَزَةٌ لهم بالألقاب، ونحوُ ذلك مِمَّا يمكن أن

يَجري على اللِّسان من المحرماتِ، فلْيُبَادِرْ إلى الاستغفار، ولْيُسَارِعْ إلى التوبة النصوحِ. نقول هذا؛ لأن المسلمَ يَعتقدُ أنَّ معه مَلَكًا لا يُفارقه، يُسَجِّلُ عليه كلَّ كلمة يَتَلَفَّظُ بها، ومِنْ ثَمَّةَ فإنه سيُحاسَب عليها طيبةً كانت أم خبيثةً. يقول اللهُ تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ[1]﴾[ق:18]. كما أن المسلمَ يَعلم بأن النبيَّ ﷺ قد عَظَّمَ أمرَ الكلمةِ، وبَيَّنَ أنَّ مَآلَهَا قد يكون وخيمًا في الآخرة، وذلك عندما خَاطَبَ الصحابيَّ الجليلَ معاذاً بنَ جبلٍ ﷺ قائلاً: ﴿كُفَّ عليك هذا[2]﴾. فقال: "يا نبيَّ اللهِ، وإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بما نتكلَّمُ به؟" فقال: ﴿ثَكِلَتْكَ أمُّك[3] يا معاذ، وهل يَكُبُّ الناسَ[4] في النار على وجوهِهِمْ -أو على مَنَاخِرِهِمْ- إلا حصائدُ ألسنتهم﴾[رواه الترمذي]. وعلى هذا، فإن المسلمَ ينبغي أن يكونَ شعارُه في بابِ اللَّفظاتِ قولَ النبيِّ ﷺ: ﴿مَنْ كان يُؤمنُ باللهِ واليومِ الآخرِ، فلْيَقُلْ خيرًا أو لِيَصْمُتْ﴾[رواه الشيخان].

2- النَّظراتُ: إن المسلمَ حين المحاسبةِ يَجِبُ أن يَقِفَ عند الذي كانت عينُه تُبْصِرُهُ؛ فإن العينَ قد ترى فيما ينفعُها في الدنيا والآخرةِ، وقد ترى ما فيه حَتْفُهَا[5]، فإن وَجَدَ أنَّ عينَه كانت خلالَ السنةِ الماضيةِ تَقَعُ على الكتب المفيدةِ

---

[1]- رَقِيبٌ عَتِيدٌ: مَلَكٌ حافظٌ لأعمال الإنسانِ، حاضرٌ مُعَدٌّ للكتابة.

[2]- اسمُ الإشارةِ "هذا" يشير إلى اللسان؛ لأن النبيَّ ﷺ عندما تلفَّظَ بالجملة المشتمِلة عليه كان آخذًا بلسانه.

[3]- ثَكِلَتْكَ أمُّك: دعاءٌ بالموت لا يُرَادُ وقوعُه، بل هو تنبيهٌ من الغفلة، وتعجبٌ من الأمر.

[4]- لفظ "الناسَ" بفَتْحِ السِّينِ؛ لأنه في مَحَلِّ نصبٍ مفعول به مقدَّمٌ. والفاعل هو لفظُ "حصائدُ" مرفوعٌ، وعلامةُ رفعِه الضمةُ الظاهرةُ على آخرِه.

[5]- الْحَتْفُ: هو الهلاك والموت.

فتقرأُ فيها، وعلى المواقع الالكترونيةِ النافعةِ فتتجوَّل بَيْنَ صـفحاتِها، وعلـى الآيات الكونيةِ من جبالٍ وبحارٍ وكواكبَ ونحوِها فتتَّعظُ بها؛ ائتمـارًا بقولـه تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاء كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَـى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُـطِحَتْ﴾[الغاشـية:17-20]، فلْيشكرَ ربَّه على هذا التوفيقِ إلى النظرِ الصائبِ. وإنْ وَجَدَ خلافَ ذلك: قراءةٌ في مكتوباتٍ ساقطة، وتَصَفُّحٌ لمواقعَ مُخلَّة بالحياء، ونظرٌ في سائر المحرماتِ من الحقيقيَّاتِ أو الْمُصَوَّرَاتِ، فلْيراجعْ نفسَه، ولْيعزمْ على إِلْجَامِهَا؛ حتى لا تَستطردَ فيما يُميتُ القلبَ والضميرَ، ويُوقعُ في كبائر الذنوب. يقول الله تعالى: ﴿قُـل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾[النور:30]. ويقول الشاعرُ:

كلُّ الحـوادثِ مَبْـدَاهَا من النَّظَـرِ ومُعْظَـمُ النارِ مِنْ مُسْتَصْغَـرِ الشَّـرَرِ

ولْيَذْكُرِ المسلمُ دائمًا فيما يتعلَّق ببابِ النَّظراتِ قولَه تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ[1] وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾[غافر:19].

3- السَّماعاتُ: فالمسلمُ حَالَ المحاسبةِ يستحضرُ كلَّ ما تَلَقَّفَتْـهُ أُذُنَـاهُ مـن الأصواتِ والكلماتِ، فإنْ وَجَدَ أنه كان عاكفًا على سماع كلامِ اللهِ تعـالى، والإصغاءِ إلى الشعرِ النافعِ الملتزمِ بأحكام الشرعِ، وتَلَقِّي دروسِ العلمِ، ونحـوِ ذلك من سائر الكلامِ الذي يُشْرَعُ الإنصاتُ إليه، فلْيُطَمْئِنْ نفسَه بأنه مِمَّنْ أراد الله تعالى بهم خيرًا. يقول النبيُّ ﷺ: «مَنْ يُـرِدِ اللهُ بِـهِ خَيْـرًا يُفَقِّهْـهُ فِـي الدِّينِ»[متفق عليه]. ومَنْ وَجَدَ عكسَ ذلك مِمَّا يُسْمَعُ: قَدْحٌ في الأشخاص،

---

[1]- خائنةُ الأعينِ: هي ما تَسْتَرِقُهُ العينُ من النظرِ إلى الحرامِ.

غناءٌ ماجنٌ، تجسسٌ على الناس، كلامٌ فارغٌ، ونحوُ ذلك مِمَّا لا ينبغي أنْ يسمعَه المسلمُ، فلْيعزمْ من ساعة المحاسبةِ على أن يكونَ شعارُه: "لا أجعلُ أُذُنِي سَلَّةَ مُهملات، يَرْمِي فيها الناسُ أوساخَهم". ولْيكنْ قدوتُه النبيَّ ﷺ الذي قال عنه ربُّه بأنه: ﴿أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾[التوبة:61]. أي أنه لا يسمعُ منكم إلا ما فيه الخيرُ.

4- الْخُطْوَاتُ: فمِمَّا يجبُ أن يكونَ حاضرًا في مجلس المحاسبةِ المواضعُ التي كان المسلمُ يمشي إليها ويَتَرَدَّدُ عليها برجليْه، أو على مَتْنِ المراكبِ المختلفةِ. فالأصلُ فيه أنْ يَجِدَ أنه كان يَقْصُدُ بيوتَ اللهِ ﷻ، ودُورَ العلمِ والثقافةِ، ومساكنَ الأقاربِ والإخوانِ في الله تعالى، وأماكنَ العملِ الشريفِ وقضاءِ الحوائجِ المشروعة. فههنا يكون قد خَطَا خطواتٍ مباركةً، وتَعَبَّدَ إلى الله سبحانه بها؛ ذلك أن النبيَّ ﷺ أخبرَ أنَّ مَنْ توضأَ، وخرج إلى المسجد قاصدًا الصلاةَ: ﴿لَمْ يَخْطُ خطوةً إلا رُفِعَتْ له بها درجةٌ، وحُطَّ عنه بها خطيئةٌ﴾[رواه الشيخان]. وقال عن الخروج في طلب العلمِ: ﴿مَنْ سَلَكَ طريقًا يلتمسُ فيه علمًا، سَهَّلَ اللهُ له به طريقًا إلى الجنة﴾[رواه مسلم]. بل إنه مِمَّا بَشَّر به صلواتُ اللهِ عليه وسلامُه، أنَّ الخطواتِ التي يَخْطُوهَا المسلمُ لزيارة أخٍ له في الله تعالى، تكون سببًا في جَلْبِ محبةِ اللهِ تعالى له. فقد رَوَى أبو هريرةَ ﷺ، عن النبيِّ ﷺ: ﴿أن رجلاً زَارَ أخًا له في قرية أخرى، فأَرْصَدَ اللهُ على مَدْرَجَتِه مَلَكًا، فلما أَتَى عليه، قال: "أين تُريد؟" قال: "أُريد أخًا لي في هذه القريةِ". قال: "هلْ لَكَ عليه من نعمة تَرُبُّهَا؟" قال: "لاَ، غيرَ أنِّي أحبُّه في اللهِ". قال: "فإنِّي رسولُ اللهِ إليك، بأنَّ اللهَ قد أحبَّك كما أحببْتَه فيه﴾[رواه مسلم]. ولكنْ قد يَقَعُ من المسلمِ الزَّلَلُ، فيكون قد خَطَا خطواتٍ مشؤومةً، ومَشَى إلى أماكنَ تُسْخِطُ اللهَ تعالى، كأنْ

يكونَ قد ذهبَ إلى بيوتِ الفسقِ والدعارةِ، أو سَعَى بين الناسِ للإفسادِ بينهم، أو كان يَرْتَادُ المقاهيَ والأماكنَ التي فيها مَضْيَعَةٌ للوقت، وربَّما اشتملتْ على الحرامِ كالْمَيْسِرِ والدخانِ والمسكراتِ. فعندئذٍ سيتحرَّكُ فيه وازعُ الإيمانِ، ويَعْلَمُ أنَّ السنواتِ تَمُرُّ، وأنه قد اقتربَ أكثر من أجلِه، فيُبَادِرُ إلى الإنابة إلى الله تعالى، وتطليقِ المواضعِ المحرمةِ والمشبوهةِ.

5- الْمَاليَّاتُ: فالمسلمُ يُدْرِجُ في جدول أعمالِ محاسبتِه نفسَه الأمورَ المتعلِّقَةَ بالمال، من حيثُ طريقةُ اكتسابِه، وصفةُ إنفاقه. فإنْ وَجَدَ أنَّ ما دَخَلَ في حَوْزَتِه من المال كان من مصادرَ مشروعةٍ: أجرةٌ على عملٍ شريفٍ أَدَّاهُ بإتقانٍ، ربحٌ من تجارةٍ في المباح، هبةٌ لا شبهةَ فيها، ميراثٌ من أَحَدِ مَنْ يُدْلِي إليه بسببٍ منْ أسباب الإرثِ، وأمثالُ ذلك ممَّا يجوزُ شرعًا أن يكون مصدرًا لجلبِ المالِ، فإنْ وَجَدَ هذا فهو من الْمُوَفَّقِينَ. وإنْ وَجَدَ غيرَ هذا، كأنْ يكونَ قد وَلَجَ بابَ الحرامِ، واقتحمَ بابَ الشبهاتِ، وسَاقَ إلى رصيدِه المالَ من بيوعٍ فاسدةٍ، أو سرقاتٍ ورُشًا[1] واختلاساتٍ، أو اغتصابٍ لحقوق الورثةِ، أو أشباهِ هذه الطرقِ التي ما جعلها الشرعُ الحنيفُ وسائلَ لكسبِ المالِ، فسَاعَتَئِذٍ يكون مُطَالَبًا بِرَدِّ الحقوقِ إلى أصحابها، والعزمِ على الاسترزاقِ من الحلالِ. يقول اللهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً﴾[النساء:29-30].

وما قِيلَ في طريقة اكتسابِ المالِ، يُقَالُ أيضًا في طريقة صَرْفِهِ. فإنْ وَجَدَ المسلمُ

---

[1]- رُشًا: جَمْعُ رشوةٍ.

أنه كان يُنْفقُهُ في الْأَوْجُه المشروعة، فأخرجَ منه الزكاةَ إنْ كانت قد وَجَبَتْ فيه، وزَادَ عنها بما فَتَحَ اللّٰهُ تعالى عليه من سائرِ التبرعاتِ، وكَفَى نفسَه ومَنْ تَجِبُ عليه نفقتُهم مَؤُونَتَهُمْ، فهو على خيرٍ، ولْيُوَاصِلْ مسيرتَه الطيبةَ. وإنْ وَجَدَ أنه مَنَعَ حقَّ اللهِ أو حقَّ العبادِ من مالِه، أو أنه أنفقَه في الحرام، فهَهُنا لا بُدَّ أنْ يَستدركَ بإخراج ما وَجَبَ عليه من الحقوقِ، ويُذَكِّرَ نفسَه بأنه ممَّا سيُسْأَلُ عنه يومَ القيامةِ مَالُهُ –كما أخبرَ النبيُّ ﷺ–: ﴿مِنْ أينَ اكْتَسَبَهُ، وفِيمِ أَنْفَقَهُ﴾[رواه الترمذي].

وفي الختامِ، أُرِيدُ أنْ أُنَبِّهَ إخواني في الله جلَّ وعلاَ إلى أنَّ عمليةَ المحاسبةِ، يَجِبُ أنْ يكونَ المسلمُ فيها نزيهًا مع نفسِه إلى أَبْعَد الحدود، فيُحَاسِبُهَا كما يُحَاسِبُ الشريكُ الشحيحُ شريكَه[1]؛ حتى تكونَ المحاسبةُ مُجْدِيَةً، وتُؤْتِي أُكُلَهَا المنشودَ بإذن ربِّها. أما إذا زَكَّى الْمُحَاسِبُ نفسَه، فثَمَّنَ مَحَاسِنَهَا، وتَغَاضَى عن مساوئِها، والْتَمَسَ الأعذارَ لنفسِه عن تقصيرِها، فإنَّه حينئذٍ لا يَخْدَعُ ولا يُهْلِكُ إلا نفسَه.

نسأل اللّٰهَ العليَّ القديرَ بأسمائه الْحُسنى وصفاتِه الْعُلاَ أنْ يجعلَنا من الذين يُحَاسِبُونَ أنفسَهم في الدنيا قبل أنْ يُحَاسَبُوا في الآخرة، ومِنَ الذين يَزِنُونَ أعمالَهم قبل أنْ تُوزَنَ عليهم، وأنْ يَتَقَبَّلَ منَّا سائرَ صالحاتِنا، وأن يَغْفِرَ لنا جميعَ زَلاَّتِنَا، وأن يَجْعَلَ السنةَ الجديدةَ سنةَ طيبةً مباركةً علينا جميعًا، وأن يجعلَها سنةَ نَصْرٍ للإسلام والمسلمين. وآخِرُ دعوانا أنِ الحمدُ لله رَبِّ العالمين.

---

[1]– الشريكُ الشحيحُ يُحَاسِبُ شريكَه على الصغيرة والكبيرةِ، على الدرهمِ والدينارِ؛ لأنَّ فيه حرصًا على الدنيا، فلا يُريد أنْ يَخْسَرَ أيَّ شيءٍ مهما قَلَّ شأنُه. على عكس الكريمِ، فإنه يتسامحُ في الأشياء الصغيرة، وربَّما تَغَاضَى عن بعض الأمورِ التي هي ذَاتُ بَالٍ.

الخطبة السادسة عشرة

عِبَرٌ وعِظَاتٌ مِنْ حَدَثِ الهجرةِ النبويَّةِ

في مَطْلَعِ كلِّ سنةٍ هجريةٍ جديدةٍ يتذكَّرُ المسلمون حَدَثًا جليلاً من أحداث سيرةِ نبيِّهم ﷺ. هذا الحدثُ الذي مَهَّدَ لِنَقْلِ المسلمين من مرحلةٍ إلى مرحلةٍ أخرى مغايرةٍ لها تمامًا، من مرحلة الضعفِ والذِّلَّةِ وانعدامِ الدولةِ، إلى مرحلة القوةِ والعزةِ وقيامِ الدولةِ. هذا الحدثُ هو هجرتُه ﷺ من مكةَ إلى المدينة[1].

والمتأملُ فيما وَقَعَ في هذا الحدثِ العظيمِ سوف تستوقِفُهُ أمورٌ كثيرةٌ، يُمْكِنُ أن يَستخرجَ منها عبرًا وعِظَاتٍ عديدةً، تكون له نِبْرَاسًا في حياته، نَذْكُرُ فيما يأتي بعضًا منها:

العبــرة الأولى: وجوبُ الْأَخْذِ بالأسبابِ الماديةِ مع التوكل على الله تعالى؛ لتحقيقِ الأهداف: أي أنَّ المسلم عند إرادةِ تحقيقِ أهداف معينةٍ -سواء كانت هذه الأهداف دُنْيَوِيَّةً كنجاحٍ في مشروعٍ معيَّنٍ: دعويٍّ أو علميٍّ أو اجتماعيٍّ أو اقتصاديٍّ أو سياسيٍّ، أو أُخرويةً كالفوز بالجنة والنجاةِ من النار- يجبُ عليه أن يعتمدَ على الله تعالى، ويُفَوِّضَ الأمرَ إليه، ثم يَبْذُلُ ما استطاع من فكرِهِ

[1] - ينبغي أن يُعْرَفَ بأنَّ حَدَثَ الهجرةِ كان في شهرِ ربيعٍ الأولِ، حيث خرجَ النبيُّ ﷺ من مكةَ في غُرَّتِهِ، ودخل المدينةَ في اليوم الثاني عشرَ منه، إلا أنَّ المسلمين لَمَّا أجْمَعُوا في عهد عمرَ رضي الله عنه على اعتمادِ التأريخِ بالهجرة النبويةِ، جَعَلُوا بدايةَ التأريخِ من أولِ السنةِ التي هاجرَ النبيُّ ﷺ خِلاَلَهَا؛ على اعتبار أنَّ العربَ تعارفتْ على أنَّ بدايةَ السنةِ القمريةِ هو شهرُ مُحَرَّمٍ. نقول هذا؛ حتى لا يَظُنَّنَّ ظَانٌّ أنَّ الهجرةَ النبويةَ كانت في شهرِ محرمٍ.

ووقته وطاقته الجسديةِ والماليةِ في سبيل تحصيلِ ذلك الهدفِ. وهذا المعنى أشار إليه القرآنُ الكريمُ في قصة مريمَ عليها السلام، لَمَّا أَلْجَأَهَا المخاضُ بعيسى عليه السلام إلى جذعِ النخلة، حيث قال لها ربُّها: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾[مريم:25]. فاللهُ تعالى الذي أَثْمَرَ لها النخلةَ تَكَرُّمًا منه؛ لأنه ليس في مُكْنَتِهَا أن تُثْمِرَهَا، أَمَرَهَا على لسان مَوْلُودِهَا –الذي تكلَّم عَقِبَ خروجِه مِنْ بطنِها– أن تَبْذُلَ ما في مُكْنَتِهَا من أسبابِ سَوْقِ الرزقِ، وهو تحريكُ النخلةِ؛ ليتساقطَ عليها الرُّطَبُ الطَّيِّبُ، فتأكلُه هنيئًا مريئًا. وكان بإمكانِه جلَّ وعلاَ –وكلُّ شيءٍ بالنسبة إليه مُمْكِنٌ– أن يسوقَ إليها طبقًا من الرطبِ دون أن تبذلَ أيَّ سببٍ. ولكنَّه سبحانه وتعالى أراد أن يعلِّمَها هي ابتداءً –ونحن مِنْ بعدها بالتَّبَعِ– ضرورةَ الْأَخْذِ بالأسبابِ الماديةِ لتحصيل الأهدافِ. وأكَّدَ النبيُّ ﷺ على هذا في سُنَّته العطرةِ، فقد روى البخاريُّ أن النبيَّ ﷺ كان في جنازة، فأخذ شيئًا، فجعل يَنْكُتُ به في الأرضَ، فقال: ﴿ما منكم من أحد إلا قد كُتِبَ مقعدُه من النار، ومقعدُه من الجنة﴾. قالوا: "يا رسولَ اللهِ، أَفَلاً نَتَّكِلُ على كتابنا، ونَدَعُ العملَ؟" قال: ﴿اعْمَلُوا، فكلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ له﴾. ثم قال: ﴿أَمَّا مَنْ كان من أهلِ السعادةِ، فسَيُيَسَّرُ لعملِ السعادةِ، وأمَّا مَنْ كان مِنْ أهلِ الشقاوةِ، فسَيُيَسَّرُ لعملِ الشقاوةِ﴾. ثم قرأ قولَه تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾[الليل:05-10]. ولَمَّا سأله صاحبُ الناقة: "يا رسول الله، أَعْقِلُهَا وأَتَوَكَّلُ، أو أُطْلِقُهَا وأَتَوَكَّلُ؟". قال: ﴿اعْقِلْهَا وتَوَكَّلْ﴾[رواه الترمذي]. وقد كان سلفُنا الصَّالِحُ رضي الله عنهم على نهجِ نبيِّهم ﷺ يُحارِبون التواكلَ –وهو تَرْكُ الْأَخْذِ بالأسبابِ الماديةِ بحجةِ الاعتمادِ على الله

تعالى-؛ ولذا أُثِرَ عن عمرَ بنِ الخطابِ ﷺ أنه لَمَّا رأى مَنْ تَفرَّغَ للعبادة في المسجد تاركًا العملَ لكسبِ الرزقِ، قال مُسْتَنْكِرًا مُوَبِّخًا: "إن السماءَ لا تُمْطِرُ ذَهَبًا ولا فِضَّةً".

وإذا رَجعنا بذاكرتِنا إلى تفاصيلِ هجرةِ النبيِّ ﷺ، سنجدُ تجسيدًا واقعيًّا لمبدأِ التوكلِ بمعناهُ الصحيحِ؛ ذلك أنَّ الله تعالى كان بإمكانه أن يُكْرِمَ نبيَّه بمعجزةٍ كما كرَّمَه في الإسراء والمعراج، فيأْتيه بالْبُرَاقِ، فيَرْكَبُهُ، فينتقلُ في لَمْحِ البصرِ من مكةَ إلى المدينة آمنًا سالمًا غانمًا. إلا أنَّه ﷻ أراد أن يُعَلِّمَنَا من خلالِ صنيعِ نبيِّه ﷺ ضرورةَ الْأَخْذِ بالأسبابِ؛ إذ إنَّه صلواتُ الله عليه وسلامُه خَطَّطَ لإنجاحِ هجرتِه تخطيطًا مُحْكَمًا، يَظْهَرُ ذلك من خلالِ أمورٍ كثيرةٍ أهمُّها ما يأتي:

- أنه ﷺ أَتَى أَبَا بكرٍ الصديقَ ﷺ مُتَنَكِّرًا في عِزِّ القيلولةِ -رغم أنه ما كان يَأتيه سابقًا في مثلِ هذا الوقتِ-؛ لِيُخْبِرَهُ بأمرِ الهجرةِ.

- كَلَّفَا أسماءَ بنتَ أبي بكرٍ رضي الله عنها بإعدادِ الزَّادِ لهما، والإتيانِ به في غارِ ثورٍ الذي يُوجد في الجهة الجنوبيةِ بالنسبة لمكةَ، مع أنَّ المدينةَ تُوجد إلى الشمال بالنسبة لها؛ وهذا من باب التَّمْوِيهِ على الأعداء.

- كَلَّفَا عبدَ اللهِ بنَ أبي بكرٍ الصديقِ ﷺ أن يَتَسَّمَعَ ما يقولُه الناسُ في مكةَ نهارًا؛ لِيأتيَهما به في غارِ ثورٍ ليلاً، وينصرفُ مِن عندِهما باكرًا، حتى يصبحَ وكأنَّه كان مُقيمًا بين أهلِ مكةَ.

- الاختباءُ في غارِ ثورٍ ثلاثةَ أيامٍ، وعدمُ سلوكِ الطريقِ إلى المدينة مباشرةً بعد خروجِهما من مكةَ.

- تكليفُ عامرِ بنِ فُهَيْرَةَ ﷺ راعي غنمِ أبي بكرٍ أن يَأتيَهما كلَّ مساءٍ؛ لِيُطعمَهما من ألبانِها، ولِيُزِيلَ آثارَ أقدامِ أسماءَ وعبدِ اللهِ.

- تجهيزُ راحلتيْن لركوبِهما في الطريق، وأَخْذُ أبي بكرٍ جميعَ ما يَمْلِكُ من مالٍ معه.
- استئجارُ المرشدِ الماهرِ عبدِ الله بنِ أُرَيْقَط -وإنْ كان على شركه-، لِيَسْلُكَ بهما الطُّرُقَ الْخَفِيَّةَ غيرَ المعهودةِ إلى المدينة.

ولَمَّا رأى المولى جلَّ وعلاَ من نبيِّه ﷺ وصاحبِه أَخْذًا بالأسباب، وبَذْلاً للمجهودِ، بَارَكَ في تلك المجهوداتِ، وكَلَّلَهَا بالنجاح، حتَّى إنهما لَمَّا كَادَا أن يُكْتَشَفَ أمرُهما، تَكَفَّلَ اللهُ تعالى بهما، فعَصَمَهُمَا من أعدائِهما، فأَعْمَى أبصارَهم لَمَّا وَصَلُوا إليهما في الغار.

فكأنَّ النبيَّ ﷺ من خلالِ تخطيطِه الْمُحْكَمِ، يقول لنا بلسانِ حاله: ابْذُلُوا ما في وُسْعِكُمْ، وخُذُوا بالأسبابِ المادية، وفَوِّضُوا الأمرَ إلى الله تعالى أوَّلاً وأخيرًا، فثَمَّةَ يأْتي التأييدُ الإلهيُّ والتوفيقُ الربانيُّ.

العبرة الثانية: وجوبُ حفظِ ورعايةِ الأماناتِ الماديةِ والمعنويةِ: إنَّ الأصلَ في المسلم إذا اؤْتُمِنَ على شيءٍ، سواء كان ماديًّا كالودائع النقديةِ أو المعدنيةِ النفيسةِ، أو معنويًّا كالسِّرِّ والوظيفةِ الْمُوكَلَةِ إليه والزوجةِ والأولادِ وأصواتِ الْمُنْتَخِبِينَ، أن يكون ناصحًا أمينًا؛ ذلك أن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً﴾[النساء:58]. أما إذا خَانَ المسلمُ، وضَيَّعَ الأمانةَ، فقد وَقَعَ فيما حَذَّرَ اللهُ تعالى منه، وتَلَبَّسَ بصفةٍ من صفاتِ المنافقين، وأصبح إيمانُه في الحضيضِ الأسفلِ. يقول اللهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَخُونُواْ اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[الأنفال:27].
ويقول النبيُّ ﷺ: ﴿أربعٌ مَنْ كُنَّ فيه كان منافقًا خالصًا، ومَنْ كانت فيه خَصْلَةٌ

منهنَّ كانت فيه خَصْلَةٌ مِنَ النفاقِ حتى يَدَعَهَا: إذا ائْتُمِنَ خَانَ، وإذا حَدَّثَ كَذَبَ، وإذا عاهدَ غَدَرَ، وإذا خاصمَ فَجَرَ﴾[رواه الشيخان]. ويقول أيضًا: ﴿لاَ إيمانَ لِمَنْ لاَ أمانةَ له، ولاَ دينَ لِمَنْ لاَ عَهْدَ له﴾[رواه أحمد].

وبالرجوعِ إلى أحداث الهجرةِ النبويةِ، نَجِدُ أنَّ النبيَّ ﷺ قد أعطانا من نفسهِ القدوةَ الحسنةَ في حفظ الأمانةِ وعدمِ الخيانة؛ ذلك أنه عندما أَمَرَهُ ربُّه بالهجرة، كان في حَوْزَتِهِ عددٌ من ودائع المشركين الْمَكِّيِّين، فلمْ يَغتنمْ صلواتُ اللهِ عليه وسلامُه فرصةَ هجرتِه التي ستُبْعِدُهُ عن الْمُودِعِينَ -لا سيَّمَا وأنهم من أعدائه في الدينِ- لم يَغتنمْها لِيَفِرَّ بها إلى المدينة، ويَتَمَلَّكَهَا. بل إنه أَمَرَ عَلِيًّا بنَ أبي طالبٍ رضي الله عنه أن يَتَخَلَّفَ في مكةَ؛ لِيَرُدَّ تلك الودائعَ إلى أصحابِها.

فهذا نموذجٌ نبويٌّ حَيٌّ في حفظ الأمانةِ في جانبِها الماديِّ. إلا أننا في أحداث الهجرةِ أيضًا نَجِدُ نموذجًا آخرَ في هذا الحفظِ، لكن في الجانبِ المعنويِّ للأمانة؛ حيثُ إنَّ أسماءَ بنتَ أبي بكرٍ رضي الله تعالى عنهما، لَمَّا جاء المشركون إلى بيتِ والدها يَبحثون عنه وعن صاحبِه، بعد في فَشَلِهم في خطةِ قتلِ النبيِّ ﷺ عندما طَوَّقُوا بيتَه، فعَصَمَه اللهُ تعالى منهم، فخرجَ من بينِهم سالمًا غانمًا، فلمَّا جاءوها وسألوها عنهما، وهي تعرفُ مكانَهما، بل إنها مكلَّفَةٌ بنقلِ الزَّادِ إليهما، فلم تَبُحْ بشيءٍ، حتى إن اللَّعِينَ أبَا جهلٍ مِنْ لُؤْمِهِ أنه صَفَعَهَا على وجهها صفعةً قويةً سَقَطَ مِنْ جَرَّائِهَا قِرْطُهَا مِنْ أذنِها، ومع ذلك ظَلَّتْ أمينةً على السِّرِّ الذي اؤْتُمِنَتْ عليه.

العبرة الثالثة: ضرورةُ التفاؤلِ بمستقبلٍ طَيِّبٍ، وعاقبةٍ حسنةٍ للإسلام والمسلمين: إنَّنا في زمنٍ طَغَى فيه التشاؤُم على الناس فيما يتعلَّقُ بمصيرِ الإسلامِ والمسلمين، حيث إنَّنا نَجِدُ أنَّ اليأسَ قد تَسَرَّبَ إلى قلوب الكثيرين منهم، حتى

إنَّ بعضَهم يَكَادُ يَجْزِمُ أنَّه لَنْ تقومَ قائمةٌ لهما. وهذا الاعتقادُ خطيرٌ جدًّا؛ لأنَّ القلبَ إذا دَاخَلَهُ التشاؤُمُ واليأسُ، أرسلَ رسالةً سَلْبِيَّةً إلى صاحبِه الذي يريد أنْ يعملَ لأجل نهضةِ الأمةِ مِنْ كَبْوَتِهَا، وإرجاعِ عِزِّهَا المفقودِ إليها، مفادُهَا: "أنْ لا تعملْ، ولا تُتْعِبْ نفسَك، فإنَّ النتيجةَ مَحْسُومَةٌ معروفةٌ، وهي الفشلُ وبقاءُ الحالِ على ما هو عليه، إنْ لم يَزْدَدْ سُوءًا"؛ إذ إنه على حسبِ اعتقادِه لن تقومَ للإسلام والمسلمين قائمةٌ أبدًا. وههنا يَخْلُدُ الْمُتَشَائِمُ اليائسُ إلى الراحة، فيَزِيدُ من عُمْقِ الأزمةِ عندما فَشِلَ، وربما فَشَّلَ غيرَهُ أيضًا. لكنْ لو حدثَ العكسُ، وهو التفاؤلُ والاستبشارُ بمستقبلٍ زاهرٍ طيبٍ للإسلام والمسلمين، وأنَّ هذا الانحطاطَ الذي تشهدُه الأمةُ الآنَ ليس قَدَرًا مَحْتُومًا عليها إلى يومِ القيامةِ، ولكنْ هو أَمْرٌ ظَرْفِيٌّ أُصيبتْ به الأمةُ؛ لَمَّا تَخَلَّتْ عن دينِها عقيدةً وشريعةً، بمعنى أنَّها لو عادتْ إليه من جديدٍ فسيُكْتَبُ لها النصرُ، وتُصْبِحُ هي الرائدةُ في الْعَالَمِ كما كانت في عهد سلفِها. يقول الله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا منكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَات لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْد خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[النور55].

والناظرُ في أحداث الهجرةِ النبويةِ، يَجِدُ أنها تُؤَصِّلُ لمبدأ التفاؤلِ والاستبشارِ بالنصرِ والتمكينِ للإسلام والمسلمين؛ ذلك أنَّ النبيَّ ﷺ لَمَّا تَيَقَّنَ من أنَّ مكةَ وأهلَها لن يكونَا له سَنَدًا في دعوته في تلك المرحلة، ما دَاخَلَهُ اليأسُ، بل ظَلَّ مُستبشرًا، لذا بَدَأَ يبحثُ عن سندٍ آخرَ، فوَفَّقَهُ اللهُ تعالى إلى المدينةِ وأهلِها، فبَايَعُوهُ بَيْعَتَيِ العقبةِ الأولى والثانيةِ، ثم هاجرَ إليهم، فوجدَهم عند حُسْنِ ظَنِّهِ

بهم، حيث استقبلُوه استقبالاً باهرًا، وآوَوْهُ هو وأصـــحابَه، وقـــدَّموا الغـــالِيَ والنفيسَ لإعلاءِ كلمةِ اللهِ تعالى، ونَشْرِ دينِه في العالمين.

كما نَجدُ في أحداث الهجرةِ موقفًا هو الْقِمَّةُ في التفاؤلِ والاستبشارِ؛ حيث إنه ﷺ لَمَّا انطلقَ إلى المدينة بعد مُكوثِه في الغار ثلاثةَ أيامٍ، وظَنَّ أن البحثَ عنه وعن صاحبِه قد انقطعَ، إلا أن قريشًا قد رَصَدَتْ جائزةً كبيرةً وهي مائةُ ناقـــةٍ لِمَنْ يأتي به أو بصاحبِه حَيَّيْنِ أو مَيِّتَيْنِ، فانطلقَ سُرَاقَةُ بنُ مالكٍ ﷺ -وهـــو حينئذٍ على الشرك- في طَلَبِهِمَا، فلمَّا وصلَ إليهما مُنِعَ منهما؛ إذ إنـــه تَفَاجَـــأَ بغَوْصِ يديْ فرسِه في الأرض حتى بَلَغَتَا الرُّكبتيْن، فخَـــرَّ عنـــها، ثم زَجَرَهَـــا فنهضتْ، فلمَّا استوتْ قائمةً إذَا لأَثَرِ يديْها غبارٌ ساطعٌ في السماء مثلُ الدخانِ، فنادى وَفْدَ النبيِّ ﷺ بالأمانِ، فوَقَفُوا، فرَكِبَ فرسَه حتى جاءَهم، فطَلَبُوا منه أن يُخْفِيَ عن الناسِ أمرَهم، وبَشَّـــرَهُ صلواتُ اللهِ عليه وسلامُه بسِـــوَارَيْ كِسرى -وهنا مَحَلُّ الشاهدِ-، فهو ﷺ في هذه اللحظاتِ العصيبة، هـــاربٌ بدينـــه، خائفٌ من بَطْشِ قومِه، كان مستبشرًا متفائلاً إلى أبعدِ الحدودِ، حيث إنه تَصَوَّرَ بأنه سيَنْجُو من كيدِ قومِه، ويَصِلُ سالمًا غانمًا إلى المدينة، ويُقيم عليها دولتَه، ثم تَدِينُ له العربُ قاطبةً، ثم تَخْرُجُ دعوتُه إلى الْعَجَمِ، فتبلُـــغُ بـــلادَ فـــارسٍ، ويَستسلمُ كِسْرَاهَا، وتكون حُلِيُّهُ غنيمةً للمسلمين، وأنَّ هذا الفتحَ ليس ببعيدٍ؛ بدليلِ أنه تَصَوَّرَ مُلاَحقَهُ سراقةَ بنَ مالكٍ سيكون حَيًّا مسلمًا ويُتَوَّجُ بـــسِوَارَيْ كِسرى. وبالفعل، فإنَّ كلَّ الذي تَفَاءَلَ به قد وَقَعَ؛ فقد أَمِنَ في هجرته، وأقامَ دولةَ الإسلامِ في المدينةِ، وأَقَرَّ اللهُ عينَه بدخول القبائلِ العربيةِ في دينـــه وعلـــى رأسِها قبيلتُه قريشٌ، ثم انتقلَ إلى الرفيق الأعلى، لِيُوَاصِلَ خلفاؤُه مـــن بعـــدِه المسيرةَ المباركةَ في نَشْرِ دينِه في العالمين. ولَمَّا كان عهدُ عمرَ بنِ الخطابِ ﷺ

فَتَحَ بلادَ فارسٍ، وفَرَّ كِسرى من مملكتِه تاركًا جواهرَه، فغَنِمَهَا المسلمون. ولَمَّا جِيءَ بها إلى عمرَ ﵁، وَجَدَ فيها سِوَارَيْ كِسرى، فـدَفَعَهَا إلى سـراقةَ ﵁ تحقيقًا لِنُبُوءَةِ الرسولِ ﷺ. فكأنَّه صلواتُ اللهِ عليه وسلامُه باستبشارِه وهو في تلك الظروفِ الْحَالِكَةِ التي كان يعيشُها يقول لنا: أيُّها المسلمون قد تَمُـرُّونَ بلحظاتٍ حَرِجَةٍ كالتي مَرَرْتُ بها أنا قبل وأثناء وبُعَيْدَ[1] هجرتي، ولكنْ تَفَاءَلُوا كما تَفَاءَلْتُ؛ فإنَّ ذلك يَدفعُكم إلى العمل على مراجعةِ الـنفسِ، وإصـلاحِ الذَّاتِ، وثَمَّةَ يَنطبقُ عليكم قولُه تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[البقرة:201]، فتَتَحَوَّلُونَ مِنْ حالِ الضَّعْفِ والهـوانِ والتخلـفِ والتبعيَّةِ إلى الغيرِ، إلى حالِ القوةِ والعزةِ والتقدُّمِ والاستقلاليةِ، بل والاستخلافِ والتمكينِ والسيادةِ والرِّيَادَةِ.

نسأل اللهَ تعالى أن يجعلَنا من المتوكِّلين عليه حقَّ التوكُّلِ، وأن يجعلَنـا مـن المأمونين، وأن يجعلَنا من الْمُتفائلين والعاملين لأجل مستقبلٍ زاهـرٍ للإسـلام والمسلمين. اللهمَّ آتِ نفوسَنا تَقْوَاها، وزَكِّهَا أنت خيرُ مَنْ زَكَّاهَا، أنت وَلِيُّهَا ومَوْلاَهَا يا ربَّ العالمين. ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَـا عَذَابَ النَّارِ﴾[البقرة:201]. والحمدُ لله الذي بنعمتِه تَتِمُّ الصالحاتُ.

---

[1] – قلت: "بُعَيْدَ" بالتَّصغير؛ لأنَّ المجتمعَ المدنيَّ عاشَ أشهرًا بعد الهجرةِ النبويةِ صعبةً، حـتى إنَّ الواحدَ من الصحابة ﵃ كان لا ينامُ إلاَّ في السلاح ولا يُصْبِحُ إلاَّ فيه؛ خوفًا من إغارة مشركي مكةَ الذين ظهرتْ منهم الاسـتفزازاتُ والتهديـداتُ والاتـصالاتُ بالمنـافقين المتواجدين بالمدينةِ، إلى أنْ جاء يومُ الفرقانِ يومَ الْتَقَى الجمعانِ في غزوة بدرٍ في رمضان من السنة الثانية من الهجرة.

الخطبة السابعة عشرة

من إيحاءات ذكرى عاشوراء

نَمُرُّ في هذه الأيامِ الأُولى من شهرِ اللهِ المحرَّمِ بيومٍ فاضلٍ، فيه من الذكرياتِ ما فيه، إنه يومُ عاشوراءَ الذي يُوَافِقُ العاشرَ من هذا الشهرِ. والمتأمِّلُ فيما وَقَعَ فيه من أحداثٍ، وما شُرِعَ له من الأحكامِ، سوف يستنتجُ فوائدَ عديدةً، ويَسْتَوْحِي مَعَانِيَ جليلةً. فمنْ بين هذه الفوائدِ والإيحاءاتِ ما يأتي ذِكْرُهُ:

1- الظلمُ له نهايةٌ، وعاقبةُ الظالمين وخيمةٌ في الدنيا قبلَ الآخرةِ، سواء كان الظلمُ سياسيًّا أو اقتصاديًّا أو اجتماعيًّا: فمَنْ ظَلَمَ واعتدى، أو طَغَى وتجبَّر، يُنْتَظَرُ له المآلُ السيئُ في الدنيا، والانتقامُ الإلهيُّ العاجلُ؛ شفاءً لغيظِ المظلومين، وجَعْلاً له عبرةً لغيره. وهذه الحقيقةُ ملحوظةٌ من خلال الواقعةِ الأمِّ التي لأجلها خُلِّدَتْ ذكرى عاشوراءَ، وهي هلاكُ فرعونَ وجنودِه بالإغراقِ، بعد طولِ اضطهادٍ لبني إسرائيلَ، ونجاةُ موسى عليه السلام ومَنْ معه منهم. قال ابنُ عباسٍ رضي الله عنه: "لما قَدِمَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم المدينةَ وَجَدَ اليهودَ يصومون عاشوراءَ، فسُئِلُوا عن ذلك، فقالوا: "هذا اليومُ الذي أَظْهَرَ اللهُ فيه موسى على فرعونَ، ونحنُ نصومُه تعظيماً له". فقال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: ﴿نحنُ أَوْلى بموسى منكُم﴾، وأَمَرَ بصيامه"[رواه أبو داود]. ويقول اللهُ تبارك وتعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى فَكَذَّبَ وَعَصَى ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى فَحَشَرَ فَنَادَى فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً

لِّمَن يَخْشَى﴾[النازعات:15-26]. وعلى هذا، فكلُّ مَنْ سَوَّلَتْ له نفسُه ظُلْمَ الآخَرِينَ، ومَرَّ بذكرى عاشوراءَ، عليه أن يقولَ لها: "كُفِّي يا أَيَّتُهَا النفسُ عن الاعتداء، وإلا كانت عاقبتُك كعاقبةِ فرعونَ وأمثاله من الظَّلَمَة".

2- الشكرُ الحقيقيُّ لله تعالى على نِعَمِه لا يكونُ بالقولِ فقط، بل لاَ بُدَّ من التعبيرِ عنه بالفعلِ أيضًا: فالذي يَمُنُّ اللهُ تعالى عليه بنعمة معيَّنَة -وما أكثرَ نعمَه جلَّ وعلاَ علينا-، عليه أن يَسْتَشْعِرَ قلبيًّا أنَّ هذه النعمةَ مَسُوقَةٌ من الله تعالى إليه، ثم يَحْمَدُهُ تعالى عليها لفظيًّا، ويُسَخِّرُهَا هي وسائرَ نِعَمِ اللهِ عليه فيما يُرْضِيهِ عنه سبحانه. وهذا المعنى مُقْتَبَسٌ من صنيعِ النبيِّ ﷺ، فإنه كان يصومُ يومَ عاشوراءَ -وهو فِعْلٌ-؛ تعبيرًا عن شكره لله تعالى على أن نَجَّى موسى عليه السلام من فرعونَ -وهذه نعمةٌ جليلةٌ؛ إذ إنَّ المسلمَ يَعْتَبِرُ انتصارَ إخوانه في العقيدة على أعدائهم نعمةً عظيمةً-، فهو صلواتُ اللهِ عليه وسلامُه لم يَكْتَفِ في شكره بِمُجَرَّدِ استشعارِ النعمةِ قلبيًّا، والتعبيرِ عنه لفظيًّا، بل صامَ اليومَ المبارَكَ، وأَمَرَ صحابتَه الكرامَ بصيامه، ورَغَّبَ فيه. سُئِلَ ابنُ عباسٍ رضي الله عنه عن صيام يومِ عاشوراءَ فقال: "ما علمتُ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ صامَ يومًا يطلبُ فضلَه على الأيام إلا هذا اليوم، ولا شهرًا إلا هذا الشهر -يعني: رمضان-"[رواه مسلم]. وعن أبي قَتَادَةَ رضي الله عنه أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ عن صيام يومِ عاشوراءَ فقال: ﴿يُكَفِّرُ السنةَ الماضيةَ[1]﴾[رواه مسلم]. وهذا المعنى المتكاملُ للشكرِ كان حاضرًا في سائر حياتِه ﷺ، ومِمَّا يُؤَكِّدُ ذلك حديثُ عائشةَ رضي الله عنها أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ

---

[1]- هذا فِيمَنْ صامَ يومَ عاشوراءَ وله سيئاتٌ يحتاج إلى ما يُكَفِّرُهَا. فإنْ صامَهُ وقد كُفِّرَتْ سيئاتُه بغيره، كأنْ يكونَ قد صامَ يومَ عرفة الذي يُكَفِّرُ اللهُ به ذنوبَ سنتيْن: ماضيةٍ ولاحقةٍ، انقلبَ التكفيرُ إلى زيادةٍ في الحسنات؛ ذلك أنَّ اللهَ لا يُضيع أجرَ المحسنين.

كان يقومُ من الليل حتىَّ تَتَفَطَّرَ قَدَمَاهُ، فقالت له: "لِمَ تصنعُ هذا، وقد غُفِرَ لك ما تَقَدَّمَ من ذنبك وما تأخَّرَ؟". فقال: ﴿أفلاَ أحبُّ أنْ أكونَ عبدًا شكورًا﴾[رواه الشيخان].

3- مخالفةُ اليهودِ والنصارى مطلوبةٌ شرعًا؛ على اعتبارِ أنَّ المسلمين لهم كَيَانُهُمُ الخاص: فالشخصيةُ المسلمةُ مستقلةٌ عن غيرها، تَتَأَطَّرُ بتعاليم كتاب ربِّها ﷻ وسنةِ نبيِّها ﷺ، وأبعدُ ما تكونُ عن الْأَخْذِ أو التأثُّرِ باليهود والنصارى؛ لِمَا حَدَثَ في شريعتيْهم من التحريف. ولذا حَذَّرَ النبيُّ ﷺ من التقليد الأعمى لهما، لَمَّا تَنَبَّأَ بأنَّ الأمةَ سيأتي عليها زمانٌ يَضْعُفُ فيه دينُها، وتَضْمَحِلُّ فيه شخصيَّتُها، فيُصبح أفرادُها مُولَعِينَ بالأخذِ عنهما، دون تَمْييزٍ بين النافعِ المفيدِ الذي يجوزُ أنْ يُؤْخَذَ به، والضَّارِّ الْمُهْلِكِ الذي يَجبُ أنْ يُطْرَحَ. قال النبيُّ ﷺ: ﴿لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كان قبلكم شبرًا بشبرٍ، وذراعًا بذراعٍ، حتى لو سلكوا جُحْرَ ضَبٍّ[1] لسلكتمُوه. قال الصحابةُ ﷺ: "يا رسولَ اللهِ اليهودَ والنصارى؟" قال: فمَنْ﴾[رواه البخاري]. والمتأمِّلُ فيما شَرَعَهُ النبيُّ ﷺ من صومٍ فيما يتعلَّقُ بعاشوراء، حيث لم يَكْتفِ بصيام يومِها وحدَه -كما كانت تفعلُ اليهودُ-، بل عَزَمَ في السَّنَةِ التي قُبِضَ فيها على أن يصومَ معه يومَ تَاسُوعَاءَ؛ إيغَالاً[2] في مخالفتِهم، سيُدْرِكُ المتأملُ أنه صلواتُ اللهِ عليه وسلامُه كان يريد من خلال ذلك التشريعِ أنْ يُرَسِّخَ فكرةَ استقلاليةِ الشخصيةِ المسلمةِ، وعدمِ ذَوَبَانِهَا في غيرِها من الشخصيات الكافرةِ التي لا يأتي منها -في الغالب- إلا الشَّرُّ. قال ابنُ عباسٍ رضي الله عنه: "حين صامَ رسولُ اللهِ ﷺ يومَ عاشوراءَ، وأَمَرَ بصيامه، قالوا: "يا

---

[1]- جُحْرُ الضَّبِّ معروفٌ بكثرةِ التواءاته وظلمتِهِ ورائحتِهِ الكريهةِ.

[2]- الْإِيغَالُ من الفعل أَوْغَلَ، بمعنى: تَعَمَّقَ.

رسولَ اللهِ إنه يومٌ يُعَظِّمُهُ اليهودُ والنَّصارى". فقال رسولُ اللهِ ﷺ: ﴿لَئِنْ بَقِيتُ إلى قَابِلٍ لَأَصُومَنَّ التاسعَ﴾"[رواه مسلم].

4- ليس مِنَ الشرعِ في شيءٍ أن يُحْيِيَ المسلمُ مَآسٍ وقعتْ وانقضتْ؛ لِمَا فيها مِنْ مَحَاذِيرَ وآثارٍ سيئةٍ على الفردِ والأمة: ذلك أنَّ المسلمين من الشيعة يَرْبِطُونَ ذكرى عاشوراءَ بِمَقْتَلِ الحسينِ بنِ عليٍّ بنِ أبي طالبٍ رضي الله عنهما[1]، وهو لا شكَّ من المآسي الكبيرةِ التي حدثتْ للمسلمين في تاريخِ سلفِهم، رغمَ ما في ذلك التاريخِ من بطولاتٍ وفتوحاتٍ كثيرةٍ باهرةٍ. ومِمَّا زَادَ المأساةَ شــناعةً أنَّ القتلَ كان بأَيَادٍ مسلمةٍ. وهذا الربطُ الذهنيُّ الموجودُ عند الشيعةِ، تَمْتَزِجُ بــه طقوسٌ فيها شَقٌّ للجُيُوبِ ولَطْمٌ للصدورِ والْخُدُودِ، وإراقةٌ لــدماءِ الــصغارِ والكبارِ منهم؛ تَحَسُّرًا على تلك الفاجعةِ. وهذا الصنيعُ مُخَالِفٌ للشرعِ من عِدَّةِ نَوَاحٍ منها:

- إنَّ في تلك الطقوسِ وما يُصَاحِبُهُمَا من رِثَاءٍ مُبَالَغٍ فيه تَسَخُّطًا وعدمَ رِضَى بما قَدَّرَهُ اللهُ ﷻ. ومعلومٌ أنَّ الإيمانَ والتسليمَ للقضاءِ والقدرِ من الأركانِ الستةِ التي لا تَصِحُّ العقيدةُ الإسلاميةُ إلا بها. يقول النبيُّ ﷺ في حديثِ جبريلَ الطويلِ لَمَّا سألُه عن حقيقةِ الإيمانِ: ﴿أَنْ تؤمنَ باللهِ وملائكتِه وكتبِه ورسلِه واليــومِ الآخرِ، وتؤمنَ بالقدرِ خيرِه وشرِّه﴾[رواه مسلم].

- إنَّ ذِكْرَى مَقْتَلِ الحسينِ رضي الله عنه سيدِ شبابِ أهلِ الجنة، وسِبْطِ رســولِ اللهِ ﷺ وريحانتِه، رغمَ ما فيه من الأسى، إلا أنه ليس أعظمَ من حدثِ مَقْتَلِ والدِه عليٍّ

---

[1]- مَقْتَلُ الحسيْن رضي الله عنه كان في يوم عاشوراءَ (العاشر من محرم) سنة 61هـــ، بمكانٍ يُسَمَّى كَرْبَلاَء من أرض العراق بناحية الكُوفة.

ﷺ، ووفاةِ النبيِّ ذاتِه صلواتُ اللهِ عليه وسلامُه. فلِمَ تُقَامُ المآتمُ لِمَقْتَلِ الحسيْنِ، ولا تُقَامُ لمقتلِ والدِه، أو وفاةِ جدِّه ﷺ؟!

– إنَّ في تلك الطقوسِ تَجْسِيدًا لِمَا حَذَّرَ منه النبيُّ ﷺ مِمَّا يُمْكِنُ أن يَقَعَ في المآتمِ. فعنِ ابنِ مسعودٍ ﵁ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: ﴿ليسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الخدودَ، وشَقَّ الجيوبَ، ودَعَا بدعوى الجاهليةِ﴾[رواه الشيخان].

– إن تلك الطقوسَ عندما يُشَاهِدُهَا غيرُ المسلمِ يَتَقَزَّزُ منها؛ لِمَا فيها من إحداثٍ للضررِ بالأجسادِ، الأمرُ الذي يُنَفِّرُهُ من دينِ اللهِ تعالى. نقولُ هذا؛ لأَنَّنَا في زمنِ الفضائياتِ والأنترنيتِ وتطورِ وسائلِ الاتصالِ، فمِنَ السهولةِ بمكانٍ أنْ تُذَاعَ وتُنْشَرَ تلك المشاهدَ –كما هو حادثٌ الآنَ فعلاً– على مَرْأَى مِنَ الْعَالَمِ أجمعَ ومَسْمَعٍ منه.

– ما في إقامةِ تلك المآتمِ من إضاعةٍ للجهودِ والأموالِ والأوقاتِ، خاصةً وأنها تُقَامُ سنويًّا، ولعدةِ أيامٍ، وتتكرَّرَ في الأربعينيَّةِ[1]، وتُسَافِرُ أعدادٌ مُعْتَبَرَةٌ من مَوَاطِنِهَا المختلفة –البعيدةِ أحيانًا– لشُهُودِ تلك الطقوسِ الْمُقَامَةِ في كَرْبَلاَءَ.

– تلك المآتمُ وما يُقَالُ فيها من حقائقَ ومُبَالَغَاتٍ وروايات مَشْكُوكٍ في صحتِها، يُعَدُّ مِمَّا يَزِيدُ في زرعِ الأحقادِ، وتوسيعِ الْهُوَّةِ بين الشيعةِ والسنةِ، وتَأْجِيجِ العداوةِ بينهما، الأمرُ الذي يُسَاهِمُ في إضعافِ المسلمين وتشتيتِ كيانِهم، ويَجْعَلُ عدوَّهم يَطمعُ فيهم.

لذا فإنَّ الأصلَ في المسلمِ أنْ يَلتزمَ الهديَ النبويَّ في أمرِ عاشوراءَ، فيستحضرُ ذكرى انتصارِ نبيِّ اللهِ موسى ﵇ على فرعونَ اللَّعِينِ، ويصومُ يومَها واليومَ

[1]– الأربعينيةُ تُقَامُ بعد أربعين يومًا من يومِ عاشوراءَ.

الذي قبلَـــها، ولْيَعْلَـــمْ بأنه لم يَصِحَّ عن الـــنبيِّ ﷺ في عاشـــوراءَ إلا فـــضلُ صيامِه[1]. وينبغي أنْ لا يَرْبطَ هذا الحدثَ بذكرى مَقْتَلِ الحـــسيْنِ رضي الله عنه، لـــيس اسْتِبْسَاطًا لذلك الحدثِ الْجَلَلِ، وإنَّما للمحاذيرِ والآثارِ السلبيةِ التي تترتَّبُ على ذلك الرَّبْطُ مِمَّا ذُكِرَ آنفًا. وإذا حَدَثَ وأنْ مَرَّ في دراسةٍ تاريخيـــةٍ فرديـــةٍ أو جماعيةٍ بهذه الذكرى الأليمةِ، فلْيَتَرَحَّمْ ولْيَتَرَضَّ عن الحسيْنِ ومَنْ ماتَ معه من آلِ بيتِ النبيِّ ﷺ ومن رفقائه، ولْيُفَوِّضْ أَمْرَ قاتليه إلى الجبَّارِ الْمُنْتَقِمِ جلّ جلاله ليَقْتَصَّ منهم يومَ الفصلِ، ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّـــا مَـــنْ أَتَـــى اللَّـــهَ بِقَلْـــبٍ سَلِيمٍ﴾[الشعراء:88-89]؛ إذ إنَّ النُّوَاحَ والنَّحِيبَ والْعَوِيلَ لا يُقَدِّمُ ولا يُؤَخِّرُ في أَمْرِ قاتليهِ وهُمُ الآنَ عند المليكِ المقتدرِ.

نسألُ اللهَ جلَّ وعلاَ أن ينتقمَ للمظلومين من الظالمين، وأن يجعلَنا من عبـــاده الشاكرين، وأن يجعلَنا من الْمُعْتَزِّينَ بكيانِهم الإســـلامي، المخـــالفين لليهـــود والنصارى، الْمُتَّبِعِينَ لهديِ النبيِّ ﷺ، وأن يجعلَنا من الرَّاضين بقضائه وقدرِه، وأن يجمعَ شَمْلَ المسلمين، ويُوَحِّدَ صفوفَهم، ويُؤَلِّفَ بين قلـــوبِهم، ويُـــصْلِحَ ذاتَ بينِهم، ويجعلَهم قوةً واحدةً على أعدائِهم. وصَلِّ اللَّهُمَّ وسَلِّمْ على محمدٍ وآلِـــه وصحبِه ومَنْ تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدينِ. سبحانك اللهمَّ وبحمدِك، أشهدُ أنْ لا إلهَ إلا أنتَ، أستغفرُك وأتوبُ إليك. وآخِرُ دعوانا أنِ الحمدُ لله ربِّ العالمين.

---

[1]- نقول هذا؛ لأنَّ بعضَ المسلمين من السنةِ يفعلُ عكسَ ما تفعلُه الشيعةُ، فيعتبِرُ عاشوراءَ عيدًا، فيأتِي بطقوسِ الأفراحِ، مُستشهِدًا في ذلك بأحاديثَ لم تَثْبُتْ عن النبيِّ ﷺ. فمنْ تلك الأحاديثِ غيرِ الثابتةِ: "مَنِ اكتحلَ بالْإِثْمِدِ يومَ عاشوراءَ لم يَرْمَدْ أبدًا". و"مَنْ وَسَّعَ علـــى عيالِه في يومِ عاشوراءَ، وَسَّعَ اللهُ عليه في سَنَتِه كلِّها".

الخطبة الثامنة عشرة

بعضٌ مِنْ مجالاتِ القدوةِ في شخصِ نبيِّنَا ﷺ[1]

تَحِلُّ علينا هذه الأيامُ ذِكْرَى مولدِ خيرِ الْبَرِيَّةِ محمدٍ ﷺ، التي تُوَافِقُ الثـــانيَ عشرَ من شهرِ ربيعٍ الأولِ الأنورِ على المشهور من كتابات أهلِ السِّيَرِ. وحـــتى يكون احتفالُنَا بهذه الذكرى عمليًّا ومُثْمِرًا ومشروعًا، بعيدًا عن الطقوس والبدعِ والخرافاتِ، أردتُ أن أعرضَ بين يديْ إخواني في الله تعالى بعضًا من مجـــالات القدوةِ في شخصه ﷺ، لا سيَّمَا وأنَّ اللهَ تعالى قال لنا عنه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَـــوْمَ الْـــآخِرَ وَذَكَـــرَ اللَّـــهَ كَثِيراً﴾[الأحزاب: 21].

ففي مجالِ الدعوةِ إلى الله تعالى، يُذْكَرُ صبرُهُ واحتسابُهُ وتحمُّلُهُ وثباتُـــهُ ﷺ؛ ذلك أنه دَعَا إلى الله تعالى ثلاثًا وعشرين سنةً، وَجَدَ فيها ما وَجَدَ مـــن الأذى الماديِّ والمعنويِّ، خاصةً ما كان منه في الفترة المكيَّة؛ فقد خُنِقَ ﷺ، ورُمِيَـــتْ على ظهره الشريفِ القاذوراتُ وهو ساجدٌ، ونُعِتَ بالكذب والشعرِ والجنونِ والسحرِ والكهانةِ، وهو مِنْ هذه النعوتِ بريءٌ صلواتُ اللهِ عليـــه وســـلامُهُ، وضُرِبَ في الطائف بالحجارة حتى أُدْمِيَتْ قَدَمَاهُ الشريفتان، ثم أَلْجَأَهُ قومُـــهُ إلى

[1] – هذا الموضوعُ يُثِيرُهُ الأخُ الخطيبُ في ذِكْرَى مولدِ النبيِّ ﷺ؛ ذلك أنَّ النـــاسَ حينـــها يَتَشَوَّفُونَ لكل ما له علاقةٌ به صلواتُ اللهِ عليه وسلامُهُ، فإذا ما سَمِعُوا شيئًا من خـــصاله وأخلاقِهِ وهم في تلك الحالةِ، كان ذلك أَدْعَى لاستيعاب الموضوعِ، ومِنْ ثَمَّةَ الاقتداء بـــه عليه الصلاةُ والسلامُ.

الهجرة حتى مات غريبًا ﷺ عن بلدِه مكةَ التي هي مسقطُ رأسِه، وأحبُّ بلادِ اللهِ إلى قلبه. ولَمَّا هاجرَ إلى المدينة تَحَمَّلَ أعباءَ الغزواتِ، واستفزازاتِ المشركين، وكيدَ اليهودِ، وشَرَّ المنافقين الذين مَسُّوهُ في عرضِه الناصعِ عليه الصلاة والسلام. ولكنَّ اللهَ ﷻ لَمَّا رأى منه صبرًا واحتسابًا وتَحَمُّلاً وثباتًا أَظْهَرَهُ على أعدائه، فطُرِدَ اليهودُ وقُتِلُوا، وانكشفَ أمرُ المنافقين وفُضِحُوا، وأقرَّ عينَهُ بفتح مكةَ، وباستجابةِ ومبايعةِ سائرِ القبائلِ العربيةِ، حتى إنه ﷺ رأى بأمِّ عينيْهِ ثمرةَ دعوتِهِ في حجة الوداعِ، عندما جَمَعَ اللهُ تعالى له فيها ما يَزيدُ عن مائةِ ألف من صحابته ﷺ. ولذا كان مِنْ آخرِ ما نَزَلَ عليه صلواتُ اللهِ عليه وسلامُهُ قولُهُ تعالى: ﴿إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾[النصر:01-03].

وهكذا ينبغي أن يكونَ الداعيةُ إلى الله تعالى في كلِّ مكانٍ وفي كلِّ زمانٍ، صابرًا على كلِّ ما يَجِدُهُ في طريق الدعوةِ الذي قد يكون مفروشًا بالأشواك، محتسبًا مدخرًا الأجرَ عنده سبحانه وتعالى، متحملاً سائرَ الصعابِ، ثابتًا على نهجِه حتى يَلْقَى ربَّهُ ﷻ.

وفي مجال العبادةِ، فإنَّ النبيَّ ﷺ الذي أنزلَ عليه ربُّهُ قولَهُ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾[الذاريات:56-58]، كان يَفْقَهُ هذا القولَ جيدًا، لذا فقد سَخَّرَ حياتَهُ كلَّهَا لعبادة اللهِ تعالى، فلَمْ يكن ﷺ يَتَّكِلُ على كَوْنِه نبيًّا مُرْسَلاً، أو أنَّ اللهَ تعالى قد غَفَرَ له ما تقدمَ من ذنبه وما تأخرَ، بل كان يجتهد في العبادة أَيَّمَا اجتهادٍ، ويَعُدُّ ذلك من قبيلِ شكرِ اللهِ تعالى على نِعَمِه الكثيرةِ عليه، حتى إنَّ أُمَّنَا عائشةَ رضي الله عنها استغربتْ من ذلك عندما حَدَّثَتْ عنه

بأنَّه كان يقومُ من الليل حتىَّ تَتَفطَّرَ قَدَمَاهُ، فقالت له: "لِمَ تصنعُ هذا، وقد غُفِرَ لك ما تَقَدَّمَ من ذنبك وما تأخَّرَ؟!". فقال: ﴿أفلاَ أحبُّ أنْ أكونَ عبدًا شكورًا﴾[رواه البخاري ومسلم]. بَلْ إنه ﷺ لم يكن كذاك الشخصِ الذي يقومُ بالعبادة طقوسًا وشعائرَ بعيدةً عن الخشوع وحضورِ القلبِ، ولكنَّهُ كان عند تَقَرُّبِهِ إلى اللهِ ﷻ بالعبادة يتفاعلُ ويتأثَّرُ قلبُهُ وتتجاوبُ جوارحُهُ صلواتُ اللهِ عليه وسلامُهُ. ومِنَ الأدلةِ على ذلك حديثُ عبد اللهِ بنِ مسعود ﷺ، لَمَّا قال له رسولُ اللهِ ﷺ: ﴿اقْرَأْ عليَّ القرآنَ﴾. فقال: "أَقْرَأُ عليك، وعليك أُنْزِلَ؟!" فقال: ﴿إني أُحبُّ أنْ أسمَعَهُ مِنْ غيري﴾. قال: "فقرأتُ عليه مِنْ أَوَّلِ سورةِ النساءِ، حتى جئتُ إلى قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا من كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً﴾[النساء:41]، قال: ﴿حَسْبُكَ الآنَ﴾. فالتفتُّ إليه، فإذا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ"[رواه أبو داود والترمذي].

وهذا هو شأنُ المسلمِ الصادقِ الذي يرجُو اللهَ واليومَ الآخرَ، فإنه يتقرَّبُ إليه سبحانه وتعالى بشَتَّى صنوفِ العبادةِ؛ قيامًا بشيءٍ مِنْ حقِّهِ جلَّ وعلاَ، وشكرًا له على نِعَمِهِ التي أَسْبَغَهَا عليه ظاهرةً وباطنةً، على أن يكون خاشعًا عند أدائِها، حاضرًا قلبُهُ، ساكنةً أعضاؤُهُ؛ اقتداءً بالنبيِّ ﷺ.

وفي مجال القيادةِ، أعطى ﷺ النموذجَ الرائعَ في حُسْنِ التعاملِ مع رعيتِهِ، وإشراكِهِمْ في تدبير شؤونِ البلادِ والعبادِ، وعدمِ الاستبدادِ والانفرادِ بالسياسة والتسييرِ. ومِمَّا يُؤْثَرُ عنه في هذا المجالِ صنيعُهُ في غزوة بدرٍ الكبرى سنة 2هـ، لَمَّا تحرَّكَ ﷺ بجيشه لِيَسْبِقَ المشركين إلى ماء بدرٍ، ويَحُولَ بينهم وبين الاستيلاءِ عليه، فنزلَ عشاءً أدنى ماءٍ من مياه بدرٍ. وهنا قام الْحُبَابُ بنُ المنذرِ ﷺ كخبيرٍ عسكريٍّ وقال: "يا رسولَ اللهِ، أرأيتَ هذا المنزلَ، أَمَنْزِلًا أَنْزَلَكَهُ اللهُ، ليس لنا أنْ

نتقدَّمَهُ ولا نتأخَّرَ عنه؟ أم هو الرأيُ والحربُ والمكيدةُ؟" فقال له: ﴿بــلْ هــو الرأيُ والحربُ والمكيدةُ﴾. قال: "يا رسولَ الله، إنَّ هذا ليس بمنزلٍ، فــانْهَضْ بالناس حتى نأتِيَ أدنى ماءٍ من القوم -أي: قريش- فَنَنْزِلَهُ ونُغَوِّرَ -أي: نُخَرِّب- ما وراءَهُ من الْقُلُبِ -أي: الآبار القديمة-. ثم نَبْنِي عليه حوضًا، فنملأُهُ ماءً، ثم نُقَاتِلُ القومَ، فنشربُ ولا يشربون". فقال رســولُ الله ﷺ: ﴿لقــد أَشَــرْتَ بالرأي﴾. فنهض رسولُ الله ﷺ بالجيش حتى أَتَى أقربَ ماءٍ من العدو، فــنزلَ عليه شطرَ الليلِ، ثم صنعوا الحياضَ وغَوَّرُوا ما عَدَاهَا من الْقُلُبِ. وكان الْأَخْذُ بهذا الرأيِ الصائبِ الذي أشارَ به أحدُ الجنودِ سببًا من أسباب الانتصارِ البــاهرِ في هذه الغزوةِ المباركةِ. ومِثْلُ ذلك ما كان منه ﷺ في غزوةِ الخندقِ سنة 5هــ، حين بَلَغَهُ نبأُ تجمُّعِ الأحزابِ وانطلاقِهَا نَحْوَ المدينةِ، حيث سارعَ إلى عقدِ مجلسٍ استشاريٍّ، تناولَ فيه موضوعَ خطةِ الدفاعِ عن كيانِ المدينةِ. وبعد مناقــشاتٍ جَرَتْ بين القادةِ وأهلِ الشورى، اتفقوا على قرارٍ أشارَ به ســلمانُ الفارســيُّ رضي الله عنه، عندما قال: "يا رسولَ الله، إنَّا كُنَّا بأرض فارسٍ إذا حُوصِــرْنَا، خَنْــدَقْنَا علينا". وكانت خطةً حكيمةً لم تكن تعرفُهَا العربُ قبلَ ذلك، فأسرعَ رسولُ الله ﷺ إلى تنفيذها، وكانت سببًا رئيسًا في هزيمة جيشِ الأحزابِ بعد التأييــدِ الإلهيِّ للمسلمين.

فهنا رسولُ الله ﷺ يُؤَصِّلُ لطبيعة العلاقةِ التي ينبغي أن تكونَ بين الحــاكم والرعيةِ، بين القائدِ والجنودِ، هذه العلاقةُ ينبغي أن تُؤَسَّسَ على الشورى الــتي من خلالها تَتَلاقَحُ الأفكارُ، وتَتَفَتَّقُ المواهبُ، وتُنَاقَشُ المواضيعُ من زوايا مختلفة، الأمرُ الذي يجعل القراراتِ التي تُتَّخَذُ بعد ذلك صائبةً سديدةً. فإذا كان الرسولُ ﷺ الْمُؤَيَّدُ بالوحي يقول له ربُّهُ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾[آل عمران:159]،

فما بَالُكَ بِمَنْ هو دُونَهُ مِمَّنْ لا يُوحَى إليه، فهو مُطَالَبٌ بفتحِ بابِ الشورى من باب أَوْلَى.

وفي مجال الزوجيَّة، نَجِدُهُ ﷺ جَسَّدَ قولَه: ﴿خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي﴾[رواه الترمذي] أحسنَ تجسيدٍ. ومنَ الأدلة على ذلك؛ أنه كان يَستشيرُ أمهاتِ المؤمنين رضي اللهُ عنهنَّ -وهو الْمُؤَيَّدُ بالوحي، والرجلُ الْقَوَّامُ على زوجاته-، ويأخذُ برأيِهِنَّ إذا كان فيه سدادٌ ووَجَاهَةٌ. ومِنْ نماذجِ استشارتِهِ لهنَّ ما كان منه مع أمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها في صُلْحِ الْحُدَيْبِيَّةِ سنة 6هـ؛ ذلك أنه ﷺ لَمَّا فَرَغَ من قضيةِ الكتابِ، وإبرامِ عقدِ الصلحِ مع مشركي مكةَ، أَمَرَ أصحابَهُ بالقيام للنَّحْرِ والْحَلْقِ؛ لِيَتَحَلَّلُوا مِنْ إحرامهم. فما قام منهم أحدٌ، حتى قال ذلك ثلاثَ مراتٍ. فلمَّا لم يَقُمْ منهم أحدٌ، قام فدخل على أمِّ سَلَمَةَ التي كانت مرافقةً له في هذا السفرِ، فذَكَرَ لها ما لَقِيَ من الناس، فقالت مشيرةً عليه: "يا رسولَ اللهِ، أَتُحِبُّ ذلك؟ اخرُجْ، ثم لا تُكَلِّمْ أحداً كلمةً، حتى تَنْحَرَ بُدْنَكَ، وتَدْعُو حالقَكَ فيَحْلِقَكَ. فقام مسترشدًا برأيها الوجيهِ، فخرج فلم يُكَلِّمْ أحداً منهم، فنَحَرَ بُدْنَهُ، ودَعَا حالقَهُ فحلَقَهُ. فلما رأى الناسُ ذلك منه عَلِمُوا أنَّ الأمرَ جِدٌّ، فقاموا فنَحَرُوا، وجعل بعضُهم يَحْلِقُ بعضاً، حتى كاد بعضُهم يقتلُ بعضاً غماً؛ لأنهم كانوا يَوَدُّونَ دخولَ مكةَ، وأداءَ العمرةِ في خروجِهم ذلك. بينما النبيُّ ﷺ أراد حَقْنَ الدماءِ، وتأجيلَ العمرةِ إلى السنةِ اللاَّحِقَةِ، وهو ما حصلَ فعلاً، وكان هو الخيرُ بالنسبة للإسلام والمسلمين آنذاك.

وعلى هذا، فإنَّ المسلمَ المقتديَ برسولِ اللهِ ﷺ، والْمُؤْتَمِرَ بأمر ربِّهِ تعالى القائلِ في كتابه العزيزِ: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾[الشورى:38]، هو ذاك

الذي يفتحُ بابَ الشورى لشريكِ حياته؛ لمناقشة سائرِ المسائلِ عمومًا، والقضايا التي تتعلَّقُ بالأسرة على وجه الخصوصِ، ولا يَسْتَبِدَّنَّ برأيه، ولا يُسفِّهَنَّ رأيَ زوجِه، فلَرُبَّمَا أشارَ عليه الطَّرَفُ الآخَرُ بفكرةٍ لم يَنْتَبِهْ هو إليها، ويكون الصلاحُ فيها، فلْيَتَلَقَّفْهَا، ولْيَأْخُذْ بها، ولا تَأْخُذَنَّهُ العزةُ بالنفسِ، فتُعْمِيهِ عن الصوابِ؛ فإنَّ الحكمةَ ضَالَّةُ المسلمِ، أَيْنَمَا وَجَدَهَا فهو أَوْلَى بها.

وفي مجال الْأُبُوَّةِ، ضربَ النبيُّ ﷺ المثلَ الأعلى في العاطفةِ الْجَيَّاشَةِ والرحمةِ بأولاده وأحفاده. وممَّا يدلُّ على هذا ما رواه أبو داودَ مِنْ أنه ﷺ كان يصلي وهو حاملٌ أُمَامَةَ بنتَ زينبَ بنتِ رسولِ الله ﷺ، فإذا سَجَدَ وَضَعَهَا، وإذا قام حَمَلَهَا. ولَمَّا احْتُضِرَ ابنُهُ إبراهيمُ، أَخَذَهُ فقَبَّلَهُ وشَمَّهُ، ودخلَ عليه بعضٌ من أصحابه وإبراهيم يَجُودُ بنفسه، فجعلتْ عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ، فقال له عبدُ الرحمنِ بنُ عَوْفٍ رضي الله عنه: "وأنتَ يا رسولَ الله؟" فقال: ﴿يا ابْنَ عَوْفٍ إنها رحمةٌ﴾، ثمَّ أَتْبَعَهَا بأخرى وقالَ: ﴿إنَّ العينَ تَدْمَعُ، والقلبَ يَحْزَنُ، ولا نقولُ إلا ما يُرْضِي ربَّنَا، وإنَّا بفراقِكَ يا إبراهيمُ لَمَحْزُونُونَ﴾[رواه الشيخان]. وثَبَتَ أنَّهُ ﷺ قَبَّلَ الحسنَ أو الحسينَ سِبْطَيْهِ وريحانتيْهِ، وعنده الأقرعُ بنُ حابسٍ التميميُّ رضي الله عنه، فقال الأقرعُ: "إنَّ لي عشرةً من الولد ما قَبَّلْتُ منهم أحدًا قَطْ". فنَظَرَ إليه رسولُ اللهِ ﷺ، ثم قال: ﴿مَنْ لاَ يَرْحَمُ، لاَ يُرْحَمُ﴾[رواه الشيخان].

ولذا ينبغي على المسلمِ وهو يَطَّلِعُ على سيرة المصطفى ﷺ، أنْ يعرفَ بأنَّ أولادَهُ وأحفادَهُ، بل وسائرَ الصغارِ، يحتاجون إلى جُرْعَاتٍ مِنَ الرحمةِ والحنانِ والاهتمامِ؛ حتى يكونَ نُمُوُّهُمُ النفسيُّ طبيعيًّا، وإذا كَبُرُوا بَادَلُوا آباءَهم وأجدادَهم بذلك برًّا وإحسانًا. بينما إذا كان هناك جفاءٌ أو قساوةٌ على الصغار، فإنَّ ذلك يَجعلُهم يَضْطَرِبُونَ نفسيًّا، ويَحْمِلُونَ صورةً قَاتِمَةً أو حِقْدًا

على الذي جَافَاهُمْ أو قَسَا عنهم، الأمرُ الذي يَجعلهم في حالِ الْكِبَرِ يُبادلونـه جفاءً بجفاءٍ، وقساوةً بقساوةٍ.

هذه بعضٌ من مجالاتِ القدوةِ في شخص النبيِّ ﷺ، وبإمكانِ كلِّ واحدٍ من المسلمين أن يَجِدَ فيه الأسوةَ الحسنةَ في أيِّ مجالٍ من مجالات الحياةِ المختلفة، وفي أيِّ حالٍ من أحوالِهَا: التعليمِ، والإمامةِ، والتجارةِ وسائرِ المعـاملاتِ الماليـةِ، والْغِنَى أو الفقرِ، والتعاملِ مع الأقاربِ أو الأصهارِ أو الجيرانِ أو الأصـدقاءِ أو الأعداءِ، ونحوِ ذلك من المجالات والأحوالِ؛ وذلك إذا اطَّلَعَ الاطلاعَ الـواعيَ على سيرته العطرةِ. أقولُ هذا؛ لأنَّ بعضَهم ربما يكتفي بالقراءة العابرةِ لسيرتهِ، بحيث لا تستوقِفُهُ أحداثُها ووقائعها ليتأمَّلَ فيها، ويستخلصَ منـها الـدروسَ والْعِبَرَ والعظاتِ التي تُنيرُ عليه دربَ حياتِهِ، فمثْلُ هذا الشخصِ لنْ يستفيدَ كثيرًا من سيرته ﷺ. وهذا ما يجب أنْ نتناصحَ به ونحن نَمُرُّ بذكرى مولدِهِ صـلواتُ اللهِ عليه وسلامُهُ؛ ذلك أنَّه مِنْ غيرِ الْمُجْدِي أنْ تُحْيَى هذه الـذكرى بـتلاوةِ وسماعِ القصائدِ، أو إعدادِ وأكلِ العصائدِ، أو اقتناءِ وتفجيرِ المفرقعاتِ، أو شراءِ وإشعالِ الشموعِ، وأمثالِ هذه الأمورِ من الطقوس التي انتـشرتْ في العـالم الإسلاميِّ، مِمَّا لا يُجْدِي نفعًا، بل إنَّ مَنْ يفعلُهَا اعتقادًا منه أنها من الـدين، ويتقربُ بها إلى الله تعالى، يكون قد وقعَ في البدعة المحرمةِ شرعًا، وقد قال هو ﷺ: ﴿مَنْ أَحْدَثَ في أمرِنَا هذا ما ليس منه، فهو رَدٌّ﴾[رواه الشيخان].

أسألُ اللهَ تعالى أنْ يجعلَنَا من الذين يُعْنَوْنَ بسيرة نبيِّهم العنايةَ اللاَّزمـةَ، وأنْ يجعلَهُ ﷺ نبْرَاسًا لنا في الحياة، وأنْ يجمعَنَا به في الفردوسِ الأعلى مـع سـائرِ الأنبياءِ والصدِّيقين والشهداءِ والصالحين وحَسُنَ أولئك رفيقًا؛ إنه تعالى وَلِـيُّ ذلك والقادرُ عليه، والحمدُ لله ربِّ العالمين.

الخطبة التاسعة عشرة

عِبَرٌ وعِظاتٌ مِنْ معجزةِ الإسراءِ والمعراجِ

في ليلةِ السابعِ والعشرين من شهرِ رجبٍ من كلِّ عامٍ هجريٍّ يُحْيِي المسلمون ذِكرى تكريمِ النبيِّ ﷺ بمعجزةِ الإسراءِ والمعراجِ[1]، حيث نُقِلَ على مَتْنِ الْبُرَاقِ -وهو دابةٌ من دوابِّ الجنةِ أعْلى من الحمارِ، وأدْنى من البغلِ- من المسجد الحرام بمكةَ، إلى المسجد الأقصى ببيت المقدسِ، ثم عُرِجَ به إلى السماواتِ الْعُلاَ، لِيَلْتَقِيَ بجمعٍ من الأنبياء -آدمُ، ويوسفُ، وإدريسُ، وموسى، وهارونُ، وعيسى ويَحْيَى، وإبراهيمُ- عليهم السَّلاَمُ، ثم يَلتقيَ وحدَه بربِّه جَلَّ جَلَالُهُ، ثم يعودُ إلى مكةَ من ليلته. قال الله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾[الإسراء:01].

وهذه الليلةُ مع أنها ليلةٌ مباركةٌ؛ لتكريم النبيِّ ﷺ فيها بمعجزة الإسراءِ والمعراجِ، إلا أنه لا يجوز أن تُخَصَّ عن غيرها من الليالي بشيءٍ من العبادة كالقيامِ أو الصدقةِ ونحوِ ذلك من صُنُوفِ العبادات؛ لأنَّ هذا التخصيصَ لم يَثْبُتْ عن الله تعالى، ولا عن نبيِّه ﷺ، كما ثَبَتَ عنهما في ليلةِ القدرِ من رمضانَ الفضيلِ. لذا يجب أن تَبْقَى هذه الليلةُ كغيرها من ليالي السنةِ من حيث العبادةُ.

---

[1]- المشهورُ من أقوال أهلِ السِّيَرِ أنَّ حادثةَ الإسراءِ والمعراجِ وقعتْ ليلةَ السابعِ والعشرين من شهر رجبٍ من السنة العاشرةِ من البعثةِ النبويةِ، وإلا فإنَّ هناك أقوالاً أخرى تَذْهَبُ إلى أنَّها وقعتْ قبل هذا التاريخِ أو بعده.

إلا أنَّ الذي ينبغي أن يُحْيِيَ به المسلمُ هذه الذكرى عندما يَمُرُّ بها كلَّ سنةٍ، أنه يَقِفُ عند أحداثِها، فيسترجعُ ما وَقَعَ فيها؛ لِيَسْتَلْهِمَ منها الدروسَ والعِبَرَ والْعِظَاتِ التي تُنِيرُ عليه حياتَه. وفيما يأتي نَذْكُرُ بعضًا منها:

1- وجوبُ الصبرِ على الْمِحَنِ والابتلاءاتِ ولو تَتَالَتْ؛ طلبًا للأجرِ، وانتظارًا للفَرَجِ: ذلك أنَّ المتأملَ في تاريخ تكريمِ النبيِّ ﷺ بمعجزةِ الإسراء والمعراجِ، وما سَبَقَتْهُ من أحداثٍ، يَجِدُ تأكيدًا على هذا المعنى. فإنَّهُ صلواتُ اللهِ عليه وسلامُهُ كُرِّمَ بهذه المعجزةِ بعد سلسلةٍ من الْمِحَنِ والمآسي، نذكرُ منها:

- فَقْدُ أصحابه الذين هاجروا إلى الحبشة في السنة الخامسة من بعثته؛ هروبًا بدينهم، بعد أنْ تَكَثَّفَ عليهم الأذى من قريشٍ.

- الأذى الماديُّ والمعنويُّ الذي كان يَلْقَاهُ من قومه. أما الأذى الماديُّ فإنه يتمثَّلُ في خَنْقِه ﷺ، ورَمْيِ القاذوراتِ عليه، ثم المقاطعةِ الاقتصاديةِ والاجتماعيةِ التي دَامَتْ ثلاثَ سنواتٍ، والتي فَرَضَتْهَا قريشٌ عليه، وعلى مَنْ نَاصَرَهُ من عشيرتِهِ، وعلى مَنْ معه منَ المسلمين. وأما الأذى المعنويُّ فإنه يتمثَّلُ في وَصْفِهِ ﷺ بصفاتٍ هو منها بَرِيءٌ ؛ حيثُ وُصِفَ بالكذب وهو أصدقُ الناسِ، ووُصِفَ بالجنون وهو أعقلُ الناسِ، ووُصِفَ بالسحر والْكِهَانَةِ وهو أبعدُ الناسِ عنهما، ووُصِفَ بالشعر وما كان يَقْرِضُ شعرًا صلواتُ اللهِ عليه وسلامُه.

- خَيْبَةُ أملِهِ ﷺ في أهل الطائفِ لَمَّا قَصَدَهُمْ بدعوته، وكان يرجو أن يَجِدَ منهم الاستجابةَ؛ إذ إنهم رَدُّوهُ ردًّا عنيفًا، وأَغْرَوْا به عبيدَهم وسفهاءَهم، فرَمَوْهُ بالحجارة، حتى اخْتَضَبَ نَعْلاَهُ بالدماء.

- فَقْدُ الْعَضُدَيْنِ الكبيرَيْن في سنةٍ واحدةٍ وهي العاشرةُ من بعثته؛ أما العضدُ الأولُ فهو عمُّهُ أبو طالبٍ الذي كان مُسْتَمِيتًا في الدفاع عنه، رغم شركِهِ. وأما

العضدُ الثاني فهو زوجُهُ خديجةُ رضي الله عنها التي كانت تُوَاسِـيهِ بنفسـها ومالِهَا. حتى سُمِّيَ هذا العامُ بعامِ الْحُزْنِ.

فبَعْدَ هذه المآسي والمحنِ التي تعاقبتْ على رسول اللهِ ﷺ، يأتي الفرجُ من الله تعالى، فيُكْرِمُهُ بالإسراء والمعراجِ. فكأنه بهذا التكريمِ يقول له: امْتَحَنَّاكَ يا رسولَ اللهِ، فصَبَرْتَ واحْتَسَبْتَ، فالأجرُ قد ثَبتَ، والفرجُ قد حَلَّ، فنحن نَنْقُلُكَ من الأرض التي ضَاقَتْ بك، إلى السماوات الْعُلاَ التي تَتَّسِعُ لك، وإذا كان أهلُ الأرضِ قد رفضوك، فإنَّ أهلَ السماءِ ربًّا وملائكةً وأنبياءَ يُرَحِّبُونَ بك.

وهكذا ينبغي أن يكونَ شأنُ المؤمنِ في هذه الحياةِ، التي هو مُعَـرَّضٌ فيهـا للمحنِ والابتلاءاتِ لاَ مَحَالَةَ، والتي قد تكونُ في دينه، أو نفسه، أو عرضه، أو ماله، أو في أحدِ أقاربِهِ أو أحبابِه. فعندما يَحِلُّ به البلاءُ يَصْبِرُ ويَحْتَسِبُ الأجرَ عندَ اللهِ تعالى، وهو أجرٌ عظيمٌ لا يَعْرِفُهُ إلا هو جَلَّ وعَلاَ، قال عنه سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[الزمر:10]. وفي الوقت نفسه يُسَلِّي المؤمنُ نفسَهُ بِدُنُوِّ الفرجِ؛ لأنه يَعْرِفُ قولَهُ ﷻ: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾[الشرح:05-06]، ولَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ[1].

2- بيانُ أهميةِ الصلاةِ في الإسلام، والتأكيدُ على أنَّها عمادُ الدينِ: لَمَّا أراد اللهُ ﷻ أن يَفْرِضَ الصلاةَ على الأمة الإسلاميةِ، لم يفرضْـهَا في الأرض بواسـطة جبريلَ عليه السلام، كما هو الحالُ في سائر الفرائضِ والتشريعاتِ، بل رَفَعَ نبيَّـهُ ﷺ إليه ليلةَ الإسراءِ والمعراجِ، لِيَفْرِضَهَا هو جل جلاله في السماء مباشرةً دون واسـطةِ جبريلَ عليه السلام. ومِنْ باب ترغيبِ الأمةِ فيها، فَرَضَهَا في بداية الأمرِ خمسين صلاةً

---

[1]- العسرُ الواردُ في الآيتيْن واحدٌ؛ لأنه جاء مُعَرَّفًا. بينما اليسرُ الأولُ الواردُ في الآية الأُولى يختلفُ عن الواردِ في الثانية؛ لأنَّه جاء فيهما مُنَكَّرًا.

في اليوم والليلة، ثم جعَلَهَا خمسًا من حيثُ الأداءُ، وأَبْقَى الأجرَ -تَفَضُّلاً منه وتَكَرُّمًا على عباده المؤمنين- أجرَ الخمسين.

وعلى هذا، يجبُ على المسلم أن يَعْرِفَ قَدْرَ الصلاةِ، فيُقِيمُهَا حَقَّ القيامِ، فيؤدِّيها في وقتها بأركانها وشروطِها وواجباتِها وسننِها ومستحباتِها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً؛ ذلك أنَّ مَنْ أقامها فقد أقام عمادَ الدينِ، ومَنْ ضَيَّعَهَا فهو لغيرها أَضْيَعُ. قال النبيُّ ﷺ في الحديث الصحيحِ: ﴿رأسُ الأمرِ الإسلامُ، وعمودُهُ الصلاةُ، وذِرْوَةُ سَنَامِهِ الجهادُ﴾[رواه الترمذي]. ولذا تَوَعَّدَ اللهُ تعالى مَنْ ضَيَّعَهَا بالعقوبة الشديدة. قال ﷻ: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئاً﴾[مريم:59-60].

3- وجوبُ الاعتقادِ في أركانِ العقيدةِ الإسلاميةِ اعتقادًا جازمًا مُنَافيًا لِأَدْنَى شكٍّ أو رَيْبٍ: إنَّ المؤمنَ لأجل ترسيخِ عقيدتِهِ في نفسه يحتاج إلى القدوةِ الحسنةِ مِمَّنْ جعلهم اللهُ تعالى للمتقين إمامًا، وحينئذٍ سوف يَجِدُ في أبي بكرٍ الصديقِ ﵁ ما يُرِيدُ؛ ذلك أنه رضوانُ اللهِ عليه، لَمَّا كانت صبيحةُ الإسراءِ والمعراجِ، وقبل أن يسمعَ خبرَهُ من النبيِّ ﷺ، طَارَ كفارُ قريشٍ لَهُ بهِ بعد أنْ حَدَّثَهُمْ به صلواتُ اللهِ عليه وسلامُه؛ لِيُحْدِثُوا في إيمانه شيئًا من الشكِّ والارتيابِ. إلا أنه خَيَّبَ ظَنَّهُمْ في ذلك؛ فرغم أنه استغربَ الخبرَ، ولم يسمعْهُ من الصادقِ الْمَصْدُوقِ ﷺ، إلا أنه قال لهم بلُغَةِ المتيقنِ الواثقِ فيما يعتقدُهُ: " إنْ كان قال ذلك فَقَدْ صَدَقَ". ومِنْ ثَمَّةَ سُمِّيَ أبو بكرٍ ﵁ بالصديقِ؛ لأنه صَدَّقَ بهذه المعجزةِ حين كذَّبها الناسُ.

وهكذا ينبغي أن يكونَ المؤمنُ في إيمانه جازمًا متيقنًا، بعيدًا عن الشك والارتياب. وإنِ انْتَابَهُ شيءٌ من الوساوسِ الشيطانيةِ وأحاديثِ النفسِ، فلْيَكُنْ شعارُهُ: "إنْ ثَبَتَ هذا بالنقل الصحيحِ عن الله تعالى، وعن النبيِّ ﷺ، فهو ثابتٌ، وإنْ لَمْ أَفْقَهْ أنا بعقلي القاصرِ كُنْهَهُ". ولا بَأْسَ أنْ يَطْلُبَ ما يَشْفِي غليلَهُ من الأدلة النقليَّةِ والعقليَّةِ، ما يَطْمَئِنُّ معه قلبُهُ. ولَعَلَّ مِنَ المقاصد الأساسيةِ من تكريمِ النبيِّ ﷺ بمعجزة الإسراءِ والمعراجِ طَمْأَنَةَ قلبِه عندما يرى بأُمِّ عَيْنَيْهِ بعضًا ممَّا يعتقدُهُ، كالجنةِ والنارِ وعَالَمِ الملائكةِ الأبرارِ وجَمْعٍ من الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاةُ والسلامُ. ولذا لَمَّا ذَكَرَ ﷻ ما يتعلَّقُ بالإسراء أَعْقَبَهُ بالتعليل فقال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾[الإسراء:01].

4- إثباتٌ لنبوةِ محمد ﷺ، وتأكيدٌ على صدقِ رسالته: ذلك أنَّ كلَّ نبيٍّ يُؤَيِّدُهُ الله تعالى بمعجزات تُثْبِتُ صدقَ نبوته، ونبيُّنا ﷺ أَيَّدَهُ ربُّهُ بكثيرٍ من المعجزات، مِنْ أعظمِهَا الإسراءُ والمعراجُ؛ حيث إنَّهُ صلواتُ الله عليه وسلامُهُ أُسْرِيَ به من المسجد الحرامِ إلى المسجدِ الأقصى، ثم عُرِجَ به إلى السماواتِ الْعُلاُ بالجسد والروحِ، وطَوَى مسافاتٍ طويلةٍ أرضيةٍ وسماويةٍ في وقتٍ وجيزٍ. وممَّا يُؤَكِّدُ وقوعَ هذه المعجزةِ أنه ﷺ لَمَّا أصبح في قومه وأخبرهم بما أَرَاهُ اللهُ ﷻ مِنْ آياته الكبرى، سألوه أنْ يَصِفَ لهم بيتَ المقدسِ، فجَلاَّهُ اللهُ له، حتى عَايَنَهُ، فطَفِقَ يُخبرهم عن آياته، ولا يستطيعون أنْ يَرُدُّوا عليه شيئًا. كما أخبرهم عن عِيرِهِمْ التي رَآهَا في مَسْرَاهُ ورجوعِه، وأخبرهم عن وقت قدومها، وعن البعيرِ الذي يَقْدُمُهَا، فكان الأمرُ كما قَالَ. إلا أنَّ تكذيبَهم كان جُحُودًا واستكبارًا.

5- وجوبُ تعظيمِ شأنِ النبيِّ ﷺ، وتأكيدٌ على أنه أفضلُ الأنبياءِ والمرسلين: فمعلومٌ مِنْ أحداث الإسراءِ والمعراجِ أنَّ النبيَّ ﷺ صلَّى في بيت المقدسِ بالأنبياء والمرسلين إمامًا؛ مِمَّا يَدُلُّ على أنهم صلواتُ اللهِ عليهم وسلامُهُ يُقِرُّونَ له بالنبوة والرسالةِ، بل إنهم يُعَظِّمُونَهُ ويَعتبرونه أفضلَهم، وإلا ما كانوا لِيُقَدِّمُوهُ لإمامتهم. وهم بذلك يُوفُونُ بالعهد الذي أَخذوه على أنفسهم أمامَ ربِّهِمْ. قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ فَمَن تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[آل عمران:81-82]. كما أن عَظَمَتَهُ ومكانَتَهُ الرفيعةَ تتأكَّدُ من خلال وصوله ﷺ إلى سدرةِ الْمُنْتَهَى، والتقائِهِ وحدَهُ بالجبَّارِ جَلَّ جَلَالُهُ، الذي دَنَا منه حتى كان قَابَ قوسيْنِ أو أَدْنَى، فأوْحى إليه ما أوْحى.

فإذا كان الجبارُ جَلَّ جَلَالُهُ، والأنبياءُ والمرسلون عليهم السلامُ، يُوَقِّرُونَ محمدًا ﷺ ويُبَجِّلُونَهُ، فمِنْ باب أَوْلَى أنْ يُوَقِّرَهْ ويُبَجِّلَهُ سائرُ المسلمين. لاَ سِيَّمَا وأنَّ فلاحَهم في الدنيا والآخرةِ مرتبطٌ بذلك. قال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ[1] وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[الأعراف:157].

6- بيانٌ لأهميةِ وقداسةِ المسجدِ الأقصى، الأمرُ الذي يَقْتَضِي العملَ على استردادِهِ من اليهودِ الغاصبين: وهذا يُلاَحَظُ من خلال تلك التَّوْأَمَةِ التي حصلتْ في هذه المعجزةِ بين المسجديْنِ: الحرامِ بمكةَ، والأقصى بفلسطينَ. فكأنَّهُ تعالى

[1] – تَعْزِيرُ النبيِّ ﷺ هو تعظيمُهُ وتَبْجِيلُهُ وتوقيرُهُ؛ وذلك بمحبَّتِهِ محبةً تفوقُ محبةَ النفسَ والأهلِ والمالِ، ومحبةِ آلِ بيتِهِ وأصحابِهِ، واستدامةِ الصلاةِ عليه، والاستهداءِ بهديِهِ.

يُرِيدُ أنْ يقولَ لنا: إذا كنتم أيها المسلمون تَعْتَبِرُونَ المسجدَ الحرامَ مقدسًا، ولو أنَّ أحدًا أرادَهُ بسوءٍ، فإنكم ستُقَدِّمُونَ الغاليَ والنفيسَ؛ لأجل حمايتِهِ والـــدفاعِ عنه وإبقائِهِ ضِمْنَ مقدساتِكم، فإنَّ الأمرَ نفسَهُ يجب أنْ يكونَ مـــنكم تجَـــاهَ المسجدِ الأقصى؛ فهو أَخُوهُ الشقيقُ، وأُولَـــى القبلتَـــيْنِ، وثالـــثُ الحَـــرميْنِ الشريفَيْنِ[1]. وها هو الآن بين يديِ اليهودِ، يَصُدُّونَ عنه المسلمين، ويَحْرِمُونَهُمْ من أجرِ الصلاةِ الْمُضَاعَفِ فيه، ويَطْرُدُونَ أهلَهُ، ويُهَوِّدُونَ محيطَهُ، بل ويقومون بِحَفْرِيَّاتِهِمُ المشؤومةِ قَصْدَ إسقاطه وهدمه. فما على المسلمين إلا أنْ تَتَظَـــافَرَ جهودُهم، وتَتَجَمَّعَ إمكاناتُهم الماديةُ والمعنويةُ؛ لأجل الحفاظِ عليـــه، وتحريـــرِهِ واستردادِهِ من غَاصِبِيهِ.

وفي الختام، نسأل اللهَ العليَّ القديرَ أن يرزقَنا الصبرَ والاحتسابَ عند الْمِحْنَةِ والابتلاءِ، وأن يجعلَنا مِنْ مُقِيمِي الصلاةِ ومُؤْتِي الزكاةِ، وأن يُقَوِّيَ إيمانَنَا، وأن يُعَظِّمَ شأنَ النبيِّ ﷺ في قلوبنا، وأن يُرْجِعَ المسجدَ الأقصى السَّلِيبَ إلى ممتلكاتِ المسلمين، وأنْ ينصرَ إخوانَنَا الفلسطينيِّين المجاهدين المرابطين؛ دفاعًا عن الأرضِ والعرضِ والمقدَّساتِ. وآخرُ دعوانا أنِ الحمدُ لله ربِّ العالمين.

---

[1]- يُقَالُ للمسجد الأقصى "أُولَى القِبلتَيْنِ، وثالثُ الحرميْنِ الشريفَيْنِ"؛ لأنَّ المسلمين كانوا يستقبلونه في صلاتهم قبل أن يُحَوَّلُوا إلى استقبالِ المسجدِ الحرامِ في السنة 2هـــ. وأنَّـــهُ في درجةِ القداسةِ يأتي بعد الحرميْنِ الشريفَيْنِ: المسجدِ الحرامِ بمكةَ، والمسجدِ النبويِّ بالمدينـــةِ. ولذا كانت الصلاةُ في الأولِ بمائةِ ألفِ صلاةٍ، وفي الثاني بألفٍ، وفي الأقصى بخمسمائةٍ.

الخطبة العشرون

ما ينبغي أن يعرفَهُ المسلمُ عن شهرِ شعبانَ

إننا في هذه الأيامِ سَنُوَدِّعُ شهرَ اللهِ الحرامِ رجب، ونستقبلُ شهرَ شعبانَ الذي ينبغي أن نعرفَ عنه أمورًا معينةً قد تَخْفَى عن عددٍ مُعْتَبَرٍ من المسلمين في هذا الزمانِ. فمن أهمِّ هذه الأمورِ:

1- أنَّه الشهرُ الذي تُرْفَعُ فيه الأعمالُ إلى الله تعالى: ذلك أنَّ أعمالَ الإنسانِ صَالحَهَا وطَالحَهَا، صغيرَها وكبيرَها، تَرفعها الملائكةُ إلى الله تعالى رَفْعًا يوميًّا، ورَفْعًا أسبوعيًّا يكون يومي الاثنينِ والخميسِ[1]، ورَفْعًا سنويًّا وهو الذي يكون في شهر شعبانَ، ورَفْعًا نهائيًّا وهو الذي يكون عند الممات. ففيما يتعلَّقُ بالرفعِ السنويِّ سألَ أسامةُ بنُ زيدٍ ﵁ النبيَّ ﷺ قائلاً: "يا رسولَ الله لَمْ أَرَكَ تصومُ شهرًا من الشهور ما تصومُ من شعبانَ؟" فقال له: ﴿ذلكَ شهرٌ يَغْفُلُ الناسُ عنه بين رجبٍ ورمضانَ، وهو شهرٌ تُرْفَعُ فيه الأعمالُ إلى ربِّ العالمين، فأُحِبُّ أن يُرْفَعَ عملي وأنا صائمٌ﴾[رواه النسائي]. ولذا نَتَنَاصَحُ بأن نجتهدَ في صيام ما يَتَيَسَّرُ من شعبانَ؛ حتى تُرْفَعَ أعمالُنا إلى الله ﷻ ونحن صيامٌ، واقتداءً بالنبيِّ ﷺ. وهذا ما يُؤَكِّدُهُ حديثُ عائشةَ رضي الله عنها عندما قالت: "كان رسولُ اللهِ ﷺ يصومُ حتى نقولَ لا يُفْطِرُ، ويُفْطِرُ حتى نقولَ لا يصومُ، وما رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ استكملَ صيامَ شهرٍ قَطْ إلا رمضانَ، وما رأيتُهُ في شهرٍ أكثر صيامًا منه

[1]- ثَبَتَ الرفعُ الأسبوعيُّ بحديث أبي هريرةَ ﵁ الذي قال فيه النبيُّ ﷺ: ﴿تُعْرَضُ الأعمالُ يومَ الاثنينِ والخميسِ، فأُحِبُّ أنْ يُعْرَضَ عملي وأنا صائمٌ﴾[رواه الترمذي].

في شعبانَ"[رواه أبو داود]. ولْيعلمِ المسلمُ أنَّ الصيامَ النَّفْـــلَ في شـــعبانَ هـــو بالنسبة لصيامِ رمضانَ بِمَثَابَةِ السُّنَّة الْقَبْلِيَّة في الصلواتِ المكتوبة[1]. فإذا كان النبيُّ ﷺ قد سَنَّ صلاةَ ركعتيْنِ قبلَ كلِّ صلاةٍ مفروضةٍ عندما قالَ: ﴿بَيْنَ كُلِّ أَذَانَيْنِ صلاةٌ، بَيْنَ كُلِّ أَذَانَيْنِ صلاةٌ﴾، ثم قالَ في الثالثةِ: ﴿لِمَنْ شَاءَ﴾[رواه الترمذي]؛ حتَّى يَتَهَيَّأَ المصلِّي بالنافلة للفريضةِ، فيدخلُها وهو على أحسنِ حالٍ، فإنَّ الأمرَ نفسَهُ يُلاَحَظُ في صيام النَّفْلِ في شعبانَ، فإنَّ المسلمَ يَتَهَيَّأُ به للصيامِ المفروضِ في رمضانَ. وعلى هذا، فإنَّ الذي يصوم شيئًا من شعبانَ، ثم يَحِلُّ عليه رمـــضانُ، فيَدْخُلُ في صيامه وهو في كاملِ قِوَاهُ النفسيَّة والجسديَّة؛ لأنَّهُ تَمَرَّنَ على الصيام، وتَعَوَّدَ عليه، فيَسْتَعْذِبُ صيامَ رمضانَ ويَتَذَوَّقُهُ من بدايته. بينما الذي لا يصوم شيئًا من شعبانَ، يكون قد فَوَّتَ عن نفسه فرصةَ رَفْعِ عملِه على الله تعالى وهو صائمٌ، وأجرَ الاقتداءِ بالنبيِّ ﷺ، ويدخلُ صيامَ رمضانَ وهو غيرُ مُسْتَعِدٍّ نفسيًّا وجسديًّا، ولذا لا يكادُ يتفاعَلُ إيجابًا مع رمضانَ إلا بعد انقضاءِ أيـــامٍ منـــه، فيكون بذلك قد فَاتَهُ خيرٌ كثيرٌ.

2- شهرُ شعبانَ يُسَمَّى عند بعضِ السلفِ بشهر الْقُرَّاءِ: ذلك أنَّ حَفَظَةَ القرآنِ الذين سيَؤُمُّونَ الناسَ به في صلاة التراويحِ، إنما يَبْتَدِئُ تحضيرُهم ومراجعتُهم لـــه من شعبانَ، حتى إذا ما حَلَّ رمضانُ، وَجَدُوا أنفسَهم جاهزين لتلاوتِـــه علـــى الناسِ. بينما سائرُ الناسِ مِمَّنْ هم غيرُ مَعْنِيِّينَ بإمامةِ الناسِ في صلاة التـــراويحِ، فإنهم مُطالبون بفَتْحِ المصاحفِ، والْعُكُوفِ على التلاوة؛ استعدادًا أيضًا لـــشهر رمضانَ شهرِ القرآنِ، حيث تكون التلاوةُ مكثفةً تُنَاسِبُ المقامَ. فكأنَّ صـــيامَ

[1] - يُعَدُّ صيامُ السِّتِّ من شوالَ بمثابةِ السُّنَّة البعديَّة لصيام شهرِ رمضانَ، الذي مِنْ شأنِهِ أنْ يَجْبُرَ النقصَ الذي دَخَلَ على الفرضِ، علاوةً على الاستزادةِ من الأجرِ.

النَّفْلِ في شعبانَ، والعنايةَ بالقرآن الكريمِ فيه، بالنسبة لصيام رمضانَ، وتـــلاوةِ القرآنِ فيه، بمثابةِ ما يقوم به الرياضيُّ مِنْ حركاتٍ تسخينيَّةٍ لعــضلاته، قبـــل الدخولِ إلى أرض الملعبِ، وبَذْلِ المجهودِ الكبيرِ فيه؛ حـــتى لا تَحْـــدُثَ لهـــا التَّشَنُّجَاتُ التي تُعَرْقِلُهُ عن الأداء الْجَيِّدِ وعن المواصلة. فالمسلمُ الذي يريـــد أن يغتنمَ رمضانَ اغتنامًا كبيرًا، ويدخلَه وهو مُعَدٌّ نفسيًّا وجسديًّا، عليه أن يَبْتَدِئَ بالتحضير له من شعبانَ. فبالنسبة للقرآنِ الكريمِ: إنْ كان المسلمُ مِمَّنْ هجـــرَهُ على مَدَارِ السنةِ، فلْيجعلْ لنفسه وِرْدًا معيَّنًا في شعبانَ وإنْ قَلَّ. وإنْ كان مـــن أهلِ الْأَوْرَادِ خلالَ السنةِ، فلْيَزِدْ في كَمِّ وِرْدِهِ ولْيُحَسِّنْ من كَيْفِهِ[1]. ولْيستحضرِ الجميعُ أنهم يتعاملون مع كتابِ الله تعالى، حيث إنَّ لهم على الحرف الواحدِ منه إذا تُلِيَ عشرَ حسناتٍ. يقول النبيُّ ﷺ: ﴿مَنْ قرأَ حرفًا مِنْ كتابِ الله فلهُ بـــه حسنةٌ، والحسنةُ بعشرِ أمثالِها، لا أقول "أَلَمِّ" حرفٌ، ولكن: أَلِفٌ حرفٌ، ولاَمٌ حرفٌ، وميمٌ حرفٌ﴾[رواه الترمذي].

3- شعبانُ فرصةٌ أخيرةٌ لقضاء المسلمِ ما عليه من صيامِ رمضانَ الفائـــتِ: إنَّ الأصلَ في المسلم إذا أفطر في رمضانَ لعذرٍ، كالسفرِ والمرضِ والحيضِ والنفاسِ، أن يُبَادِرَ بعد رمضانَ إلى قضاء ما فَاتَهُ؛ تبرئةً للذمة، وتحسبًا للموت الـــذي لا يُعْرَفُ أجلُهُ. ولكنْ إنْ أَجَّلَ القضاءَ، وكان الله تعالى قد أَمْهَلَـــهُ حـــتى أدركَ شعبانَ، فما عليه إلا أن يُسَارِعَ إلى صيام ما عليه من الأيام، كما كانت تَصْنَعُ

[1]- المقصودُ بالزيادة في الْكَمِّ أن يُضِيفَ إلى المقدار الذي كان يَقْرَأُهُ مقدارًا آخرَ. فإن كان يقرأُ جزءًا واحدًا مثلاً، صَيَّرَهُ جزأين. بينما المقصودُ بالتحسين في الْكَيْفِ ما يتعلَّقُ بطريقـــة التلاوةِ، فإنْ كان يقرأُ مثلاً حَدْرًا جعلَهُ ترتيلاً. وإن كان لا يُعْنَى بأحكام التلاوةِ أصـــلاً، فلْيُعْنَ بها.

أمُّنا عائشةُ رضي اللهُ عنها، فقد قالت عن نفسها: "إنْ كان لَيَكُونُ عَلَيَّ الصومُ من رمضانَ، فما أستطيعُ أَنْ أَقْضِيَهُ حتىَّ يَأْتِيَ شعبانُ"[رواه أبو داود][1]. فــإنْ تقاعسَ عن القضاء حتى دخلَ عليه رمضانُ، فإنه يكون آثمًا، ويبقى قضاءُ تلك الأيام معلَّقًا في عنقه، فيأتي به بعد رمضانَ، ومع القضاء يُطْعِمُ عن كــلِّ يــومٍ مسكينًا، كما أَفْتَى بذلك جمعٌ من صحابة النبيِّ ﷺ. وهــذا كلُّــه في حــقِّ الْمُتَقَاعِسِ الذي يُؤَخِّرُ القضاءَ بغير عذرٍ. بينما مَنْ أَخَّرَهُ لعذرٍ، كالتي كانــت نُفَسَاءَ، وأرهقَها الرَّضَاعُ، أو دخلتْ في حملٍ آخرَ وكان عليها صعبًا، أو الذي بَرِئَ من مرضِهِ ولكنْ نَصَحَهُ الطبيبُ بفترةِ نَقَاهَةٍ طويلةٍ لا يصوم فيها، أو ظَلَّ المرضُ يُعَاوِدُهُ خلالَ العامِ، فهؤلاء وأمثالُهم من أصحاب الأعذارِ لا يَــأْثَمُونَ بتأخير القضاءِ إلى ما بعد رمضانَ الجديدِ، وليس عليهم حينَهَا إلا القضاءُ.

4- تخصيصُ ليلةِ النصفِ منه بالعبادة لَمْ يَثْبُتْ فيها شيءٌ عن النبيِّ ﷺ: يَتَنَاقَلُ بعضٌ من المسلمين أحاديثَ منسوبةً إلى النبيِّ ﷺ، مَفَادُهَا أنَّ ليلةَ النصفِ مــن شعبانَ ليلةٌ فاضلةٌ، ينبغي أن تُخَصَّ بالقيام والدعاءِ، وأن يُخَصَّ يومُها بالصيام. إلا أنَّ الذي يَجِــبُ أن يُعْلَمَ هو أنَّ هذه الأحاديثَ التي تُتَدَاوَلُ عن حُسْنِ نيةٍ -في الأغلب[2]- كلَّها ما بين موضوعٍ مكذوبٍ عنه صلواتُ اللهِ عليه وسلامُه،

---

[1]- جاء في رواياتٍ أخرى لهذا الحديث أن عائشةَ رضي الله عنها كانت تُؤَخِّرُ قضاءَ مــا عليها من رمضانَ إلى شعبانَ؛ مراعاةً لِحَقِّ رسولِ اللهِ ﷺ، وحسنَ معاشرةٍ لــه، لا سِــيَّمَا وأنها كانت تَعْرِفُ مكانتَها عنده. وفي الوقتِ نفسِه أنها كانت تَعْلَمُ أنه ﷺ يُكْثِرُ من الصيام في شعبانَ، فهو يصوم نافلةً، وتغتنمُ هي الفرصةَ فتصومُ قضاءً.

[2]- قلتُ في الأغلب؛ إحسانًا للظَّنِّ بالمسلمين، وإلاَّ فإنَّ هناك بعضَ الْمُغْرِضِينَ قد يُرَوِّجُ لها من بابِ إبعادِ المسلمين عن هدي النبيِّ ﷺ الصحيحِ، وإدخالِهم في بابِ البدعةِ والخرافةِ.

وبين ضعيفٍ لم تثبتْ نسبتُه إليه. فمِنْ بين هذه الأحاديث: "إذا كـان ليلـةُ النصفِ من شعبانَ، فَقُومُوا ليلتَها، وصُومُوا يومَها؛ فإنَّ اللهَ يترلُ فيها لغُـرُوبِ الشمسِ إلى سماءِ الدنيا فيقول: أَلاَ مُسْتَغْفِرٍ فأَغْفِرُ له، أَلاَ مُسْتَرْزِقٍ فأَرْزُقُـهُ، أَلاَ مُبْتَلًى فأُعَافِيه، أَلاَ سائلٍ فأُعْطِيه، أَلاَ كَذَا، أَلاَ كَذَا، حتَّـى يَطْلُـعَ الفجـرُ".

وحديثُ: "خمسُ ليالٍ لا تُرَدُّ فيهنَّ الدعوةُ: أولُ ليلةٍ من رجبٍ، وليلةُ النصفِ من شعبانَ، وليلةُ الجمعة، وليلةُ الفطرِ، وليلةُ النحرِ". وحديثُ: "مَنْ أَحْيَا الليالِيَ الخمسَ وَجَبَتْ له الجنةُ: ليلةُ التَّرْوِيَةِ، وليلةُ عرفةَ، وليلةُ النحرِ، وليلةُ الفطـرِ، وليلةُ النصفِ من شعبانَ". فهذه الأحاديثُ الثلاثةُ كلُّها موضوعةٌ مُخْتَلَقَةٌ. ومِنْ بين تلك الأحاديثِ المتداوَلَة حديثُ عائشةَ رضي الله عنها الضعيفُ الذي فيـه أنَّ النبيَّ ﷺ قام من الليل فصلَّى فأطالَ السجودَ، حتى ظَنَّتْ أنه قد قُبِضَ، فلمَّا رأتْ ذلك قامتْ حتى حَرَّكَتْ إبهامَهُ فتحرَّكَ فرجعـتْ، فـسمعتْهُ يقـولُ في سجوده: "أعوذُ بعفوِكَ من عقابِكَ، وأعوذُ برضاكَ من سَخَطِكَ، وأعوذُ بـكَ منكَ إليكَ، لا أُحْصِي ثناءً عليك أنت كما أثنيتَ على نفسك". ولَمَّا فَرَغَ من صلاته قال لها: "أَتَدْرِينَ أيَّ ليلة هذه؟" فقالت: "اللهُ ورسولُه أعلمُ". فقـال: "هذه ليلةُ النصفِ من شعبانَ، إنَّ اللهَ ﷻ يَطَّلِعُ على عباده في ليلة النصفِ من شعبانَ، فيَغْفِرُ للمستغفِرينَ، ويرحمُ المسترحِمينَ، ويُؤَخِّرُ أهلَ الحقدِ كما هُمْ".

ومِنْ بابِ الأمانةِ العلمية، فإنَّ بعضًا من أهل العلمِ صَحَّحَ أو حَسَّنَ حديثًا في فضل ليلةِ النصفِ من شعبانَ، له ألفاظٌ متقاربةٌ منها قولُه ﷺ: ﴿إنَّ اللهَ لَيَطَّلِعُ في ليلةِ النصفِ من شعبانَ، فيَغْفِرُ لجميع خلقه، إلا لمشركٍ أو مُشَاحِنٍ﴾[رواه ابن ماجة]. والمشركُ هو كلُّ مَنْ أشركَ مع الله شيئًا في ذاتِه تعالى أو في صـفاتِه أو في عبادتِهِ. والْمُشَاحِنُ هو الْمُعَادِي والْمُقَاطِعُ رَحِمَهُ وإخوانَهُ من المسلمين، أو

هو صاحبُ البدعة الْمُفَارِقُ لجماعةِ الأمةِ. وعلى التسليم بثبوتِ هذا الحديثِ، فليس فيه ما يُشَرِّعُ لإحياء هذه الليلةِ بالعبادةِ، أو بإقامةِ الأفراحِ وشعائرِ الأعيادِ. لذا فإنَّ المسلمَ الحريصَ على اتِّبَاعِ الهدي النبويِّ، والاقتداء بطريقة السلفِ الصالحين، يَعْتَبِرُ ليلةَ النصفِ من شعبانَ ليلةً عاديةً، فلاَ يَخُصُّهَا بشيءٍ من العبادة.

وفي الختام، نقولُ لإخواننا: إذا كان الناسُ -إلا مَنْ رَحِمَ اللهُ تعالى- يَغْفُلُونَ عن الاجتهاد في العبادة في شهر شعبانَ، كما أخبرَ النبيُّ ﷺ، وكما هو مُلاَحَظٌ من خلال النظرِ في أحوال الناسِ اليومَ، على أساس أنَّ هذا الشهرَ يأتي بين شهرَيْن عادةً ما يَتَحَرَّاهُمَا المسلمون بالنشاط في العبادة؛ فالشهرُ الذي قبلَهُ هو شهر رجبٍ، وهو من الأشهرِ الْحُرُمِ التي ينبغي أن يَخُصَّهَا المسلمُ بشيءٍ من العبادةِ، خاصةً فيما يتعلَّقُ بالتقرب إلى اللهِ تعالى بترك المعاصي؛ ائْتِمَارًا بقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ[1] ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾[التوبة:36]، والشهرُ الذي يَلِيه هو شهرُ رمضانَ الفضيلُ حيثُ تُسَلْسَلُ الشياطينُ، وتَقْوَى العزائمُ، ويكونُ الْجَوُّ العامُّ ربانيًّا إيمانيًّا، فيَنْشَطُ الجميعُ في العبادة حتى مَنْ كان خَامِلاً منهم، فإذا كان الناسُ يَغْفُلُونَ عن العبادة، فإنَّ المسلمَ الحريصَ عن آخرتِهِ، سوف يكون مُبَادِرًا إلى الاجتهاد في العبادة: صلاةٍ وصيامٍ وصدقةٍ وذكرٍ ودعاءٍ وتلاوةٍ للقرآنِ الكريمِ؛ حتى يَظْفَرَ

---

[1] - بَيَّنَ النبيُّ ﷺ في خطبة حجةِ الوداعِ أنَّ الأشهرَ الْحُرُمَ ثلاثةٌ متوالياتٌ: ذو القعدة، وذو الحجة، ومحرم، وواحد فَرْدٌ وهو رجب.

بفضلِ النشاطِ فيها عند فَشَلِ الناسِ عنها، وتحصيلِ الأجرِ المضاعَفِ عندما انْتَبَهَ إليها وهم غافلون عنها[1].

أسأل اللهَ تعالى أنْ يباركَ لنا في شعبانَ؛ حتى نَسْتَغِلَّهُ فيما يُرْضِيه عَنَّـا ﷻ، ونسألُهُ أنْ يُبَلِّغَنَا رمضانَ؛ حتى نَظْفَرَ بفضائله ونفحاته. ﴿رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِـذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[البقرة:286]. اللهمَّ صلِّ على محمدٍ وعلى آل محمـدٍ، كما صَلَّيْتَ على إبراهيمَ وعلى آل إبراهيمَ، إنَّك حميدٌ مجيدٌ. اللهمَّ بَارِكْ علـى محمدٍ وعلى آل محمدٍ، كما بَارَكْتَ على إبراهيمَ وآل إبراهيمَ، إنَّك حميدٌ مجيدٌ. وآخِرُ دعوانا أنِ الحمدُ لله ربِّ العالمين.

---

[1]- مِنَ الأدلةِ التي تُؤَكِّدُ أنَّ الذي يَنْشَطُ ويَنْتَبِهُ عند فَشَلِ الناسِ وغَفْلَتِهِمْ، يكون له الفضلُ والأجرُ المضاعَفُ، أنَّ النبيَّ ﷺ رَتَّبَ أجرًا عظيمًا على عملٍ بسيطٍ، وهو ما جاء في قولـه ﷺ: ﴿مَنْ دخلَ السوقَ فقال: "لا إله إلا الله وحده لا شريكَ له، له الملكُ، ولـه الحمـدُ، يُحْيِي ويُمِيتُ، وهو حَيٌّ لا يموت، بِيَدِهِ الخيرُ، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ" كَتَبَ اللهُ له ألفَ ألفِ حسنةٍ، ومَحَا عنه ألفَ ألفِ سيئةٍ، ورَفَعَ له ألفَ ألفِ درجةٍ﴾[رواه الترمذي]. فهذا الفضلُ والأجرُ الكبيرُ قد تَرَتَّبَ على عملٍ بسيطٍ وهو ذِكْرٌ في كلماتٍ معدوداتٍ، ما كان ليكونَ لقائلِهِ لَوْلاَ أنَّهُ جاء به في موضعٍ قَلَّ ما يُذْكَرُ فيه اسمُ اللهِ تعالى وهو السوقُ. فعندما انْتَبَهَ هذا الذاكرُ وقتَ غفلةِ الناسِ استحقَّ ذاك الثوابَ العظيمَ.

الخطبة الحادية والعشرون

كيف نستقبلُ رمضانَ؟

يَحِلُّ علينا هذه الأيامُ ضيفٌ كريمٌ، وشهرٌ مباركٌ، إنه رمضانُ الفضيلُ، تُفْتَحُ فيه أبوابُ الجنةِ، وتُغْلَقُ أبوابُ النارِ، وتُسَلْسَلُ الشياطينُ، وتَتَنَــزَّلُ الرحمــاتُ، وتُعْتَقُ الرقابُ من العذاب، ويُنادي مُنَادٍ كلَّ ليلةٍ يا بَاغِيَ الخيرِ هَلُمَّ، ويا بَاغِيَ الشرِّ أَقْصِرْ، ولله فيه نَفَحَاتٌ من رحمته يُصيبُ بها مَنْ يشاءِ من عباده. فهو شهرٌ ليس كسائر شهورِ السنةِ، لا سِيَّمَا وأنه يَشْتَمِلُ على ليلةِ القدرِ التي هي خيرٌ من ألفِ شهرٍ. لذا كان لزامًا على المسلم الحريصِ على الظَّفَرِ بخــيرات رمــضانَ، والذي يريد أنْ يَتَعَرَّضَ لنفحات رحمةِ اللهِ فيه، أنْ يسألَ السؤالَيْنِ الآتييْنِ: كيف أستقبلُ رمضانَ الاستقبالَ اللاَّئقَ بعظمتهِ وشرفِهِ ومكانته الرفيعةِ عند اللهِ تعالى؟ وما الذي ينبغي أنْ أصنعَهُ فيه من أعمالٍ؟ ذلك أنه إنْ لم يَطْرَحْ هذيْنِ السؤالَيْنِ، سوف يدخلُ رمضانَ كدخولهِ سائرَ الشهورِ، ويَمُرُّ بأيامــهِ مــرورَ الكــرامِ، ويُوَدِّعُهُ بعد ذلك كما يُوَدِّعُ غيرَهُ من الشهور، ويَخْرُجُ منه بِخُفَّيْ حُنَــيْنٍ[1]، فيكون بذلك قد خَسرَ خسارةً عظيمةً، لا يُوقِعُ نفسَهُ فيها إلا شقــيٌّ محــرومٌ -نسألُ اللهَ العافيةَ والسلامةَ لجميع المسلمين-.

ولْيَعْلَمِ المسلمُ أنَّ الطريقةَ الْمُثْلَى -إنْ شاءَ اللهُ تعــالى- لاســتقبال شــهرِ رمضانَ، وما ينبغي أنْ يقومَ به فيه من أعمالٍ، يُمْكِنُ عرضُهُ في النقاط الآتيةِ:

---

[1]- تقولُ العربُ: "رَجَعَ بِخُفَّيْ حُنَيْنٍ"، وهو مثلٌ يُضْرَبُ لِمَنْ عادَ خائبًا، ولم يَظْفَرْ بــأيِّ هدفٍ من الأهدافِ التي كان يسعى لتحقيقِهَا.

1- شكرُ الله تعالى على نعمة إبقائه له على قَيْدِ الحياة إلى أن أدركَ رمــضانَ الكريمَ: ذلك أنَّ إخوانًا لنا نعرفُهم من الذكورِ والإناثِ، ومن الشبابِ والكهولِ والشيوخِ، قد بَاغَتَتْهُمُ الْمَنِيَّةُ، فلَمْ يَشْهَدُوا هذا الفضلَ الذي نَشْهَدُهُ نحــن في رمضانَ الحاليِّ، ولذا ينبغي أن يَسْتَشْعِرَ المسلمُ قلبيًّا هذه النعمةَ العظيمةَ التي ظَفَرَ بها، وأن يَلْهَجَ لسانُهُ بحمد الله تعالى على ذلك، وأن يُوَظِّفَ هذه الفرصةَ الربانيَّةَ فيما يُرْضِيهِ عنه جلَّ وعلاَ. ولا يُوَفَّقُ لشكرِ هذه النعمةِ إلا مَنْ عَرَفَ قَــدْرَهَا، ولذا أُثِرَ عن بعضٍ مِنْ سلفِنَا الصالحين أنهم كانوا يَظَلُّونَ يَدْعُونَ ربَّهــم بعــد رمضانَ أنْ يَتَقَبَّلَ منهم صيامَهُ وسائرَ طاعاتِهم فيه شَطْرَ العامِ، ثم يَظَلُّونَ يسألونَهُ في الشطرِ الثاني منه أنْ يُبَلِّغَهُمْ رمضانَ القادمَ؛ لِيُفيدُوا مِنْ بركاته.

2- أن يتوبَ من المعاصي التي كان واقعًا فيها: يقول اللهُ تعالى آمــرًا عبــادَهُ المؤمنين بالتوبة النصوح: ﴿يَا أَيُّهَا الَّــذِينَ آمَنُــوا تُوبُــوا إِلَــى اللَّــهِ تَوْبَــةً نَّصُوحاً﴾[التحريم:08]. والتوبةُ النصوحُ هي ما اجتمعت فيها ثلاثةُ شروطٍ: الندمُ على فعل المعصيةِ، والإقلاعُ عن فعلها، والعزمُ على عدم الرجوعِ إليهــا. وإذا كانتِ المعصيةُ متعلقةً بالعباد، فلا بُدَّ من شرطٍ رابعٍ، وهو إرجاعُ الحقوقِ إلى أصحابها. فهذه التوبةُ مطلوبةٌ من المؤمن في كلِّ وقتٍ وحينٍ، إلا أنَّهَا تتأكَّدُ في مواسم الخيرِ، كما هو الحالُ بالنسبة لرمضانَ؛ ذلك أنَّ مواسمَ الخيرِ محطــةٌ يُهَيِّئُهَا اللهُ تعالى لعباده لتطهير أنفسِهم من دَنَسِ المعاصي، وتجديدِ العهدِ معــه ﷻ. وإذا كان الضيفُ من الأشخاص نَسْتَعِدُّ لاستقباله بكلِّ ما أُوتِينَــا مــن الوسائلِ التي يُمْكِنُ أن تُسْعِدَهُ، فمنْ بابِ أَوْلَى أن نَسْتَعِدَّ لاستقبال شــهرِ اللهِ الكريمِ، فنَتَطَهَّرُ من ذنوبنا، ونَتَحَلَّلُ من مظالمِ الناسِ التي علينا، حتى نُوَفَّــقَ إلى اغتنامهِ فيما يُقَرِّبُنَا من رَبِّنَا. أما إنْ أَبَى العاصي إلا أن يَبْقَى على معصيته، فإنه

ما قَدَّرَ رمضانَ حقَّ قَدْرِه، وأساءَ في حَقِّ ضيفِه الكريمِ أَيَّمَا إساءةٍ. ومِنْ شُؤْمِ المعصيةِ أنها تكون حائلاً بين صاحبِهَا الذي تَلَبَّسَ بها وبين سائرِ الطاعاتِ. وكلُّ واحدٍ مِنَّا يَعْرِفُ داءَهُ جيدًا، فبعضُنَا مُبْتَلًى بالصغائر، والبعضُ الآخَرُ بالكبائر. وبعضُنَا مُبْتَلًى بمعاصي القلبِ، والبعضُ الآخَرُ بمعاصي الجوارحِ. وبعضُنَا مُبْتَلًى بفعل المحظوراتِ الشرعية، والبعضُ الآخَرُ بترك الواجباتِ الشرعيةِ. فالجميعُ مَدْعُوُّنَ للتوبة وهم يستقبلُون هذا الموسمَ الفضيلَ.

3- الْحَذَرُ من الوقوع في بعض المعاصي التي دَرَجَ بعضُ الناسِ على فعلها في رمضانَ: ذلك أن بعضَهم بسببِ طغيانِ الهوى والنفسِ الأمارةِ بالسوءِ، يَستقبلون رمضانَ ويَخُصُّونَهُ بمعاصٍ معيَّنَةٍ، فيَسْتَحْدِثُونَ فيه ما يَسْتَحْدِثُونَ من فنونِ الفسادِ ممَّا لَمْ يكن لهم به عهدٌ في سائرِ شهورِ السنة. ومِمَّا يُعَظِّمُ إِثْمَهُ عند الله تعالى أنهم يفعلون ذلك مِنْ باب إحياءِ ليالي رمضانَ به. وكأنَّ الله تعالى شَرَعَ أنْ تُحْيَى ليالي رمضانَ بالأغاني الماجنةِ، أو الأفلام والمسلسلاتِ الخليعةِ، أو الْكلِيبَاتِ الساقطة، أو السّْكِيتْشَاتِ الفارغةِ التي تُميتُ القلبَ، أو السهراتِ المائعةِ التي تَتَخَلَّلُهَا الْغِيبَةُ والنميمةُ والميسرُ والدخانُ والشِّيشَةُ ورُبَّمَا الخمرُ والزِّنَى. وقُلْتُ إنَّ مثلَ هذه الأمورِ التي تَشيعُ في عددٍ من الأوساطِ إِنَّمَا تَحْصُلُ بسببِ الهوى وتَزْيِينِ النفسِ الأمارةِ بالسوءِ؛ لأنَّ الشياطينَ بريئةٌ منها في شهر رمضانَ، فقد كَفَانَا اللهُ تعالى بِمَنِّه وكَرَمِهِ شرَّهَا عندما سَلْسَلَهَا.

كما أنَّ بعضَهم يَتَخَلَّى عن إنسانيتِهِ في شهر رمضانَ الذي ما شُرِعَ فيه الصيامُ إلا لِتَتَحَرَّكَ في المسلم عاطفةُ الإحسانِ إلى إخوانه المحرومين، فيُغْدِقُ عليهم ممَّا أعطاهُ اللهُ تعالى من خيرات. يَتَخَلَّى هذا البعضُ عن إنسانيَّتِه، ويَتَحَوَّلُ إلى كائنٍ مفترسٍ -أكرمكُمُ اللهُ- عندما يُغْلِي أسعارَ بعضِ السلعِ

الاستهلاكيَّةِ التي تَعَوَّدَ الناسُ أنْ يَقْتَنُوهَا في رمضانَ، سواء كانت طعامًا أو لباسَ عيد. فهؤلاءِ نقول لهم: رِفْقًا بإخوانكم المسلمين، واتَّقُوا اللهَ تعالى فيهم، فــلا تأكلُوا أموالَهم بالباطل، فتتَحَمَّلُونَ أوزارًا مضاعَفَةً لَمَّــا أَثْقَلْــتُمْ كَــوَاهِلَهُمْ، وعَذَّبْتُمُوهُمْ في شهر الرحمةِ.

4- أن يعتقدَ بأنه سيقومُ فيه بعبادةٍ جليلةٍ هي الركنُ الرابعُ للإسلام: نقــول هذا؛ لأن بعضًا من المسلمين لا يصومُ رمضانَ إلا مسايرةً للناس، واســتجابةً لعُرْفِهِمْ السائدِ. وهذا الصنفُ من الناس هو الذي لا يكادُ الصيامُ يُحَقِّقُ فيــه مقاصدَهُ الساميةَ. لذا فالواجبُ في حقِّ المسلمِ أنْ يَسْتَحْــضِرَ وهــو يــستقبلُ رمضانَ أنه سيصومُ أيامَهُ تقربًا من الله تعالى، واستجابةً لأمرِهِ عندما قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُــمْ تَتَّقُونَ أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَــرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْــرٌ لَّــهُ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُــدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَــانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُــواْ الْعِــدَّةَ وَلِتُكَبِّــرُواْ اللّــهَ عَلَــى مَــا هَــدَاكُمْ وَلَعَلَّكُــمْ تَشْكُرُونَ﴾[البقرة:183-185]. بل ينبغي أن يَسْتَحْضِرَ أنَّ صومَ رمــضانَ الذي سيقومُ به هو الركنُ الرابعُ من أركان الإسلامِ الخمسةِ الــتي لا يُتَــصَوَّرُ إسلامٌ بدون واحد منها. يقول النبيُّ ﷺ في حديثِ جبريلَ الطويلِ: ﴿الإســلامُ أنْ تشهدَ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ، وأنَّ محمدًا رسولُ اللهِ، وتقيمَ الصلاةَ، وتُؤْتِيَ الزكاةَ، وتصومَ رمضانَ، وتَحُجَّ البيتَ إنِ استطعتَ إليه سبيلاً﴾[رواه مسلم].

5- أن يستحضرَ وهو يتعبَّدُ إلى الله تعالى بصوم رمضانَ الْحِكَمَ التي لأجلها شُرِعَ الصيامُ: إذ إنَّ الصيامَ فيه مَا فيه مِنَ المقاصدِ النبيلةِ، والأسرارِ العظيمةِ، التي إذا ما وَعَاهَا المسلمُ، وجعلها نَصْبَ عينيْهِ، أَقْبَلَ عليه وهو منشرحُ الصدرِ، متفاعلاً إيجابًا مع تشريعِهِ، مُسْتَبْسِطًا بل مُسْتَعْذِبًا ما يُكَابِدُهُ فيه من جوعٍ أو عطشٍ أو حرمانٍ من شهواتِ نفسِهِ. فمِنْ بين هذه الْحِكَمِ الجليلةِ الْمُتَوَخَّاةِ من تشريعِهِ:

- تحصيلُ الأجرِ العظيمِ، والثوابِ الجزيلِ، والفضلِ الكبيرِ؛ ذلك أن الله تعالى يقول في الحديث القدسي: ﴿كلُّ عملِ ابنِ آدمَ له، إلا الصومُ فإنه لي وأنا أَجْزِي به. والصيامُ جُنَّةٌ[1]. فإذا كان يومُ صومِ أحدِكم، فلا يَرْفُثُ، ولا يَصْخَبُ. فإنْ سَابَّهُ أحدٌ، أو قَاتَلَهُ، فلْيَقُلْ: إني صائمٌ، إني صائمٌ. والذي نفسُ محمدٍ بيدِهِ لَخَلُوفُ فمِ الصائمِ أطيبُ عند اللهِ مِنْ ريحِ المسكِ. للصائمِ فرحتانِ يَفْرَحُهُمُا: إذا أفطرَ فَرِحَ بفطرِهِ، وإذا لَقِيَ ربَّهُ فَرِحَ بصومِهِ﴾[رواه الشيخان].

- تحسيسُ الغنِيِّ عندما يَتَجَرَّعُ أَلَمَ الجوعِ والعطشِ من خلال صيامِهِ بحالِ إخوانِهِ من الفقراءِ، الذين يَتَجَرَّعُونَهُ على مدارِ السنةِ، الأمرُ الذي يَدْفَعُهُ إلى الإحسان إليهم، والتضامنِ معهم ماديًّا ومعنويًّا.

- توليدُ قوةِ الإرادةِ، وتعليمُ الصبرِ، والتدريبُ على استحضار الرقابةِ الدائمةِ للهِ تعالى على العبدِ؛ ذلك أن الصائمَ لا يستطيعُ أن يتركَ شهوتَيِ البطنِ والفرجِ وهو في أَمَسِّ الحاجةِ إليهما، إلا إذا قَوَّى إرادتَهُ، وصَابَرَ، واسْتَيْقَنَ أنَّ اللهَ يَرَاهُ.

---

[1]- الصومُ جُنَّةٌ: أي وقايةٌ من العديدِ من الأمراضِ في الدنيا، ووقايةٌ من عذابِ اللهِ تعالى في الآخرة.

- إِرَاحَةُ معدته التي تشتغلُ طُولَ السنةِ دون انقطاعٍ، ومِنْ ثَمَّةَ يُمْنَحُ الجسدُ صحةً وعافيةً؛ لأنَّ المعدةَ بيتُ الداءِ، فإذا صَحَّتْ انعكسَ ذلك إيجابًا على سائرِ الجسد.

6- أن يُسَطِّرَ لنفسه برنامجًا مكثفًا للطاعة فيه: فلو فرضْنَا أنَّ إنسانًا سَاقَهُ القدرُ إلى بلادٍ سياحيةٍ معيَّنَة، وكانت إقامتُهُ فيها محدَّدَةً بأيامٍ معدودات، فإنه إنْ كان حَاذِقًا سيجعلُ لنفسه برنامجًا مكثفًا مدقَّقًا؛ حتى يطلعَ على أهمِّ المعالِمِ السياحيةِ الموجودةِ في تلك المنطقةِ التي ربما لا تَتَسَنَّى له فرصةٌ ثانيةٌ لزيارتها. ولله المثلُ الأعلى، فإنَّ الأمرَ نفسَهُ بالنسبة لموسمِ رمضانَ الذي قد لا يَشْهَدُهُ المسلمُ مرةً أخرى في حياته، بل على فَرَضِ أن الله تعالى أطالَ في عمره، وشَهِدَهُ مراتٍ عديدةً، فإنه في كلِّ مرةٍ سيَغْتَنِمُهُ اغتنامًا كبيرًا؛ استزادةً من الأجر، وطلبًا للمنازلِ الرفيعةِ في الجنة. لذا فإنَّ المسلمَ العاقلَ اللبيبَ وهو يستقبلُ شهرَ الخيرِ والبركاتِ، عليه أن يُشَمِّرَ على ساعدِ الْجِدِّ، ويُسَطِّرَ برنامجًا ثريًّا بالطاعات.

وينبغي أن يَتَضَمَّنَ هذا البرنامجُ بعد القيام بالأصلِ والصومُ الأمورَ الآتيةَ:

- الانضباطُ في صلاة التراويحِ، فلا يُفَوِّتُ منها شيئًا؛ حتى يُدْرِكَ فضلَهَا العظيمَ الذي قال عنه النبيُّ ﷺ: ﴿مَنْ قامَ رمضانَ إيمانًا واحتسابًا، غُفِرَ له ما تقدَّمَ من ذنبِهِ﴾[رواه الشيخان]، وحتى يَتَشَرَّفَ بسماعِ القرآنِ الكريمِ كاملاً مِنْ في قارئٍ متقنٍ.

- جعلُ وردٍ من القرآن الكريمِ لا يَقِلُّ عن جزءٍ واحدٍ، يتلوه تلاوةً ذاتيةً متأنيةً مقرونةً بالتدبرِ في ألفاظه ومعانيه؛ وذلك حتى يُوَاكِبَ شهرَ القرآنِ بالعنايةِ بالقرآنِ، ويتمكَّنَ من خَتْمِه مرةً واحدةً على الأقلِّ، ولكَيْ يَظْفَرَ بفضائل القرآنِ الكثيرةِ التي منها ما بَشَّرَ به النبيُّ ﷺ في قوله: ﴿مَنْ قرأَ حرفًا مِنْ كتابِ اللهِ فلهُ

به حسنةٌ، والحسنةُ بعشرِ أمثالِها، لا أقول "أَلَمِّ" حرفٌ، ولكن: أَلِفٌ حــرفٌ، ولاَمٌ حرفٌ، ومِيمٌ حرفٌ﴾[رواه الترمذي].

– الإكثارُ من الدعاء حالَ الصومِ، وعند الإفطارِ، ووقتَ السَّحَرِ؛ فإنَّ ذلــك أَدْعَى لإجابتِهِ. ومِنْ لطائفِ القرآنِ الكريمِ أنه لَمَّا رَغَّبَ المؤمنين في الــدعاءِ، جعلَ آيةَ الترغيبِ فيه وَسَطَ آياتِ الصيامِ، في إشارةٍ منه إلى أنَّ عبادةَ الــدعاءِ ملازمةٌ لعبادة الصيامِ، التي ينبغي أن لا تَنْفَكَّ عنه. قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[البقرة:186].

– تفطيرُ الصائمين؛ لِمَا ثبتَ في ذلك من الأجرِ الكبيرِ، يقول عنه الــنبيُّ ﷺ: ﴿مَنْ فَطَّرَ صائمًا، كان له مثلُ أجرِهِ، غيرَ أنه لا يُنْقِصُ مِــنْ أجــرِ الــصائمِ شيئًا﴾[رواه الترمذي وابن ماجة].

هذه هي أهمُّ الأمورِ التي ينبغي أن تُرَاعَى؛ حتى نستقبلَ رمضانَ بما يَلِيقُ بــه من الاستقبالِ. ولْنَحْذَرْ من تلك الظاهرةِ السَّلْبِيَّةِ التي تُشْغِلُنَا عن مثل هذه المعاني الساميةِ، وهي استقبالُ رمضانَ بالتخطيط والتحضيرِ للأطعمةِ والأشربةِ؛ ذلك أنَّ رمضانَ هو شهرٌ للتقليلِ من الأكل والشربِ، لا للتُّخْمَةِ والاِرْتَوَاءِ، وهــو شهرٌ للاقتصادِ والتقليلِ من المصاريفِ، لا للتبذيرِ والإسرافِ.

نسألُ اللهَ جلَّ وعلاَ أن يُبَلِّغَنَا رمضانَ، وأن يوفقَنَا إلى اغتنامه فيمــا يُحبُّــهُ ويرضاه. اللهمَّ أَعِنَّا على ذكرِكَ وشكرِكَ وحُسْنِ عبادتِكَ، وتقبَّلْ مِنَّــا ســائرَ صالحاتِنَا، واغفرْ ذنوبَنَا، وتجاوزْ عن سيئاتِنَا؛ إنك وَلِيُّ ذلك والقادرُ عليه، أقولُ قولي هذا، وأستغفرُ اللهَ العظيمَ لي ولكم من كلِّ ذنبٍ، فاستغفروه؛ إنــه هــو الغفورُ الرحيمُ، والحمدُ للهِ ربِّ العالمين.

الخطبة الثانية والعشرون

خُطَّةٌ عمليَّةٌ للثباتِ على الطاعةِ بعد رمضانَ[1]

ها هو شهرُ رمضانَ الكريمُ الفضيلُ يَرْتَحِلُ، فتذهبُ معه كثيرٌ من الخيراتِ والنَّفَحَاتِ والبركاتِ. وها هو شهرُ شوالَ يَحِلُّ علينا. فهل سَنَثْبُتُ على الهدايةِ والطاعةِ بعد رمضانَ؟ وهل أَهَّلَنا صيامُ رمضانَ لنَكُونَ من المتقين على مدارِ العامِ؟[2] وهل نحن مِن عُبَّادِ رمضانَ، أمْ من عُبَّادِ اللهِ ﷻ؟ هذا ما ستُجِيبُ عنه حالةُ المسلمِ بعد رمضانَ.

وحتى تكونَ الإجابةُ بلسانِ الحالِ مُوَفَّقَةً، ومِنْ باب تطبيقِ قولِ النبيِّ ﷺ: ﴿الدينُ النصيحةُ﴾. فقال الصحابةُ ﷺ: "لِمَنْ يا رسولَ اللهِ؟" فقال: ﴿للهِ ولكتابِهِ ولرسولِهِ ولأئمةِ المسلمين وعامتِهِمْ﴾[رواه مسلم]، أحاولُ أن أَعْرِضَ بين يديْ إخواني وأخواتي في الله تعالى خطةً عمليةً، فيها عناصرُ في مُتَنَاوَلِ

---

[1]- هذه الخطبةُ يُمْكِنُ أن تُلْقَى في جمعةِ الأسبوعِ الأخيرِ من رمضانَ، أو في جمعةِ الأسبوعِ الأولِ من شوال. كما يُمْكِنُ أن تكونَ هي خطبةُ عيدِ الفطرِ المباركِ؛ وذلك حتى يُسْهِمَ الأخُ الخطيبُ في تثبيتِ إخوانِهِ على الطاعة، حيث إنَّنا نلاحظُ بُعَيْدَ رمضانَ مباشرةً تطليقًا للمساجد عند عددٍ مُعْتَبَرٍ من الناس، وهجرًا للقرآن، وعزوفًا عن سائر الطاعاتِ التي كانوا يجتهدون في الإتيان بها في رمضان، ورجوعًا إلى ما كانوا عليه من المعاصي قبلَهُ.

[2]- فيه إشارةٌ إلى المقصدِ الأسْمَى من تشريعِ الصومِ، وهو إعدادُ المسلمِ لِيَكُونَ من المتقين الخائفين من الله تعالى، الذين يَقِفُونَ عند حدودِهِ، ويَسْتَحْضِرُونَ رقابتَهُ لهم في كلِّ مكانٍ، وفي أَيِّ زمانٍ. وهو ما صَرَّحَ به تعالى عندما قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[البقرة:183].

أغلبِ الناسِ[1] بإذنِ اللهِ تعالى، بحيثُ إذا ما رَعَاهَا المسلمُ، وسارَ على نَسَقِهَا طولَ العامِ، كان مِمَّنْ تخرَّجَ من مدرسةِ رمضانَ بتقديرٍ حسنٍ، وعُدَّ عندَ اللهِ تعالى مِنَ الثَّابتِينَ على الهدايةِ والطاعةِ بعد رمضانَ.

وقبلَ أن أَعْرِضَ عناصرَ هذه الخطةِ أريدُ أن أُقَرِّرَ حقيقةً شرعيةً وواقعيةً أَلاَ وهي: إنَّ رمضانَ إذا ارتحلَ يذهبُ معه ذلك الجوُّ الْإِيمَانيُّ الْعَارِمُ الذي خَصَّهُ اللهُ تعالى به، والذي كان يُخَيِّمُ على الناس جميعًا. ولذا لا يُنْتَظَرُ مِنَ المسلمِ أن يكونَ على الْوَتِيرَةِ نفسِهَا بعد رمضانَ، فهذا مَطْلَبٌ صَعْبُ الْمَنَالِ، لا يكونُ إلا مِنْ خوَاصِ الناسِ. ولكنِ المطلوبُ منه أن لا يَتَخَلَّى عن أكثرِ الطاعاتِ التي كان يقوم بها في رمضانَ، وأن لا يُطْلِقَ الْعِنَانَ لنفسه فتَقْتَرِفَ ما شاءتْ من المعاصي والمنكراتِ، فهذه هي الانتكاسةُ التي لا تُقْبَلُ منه. ولذا سنقترحُ برنامجًا يُمْكِنُ أن نَعْتَبِرَهُ الحدَّ الأدنى للثباتِ على الهدايةِ بعد رمضانَ، وفيما يأتي بيانٌ لعناصرِه:

1- إثباتُ صدقِ التوبةِ التي أعلنَهَا في بداية رمضانَ: فالمسلمُ الذي استقبلَ رمضانَ بالتوبة والرجوعِ إلى الله تعالى، عليه أن يُثْبِتَ بعد رحيلِ رمضانَ أنه كان صادقًا في توبته، وذلك بعدم الرجوعِ إلى اقترافِ المعصيةِ التي تَخَلَّى عنها قُبَيْلَ رمضانَ. وإلا فإنَّ انتكاستَهُ تُعَدُّ قدحًا في توبته، وتأكيدًا على أنها ما كانت نصوحًا، والله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً﴾[التحريم:08]. كما أنَّ في الانتكاسةِ إشارةً إلى أنه ما كان صادقًا

---

[1]- قلت: "في متناولِ أغلبِ الناسِ"، أي: منْ أصحابِ الهمةِ المتوسطةِ؛ لأنَّ صاحبَ الهمةِ العاليةِ لا تكفيه عناصرُ هذه الخطةِ، فيتطلَّعُ لِمَا هو أكثرُ وأحسنُ. كما أنَّ صاحبَ الهمةِ الْمُتَدَنِّيَةِ قد يستثقِلُهَا، فيَقْصُرُ عن الإتيانِ بها.

فيها عندما أعلنَها، واللهُ سبحانَهُ وتعالى يقولُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللَّـهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ﴾[التوبة:119].
2- استدامةُ استحضارِ رقابةِ اللهِ تعالى: إنَّ الأصلَ في المسلم أن يستحضِرَ رقابةَ اللهِ تعالى في كلِّ مكانٍ وفي كلِّ زمان، وعندئذ سيخافُهُ فلا يُبَارِزُهُ بالمعصية؛ لأنه يعتقدُ أنه ﷻ لا تخفى عليه خافيةٌ من أفعال وأقوالِ العبادِ. ولذا قال النبيُّ ﷺ: ﴿اتَّقِ اللهَ حيثُمَا كُنْتَ، وأَتْبِعِ السيئةَ الحسنةَ تَمْحُهَا، وخَالِقِ الناسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ﴾[رواه الترمذي]. فإذا كان الصائمُ في رمضانَ يتركُ الطعامَ وهو جوعان، ويَعْزِفُ عن الشرابِ وهو عطشان، ويُحْجِمُ عن إتيانِ أهلِهِ وهو يشتهيهم، بحيثُ لو وُضِعَ الطعامُ أو الشرابُ أو الأهلُ بين يديْهِ، وهو في أَمَسِّ الحاجةِ إليهم، وهو بعيدٌ عن أعينِ الناسِ، متواجدٌ في غرفةٍ مغلوقةٍ لا يراه فيها أحدٌ، فإنه لا يسمح لنفسه أبدًا أن تأكلَ أو تشربَ أو تُجَامِعَ. فإذا كان الصائمُ لا يفعلُ ذلك إلا لأنه يعتقدُ أنَّ اللهَ تعالى يراه، فإنه ينبغي عليه أن يَسْحَبَ معه هذا المعنى الذي رَسَّخَهُ فيه الصيامُ في رمضانَ إلى سائر شهورِ السنةِ، بحيث يقولُ لنفسه كلما حَدَّثَتْهُ بالمعصيةِ: إنْ كُنْتِ في حال الصيامِ تَتْرُكِينَ الحلالَ وهو الأكلُ والشربُ وإتيانُ الأهلِ؛ لأنك تعتقدين أنَّ اللهَ يراكِ، فمِنْ بابِ أَوْلَى أنْ تَتْرُكِي الحرامَ؛ لأنَّ الذي كان يراكِ في رمضانَ، لا يَزَالُ يراكِ في غيره من أشهرِ السنة، فهو ﷻ الحيُّ القيومُ السميعُ البصيرُ العليمُ الخبيرُ.
3- الحفاظُ على صلاة الجماعة: إذ إنَّ المسلمَ الذي عَمَّرَ بيوتَ اللهِ تعالى في رمضانَ، وواظبَ على صلاة الجماعةِ في المسجد، عليه أن يواصلَ هذه المسيرةَ المباركةَ؛ تحقيقًا للأمور الآتيةِ:

– القيامُ بالواجب المتمثِّلِ في أداءِ الصلاةِ المفروضةِ في جماعةٍ، فهذا هو الأرجحُ من أقوال أهلِ العلمِ؛ بدليل أنَّ النبيَّ ﷺ ما رَخَّصَ في تركها للأعمى الذي جاءه فقال: "يا رسولَ اللهِ، إنه ليس لي قائدٌ يَقُودُني إلى المسجد"، فسأل رسولَ اللهِ ﷺ أن يُرَخِّصَ له فيصلي في بيته، فرَخَّصَ له. فلَمَّا وَلَّى، دَعَاهُ فقال: ﴿هلْ تسمعُ النداءَ بالصلاةِ؟﴾ قال: "نعمْ". قال: ﴿فَأَجِبْ﴾[رواه مسلم]. فإذا كان الأعمى لا يُرَخَّصُ له في ترك صلاةِ الجماعةِ، فما بَالُكَ بالبصيرِ الْمُعَافَى.

– تحصيلُ الأجرِ العظيمِ الذي أخبرَ عنه النبيُّ ﷺ بقوله: ﴿صلاةُ الجماعةِ أفضلُ مِنْ صلاةِ الْفَذِّ بسبعٍ وعشرين درجةً﴾[رواه الشيخان].

– الاقتداءُ بالسلف الصالحين الذين كانوا يُعْنَوْنَ بصلاة الجماعةِ أَيَّمَا عناية، حتى إنَّ بعضَهم كان يَذْكُرُ عن نفسه بأنه لم يَرَ ظهرَ مصلٍّ قَطْ غير الإمامِ منذُ كذا سنةٍ[1]. ولا يَصْلُحُ آخرُ الأمةِ الإسلاميةِ إلا بمَا صَلُحَ به أَوَّلُهَا.

4- جَعْلُ وِرْدٍ يوميٍّ مِنَ النوافلِ: ذلك أنَّ شأنَ النوافلِ عظيمٌ؛ فهي تَجْبُرُ النقصَ الذي يكونُ من المسلم عند قيامِهِ بالفريضة، ويُسْتَزَادُ بها مِنَ الأجرِ، وتَجْلِبُ محبةَ الربِّ تبارَكَ وتعالى للعبدِ. يقول النبيُّ ﷺ: ﴿وما تَقَرَّبَ إِلَيَّ عبدي بشيءٍ أَحَبّ إِلَيَّ مِمَّا افترضتُهُ عليه، ولا يَزَالُ عبدي يتقرَّبُ إِلَيَّ بالنوافلِ حتى أُحِبَّهُ. فإذا أَحْبَبْتُهُ كنتُ سمعَهُ الذي يسمعُ به، وبصرَهُ الذي يُبْصِرُ به، ويَدَهُ التي يَبْطِشُ بها، ورجلَهُ التي يمشي بها، ولَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، ولَئِنِ استعاذَنِي لَأُعيذَنَّهُ﴾[رواه البخاري]. وبمَا أنَّ النوافلَ من العباداتِ كثيرةٌ، وحتى لا تَتَشَعَّبَ الأمورُ على المسلم، فإنَّني أَقْتَرِحُ عليه المحافظةَ على ما يأتي:

[1]– في هذا الموقفِ إشارةٌ إلى أنَّ صاحبَهُ لم يَكْتَفِ بالحفاظ على صلاة الجماعةِ فقط، بل كان حريصًا على الصف الأولِ، بحيث لم يتخلَّفْ عنه أبدًا.

– صلاةُ الضُّحَى، والرواتبُ من الصلوات: ووقتُ الضحى يَبْتَـــدِئُ بارتفـــاع الشمسِ عن الْأُفُقِ قَدْرَ رُمْحٍ[1]، إلى قُبَيْلَ أن تكونَ في كَبِد السماءِ عند منتصف النهار. وعددُ ركعاتِهَا من اثنتيْنِ إلى ثَمَانِ ركعات. يقولُ عنها الـــنبيُّ ﷺ: ﴿لاَ يُحَافِظُ على صلاةِ الضُّحَى إلا أَوَّابٌ، وهي صلاةُ الْأَوَّابِينَ﴾[رواه الطبرانيُّ وابنُ خُزَيْمَةَ]. بينما الرواتبُ هي التي تكونُ قبلَ الصلواتِ المفروضةِ أو بعدَهَا، وقد بَيَّنَهَا صلواتُ اللهِ عليه وسلامُهُ بقوله: ﴿مَنْ ثَابَر عن ثِنْتَيْ عشــرةَ ركعـــةٍ في اليوم والليلةِ، دخـــلَ الجنةَ: أربعًا قبلَ الظهرِ، وركعتيْنِ بعدها، وركعتيْنِ بعـــد المغربِ، وركعتيْنِ بعد العشاءِ، وركعتيْنِ قبل الفجرِ﴾[رواه النَّسَائِيُّ والترمذيُّ وابنُ ماجةَ].

– صدقةٌ أسبوعيةٌ أو شهريةٌ تُوضَعُ في مشروعٍ خيريٍّ معيَّنٍ، أو تُعْطَى إلى فقيرٍ محدَّدٍ: أنصحُ بهذا؛ حتى لا يَبْقَى أَمْرُ إخراجِهَا مفتوحًا، وثَمَّةَ قد يُنَسَّاهَا المسلمُ، فيُحْرَمُ مِنْ فضائلِهَا الكثيرةِ، التي منها ما أَخْبَرَ به النبيُّ ﷺ عندما قال لمُعَاذِ بنِ جبلٍ رضي الله عنه: ﴿أَلاَ أَدُلُّكَ على أبوابِ الخيرِ؟ الصومُ جُنَّةٌ، والصدقةُ تُطْفِئُ الخطيئـــةَ كما يُطْفِئُ الماءُ النارَ، وصلاةُ الرجلِ في جَوْفِ الليلِ﴾[رواه الترمذيُّ].

– صيامُ الستِّ من شوالَ، وثلاثةِ أيامٍ من كلِّ شهرٍ: ذلك أنَّ هذا الصيامَ مِـــنْ شأنه أن يجعلَ المسلمَ في مراجعةٍ مستمرةٍ للدروس التي أخذَهَا من صوم رمضانَ. يقولُ النبيُّ ﷺ: ﴿مَنْ صَامَ رمضَانَ، ثُمَّ أَتْبَعَهُ بِستٍّ مِنْ شوالَ، فكأَنَّمَـــا صَـــامَ الدهرَ﴾[رواه أبو داودَ وابنُ ماجةَ]. وثَبَتَ عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: "أَوْصَانِي

[1]– قَدْرُ رُمْحٍ هو ما يُساوي تقريبًا عشرين دقيقةً من بدايةِ ظهورِ قُرْصِ الشمسِ في الْأُفُقِ.

خَلِيلِي ﷺ بصيام ثلاثةِ أيامٍ مِنْ كلِّ شهرٍ، وركعتَيِ الضُّحَى، وأنْ أُوتِرَ قبلَ أنْ أَرْقُدَ"[رواه الشيخان].

– أذكارُ الصباحِ والمساءِ والنومِ وأدبارِ الصلواتِ المكتوبةِ: إذ إنَّ الذكرَ يجعلُ المسلمَ في صِلَةٍ دائمةٍ مع الله تعالى، الأمرُ الذي يُحَصِّنُهُ من كَيْدِ شياطِينِ الإنسِ والجنِّ، ويبعثُ في نفسه الراحةَ والطمأنينةَ. يقولُ اللهُ تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[الرعد:28]. ولذا لَمَّا قال الأعرابيُّ للنبيِّ ﷺ: "يا رسولَ اللهِ، إنَّ شرائعَ الإسلامِ قد كَثُرَتْ عليَّ، فأخبرني بشيءٍ أَتَشَبَّثُ به[1]؟" وَصَفَ له صلواتُ اللهِ عليه وسلامُهُ استدامةَ الذكرِ قائلاً: ﴿لاَ يَزَالُ لسانُكَ رَطبًا مِنْ ذِكْرِ اللهِ﴾[رواه الترمذيُّ]. وإنَّمَا رَكَّزْتُ على الأذكارِ الآنفةِ الذكرِ؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ منها يَشْتَمِلُ على صيغٍ متعددةٍ من الذكرِ، يَأْتِي بها المسلمُ في موضعٍ واحدٍ، لا يَسْتَغْرِقُ منه تقريبًا أكثرَ من عشرِ دقائقَ.

– ختمةٌ شهريةٌ للقرآنِ الكريمِ: ذلك أنَّ القرآنَ يُبَيِّنُ للذي يَتْلُوهُ متدبِّرًا طريقَ الحقِّ لِيَسْلُكَهُ، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾[الإسراء:09]، ويَمْنَحُهُ عافيةً في البدن، وطمأنينةً في النفس، قال ﷻ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[الإسراء:82]، وفي ساعةِ الحسابِ يُدَافِعُ عنه بين يديِ اللهِ تعالى، قال النبيُّ ﷺ: ﴿اقْرَؤُوا القرآنَ؛ فإنه يأتي يومَ القيامةِ شفيعًا لأصحابِهِ﴾[رواه مسلمٌ]. وحتى يَتَمَكَّنَ المسلمُ من ختمةٍ كاملةٍ شهريًّا، ينبغي أن يكونَ وِرْدُهُ اليوميُّ جُزْءًا كاملاً –حزبيْنِ–، وهذا الجزءُ لا يأخذُ منه في المتوسطِ أكثرَ من ثُلُثَيْ ساعةٍ.

---

[1]– أتشبَّثُ به، أي: أَتَعَلَّقُ به فلا أتركُهُ.

5- سماعُ موعظةٍ أسبوعية: ذلك أنَّ المسلمَ يحتاجُ إلى مَنْ يُذَكِّرُهُ بالله تعالى، فيَتَعَرَّفُ من خلالِ ذاك التذكيرِ على الحلالِ ليَأْتِيَهُ، وعلى الحرامِ ليَجْتَنِبَهُ، ويَقِفُ على القصصِ والمواعظِ ليَأْخُذَ العبرةَ منها، ويُجَالِسُ الصالحين لِيَقْتَدِيَ بهم، ويُثَبِّتُوهُ على الهداية. ولا يكون هذا في الأغلبِ إلا في مجالسِ العلمِ والوعظِ والإرشادِ التي تُعْقَدُ في المساجد، فيشهدُهَا المسلمُ مباشرةً، أو التي تُعْرَضُ على القنواتِ الفضائيةِ الطيبةِ، فيَظْفَرُ بكثيرٍ مِنْ خيرِهَا، وإنْ لَمْ يجلسْ مع أهلِها حقيقةً. وثَمَّةَ يَجِدُ المسلمُ نفسَهُ أنه قد حَقَّقَ بها صفةً من صفاتِ عبادِ الرحمنِ التي قال عنها تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً﴾[الفرقان:73].

أسألُ اللهَ العليَّ العظيمَ أنْ يُثَبِّتَنَا على طاعته، وأن يتقبَّلَ منَّا سائرَ صالحاتِنَا. اللهمَّ اجعلْنَا رَبَّانِيِّينَ، ولا تجعلْنَا رمضانِيِّينَ. اللهمَّ يا مُقَلِّبَ القلوبِ ثَبِّتْ قلوبَنا على دينك. اللهمَّ حَبِّبْ إلينا الإيمانَ وزَيِّنْهُ في قلوبنا، وكَرِّهْ إلينا الكفرَ والفسوقَ والعصيانَ، واجعلْنَا من الراشدين المهدِيِّينَ. ﴿رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾[آل عمران:08]. ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الصافات:180-182].

الخطبة الثالثة والعشرون

بعضٌ مِنْ أخطاءِ المسلمين المتعلِّقَةِ بالحجِّ[1]

إنَّ الحجَّ إلى بيت اللهِ الحرامِ بمكةَ مِنْ شعائرِ الإسلامِ الكـــبرى، ومعالمـــه الظاهرةِ. وما شَرَعَ اللهُ تعالى الحجَّ إلا لِيُحَقِّقَ في جماعة المسلمين وآحَادِهِمْ جملةً من المقاصدِ الجليلةِ، والأهدافِ الساميةِ. فمنْ بين تلك المقاصدِ والأهدافِ:

– إتاحةُ فرصةٍ للمسلمين مِنْ مُخْتَلَفِ أماكِنِهِمْ وأجناسِهِمْ وألوانِهِمْ وألسنتِهِمْ للالتقاءِ والتعارفِ، وتَمْتِينِ العلاقاتِ فيما بينهم، وتذكيرِهِمْ بأنهم أمةٌ واحدةٌ، يَعبدون ربًّا واحدًا، ويَتَّبِعُونَ رسولاً واحدًا، ويَعتمدون كتابًا واحدًا، ويَستقبلون قبلةً واحدةً، ويَجتمعون سنويًّا في مكانٍ واحدٍ، لِيُؤَدُّوا مناسكَ واحدةً.

– تقويةُ إيمانِ المسلمِ؛ ذلك أنَّ الحاجَّ عندما يذهب إلى البقاع المقدسةِ، ويَـــرَى مسقطَ رأسِ نبيِّه ﷺ، ومُنْطَلَقَ الرسالةِ المحمديةِ، والبيتَ العتيقَ وما يَحْمِلُهُ مـــن ذكرياتِ أبينا إبراهيمَ وابنِهِ إسماعيلَ وزوجِهِ هَاجَرَ عليهم السلام، عند ذلـــك يَجدُ زيادةً في إيمانه؛ لأنه حِينَذَاكَ يكون قد ارتبطتْ نفسُهُ بأماكنَ وشخصياتٍ كلِّهَا تَشعُّ بالإيمان والتوحيدِ.

---

[1] – نظرًا لطولِ هذه الخطبةِ، فإنني أنصحُ الأخَ الخطيبَ أن يختارَ بعضًا من عناصرِهَا فقـــط، أو أن يجعلَهَا في جمعتيْنِ متتاليتَيْنِ. أو أن يختارَ بعضًا مِمَّا جاء فيها لِيُوَاكِبَ به حجةَ ســـنة معينَةٍ، والبعضُ الآخرُ منها يُرْجِئُهُ ليواكبَ به حجةَ سنةٍ أُخْرَى. أنصحُ بهذا؛ حتى لا يُثْقِـــلَ الخطيبُ على مُخَاطَبِيهِ فيَمُجُّونَ كلامَهُ رغمَ أهمِّيَّتِهِ.

- تذكيرُ المسلمِ بالموتِ والآخرةِ؛ وهذا يُلاَحَظُ من خلال تَرْكِ الحاجِّ -كما يَتْرُكُ الميتُ- الأهلَ والأحبابَ والأموالَ والأوطانَ، والسفرِ والتفرُّغِ لأداء مناسكِ الحجِّ. وكذا عندما يَنْزِعُ الرجلُ لباسَهُ المعتادَ الْمَخيطَ، ويَرْتَدي لباسَ الإحرامِ الأبيضَ غيرَ الْمَخيطِ الذي أَشْبَهُ ما يكونُ بالْكَفَنِ. وحِينَ يَقِفُ جميعُ الحجاجِ ذكورًا وإناثًا وهم ألوفٌ في عَرَفَةَ، يكونُ جمعُهُمْ صورةً مُصَغَّرَةً لساحةِ الْمَحْشَرِ وعَرَصَاتِ القيامةِ.

- تحصيلُ الفضلِ العظيمِ، ونَيْلُ الثوابِ الجزيلِ، الذي يتمثَّلُ في تكفير الذنوبِ، والظَّفَرِ بالجنة. يقول النبيُّ ﷺ: «مَنْ حَجَّ فلم يَرْفُثْ ولَمْ يَفْسُقْ، رَجَعَ من ذنوبه كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»[رواه الشيخان]. ويقول أيضًا: «العمرةُ إلى العمرةِ كفارةٌ لِمَا بينهما. والحجُّ الْمَبْرُورُ ليس له جزاءٌ إلا الجنةَ»[رواه الشيخان].

والنَّاظِرُ في دنيا المسلمين اليومَ وعلاقتِهِمْ بالحج، سوف تَقَعُ عينُهُ على بعض الأخطاءِ التي يَقَعُونَ فيها؛ بسببِ الجهلِ بأحكامِ الشريعةِ المتعلقَةِ بالحج، وعدمِ معرفةِ أو استيعابِ المقاصدِ والأهدافِ التي لأجلها شُرِعَ. لذا أردتُ أنْ أَعْرِضَ بين يَدَيْ إخواني وأخواتي في الله تعالى أهمَّ هذه الأخطاءِ؛ من بابِ تصحيحِ المفاهيمِ والتصوراتِ، وكذا دعوةِ الْمُخْطِئِينَ إلى التوبة والرجوعِ إلى الصوابِ.

فمِنْ بين هذهِ الأخطاءِ:

1- تهاونُ بعضِ القادرين ماليًّا وجسديًّا عن أداءِ حجةِ الإسلامِ: فمِنَ المعلومِ مِنَ الدينِ بالضرورةِ أنَّ الحجَّ واجبٌ على كل مسلمٍ مُكَلَّفٍ قادرٍ القدرةَ الماليةَ والجسديةَ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ

الْعَالَمِينَ﴾[آل عمران:96-97]. بل إِنَّهُ مِنَ الأركانِ الخمسةِ التي لا يُتَصَوَّرُ إسلامٌ بدون واحدٍ منها؛ لقولِ النبيِّ ﷺ في حديثِ جبريلَ الطويلِ: ﴿الإسـلامُ أَنْ تشهدَ أَنْ لا إلهَ إلا اللهُ، وأَنَّ محمدًا رسولُ اللهِ، وتقيمَ الصلاةَ، وتُؤْتِيَ الزكاةَ، وتصومَ رمضانَ، وتَحُجَّ البيتَ إنِ استطعتَ إليه سبيلاً﴾[رواه مسلم]. وعلـى هذا، فإنَّ المسلمَ الحريصَ على الإتيانِ بواجبِه الشرعيِّ سيُبَادِرُ -إذا كان قادرًا- إلى أداءِ مناسكِ الحجِّ في أولِ فرصةٍ تُتَاحُ له. إلا أَنَّنَا نرى أَنَّ بعضًا من الشباب والكهولِ ومَنْ هُمْ على عَتَبَةِ الشيخوخةِ يتهاونون عن الأداءِ، رغم أنهم قادرون عليه ماديًّا وجسميًّا، حتى إنَّ بعضَهُمْ لا يكادُ يَتَصَوَّرُ الحجَّ إلا مِنْ شيخٍ هَـرِمٍ. فهؤلاء يُقَالُ لهم: اتقوا اللهَ في أنفسكم، وبَادِرُوا إلى الحجِّ؛ فإنكم لا تَدْرُونَ ما يَطْرَأُ عليكم من الظروفِ والأحوالِ، التي قد تَحُولُ بينكم وبين الحجِّ في حـال كِبَرِكُمْ. ولذا قال النبيُّ ﷺ: ﴿تَعَجَّلُوا إلى الحجِّ -يعني: الفريضة-؛ فإنَّ أحدَكُمْ لا يَدري ما يَعْرِضُ له﴾[رواه أحمد]. فكَمْ من إنسانٍ كان غنيًّا ثم افتقرَ، وكَمْ من شخصٍ كان صحيحًا مُعَافًى ثم مَرِضَ مرضًا أقعدَهُ. فهَذَانِ وأمثالُهما لو أنهم بَادَرُوا إلى الحج في حال الْغِنَى والصِّحَّةِ والفرصةِ السَّانِحَةِ، لَمَا حُرِمُوا منه بعد ذلك في حالِ الافتقارِ والمرضِ وفَوَاتِ الفرصةِ. بل إنَّ الـنبيَّ ﷺ لَمَّـا أرادَ أن يُرَهِّبَ مِنْ أمرِ التقاعسِ عن أداءِ الحجِّ قال: ﴿مَنْ مَلَكَ زَادًا وراحلةً تُبَلِّغُـهُ إلى بيت اللهِ ولم يَحُجَّ، فَلاَ عليه أن يموتَ يهوديًّا أو نصرانيًّا﴾[رواه الترمذي، وفيه ضَعْفٌ]. وعلى فَرَضِ أنَّ الحجَّ واجبٌ على التَّرَاخِي[1]، بحيث يُمْكِنُ للمسلم أن

[1]- مِنْ أهلِ العلمِ مَنْ يَعْتَبِرُ الحجَّ واجبًا على الفور في حقِّ القادرِ عليه. وعلى هذا القـولِ، فإنَّ الذي يُؤَخِّرُهُ يكون آثِمًا.

يُؤَدِّيَهُ في أيِّ وقتٍ من أوقاتِ عُمُرِه، فإنَّ المسارعةَ إليه مطلوبةٌ شرعًا؛ لعـــدةِ اعتبارات منها:

- الظَّفَرُ بأجرِ المبادرةِ إلى القيام بأفعال الْبِرِّ التي منها الحجُّ؛ لأنَّ اللهَ تعالى يُحِبُّ أن يرى تلك المبادرةَ مِنْ عباده، ولذا نَجِدُهُ في مواضعَ متعددةٍ من القرآن الكريمِ يَحُثُّ عليها. يقول تعالى: ﴿وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّــةٍ عَرْضُــهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[آل عمران:133]. ويقــول أيــضًا: ﴿فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعــاً فَيُنَبِّــئُكُم بِمَــا كُنــتُمْ فِيــهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[المائدة:48]. ويقول كذلك:﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[الحديد:21].

- أداءُ الحجِّ على الصورة الأكملِ، ولا يَتَأَتَّى ذلك في الأغلب إلا لِمَنْ كان في أَوْجِ قِوَاهُ الجسديةِ. ولذا نَجِدُ أنَّ مَنْ حَجَّ وهو شيخٌ كبيرٌ يتخلَّفُ عن الإتيــانِ ببعض الأعمالِ المشروعةِ في الحج، ويَضْطَرُّ إلى الاستنابةِ فيها، نَاهِيكَ عن بعض السُّنَنِ التي لا يَقْوَى على فعلها؛ بحكمِ العجزِ.

- تَحَسُّبٌ للموتِ الذي يأتي بغتةً. فكَمْ مِنْ شابٍّ أو كَهْلٍ كان بإمكانــه أن يَحُجَّ، ولكنه كان يُؤَجِّلُ ذلك، إلى أن جاءَتْهُ الْمَنِيَّةُ، وهو في عِــزِّ شــبابِهِ أو كهولتِهِ، فانتقلَ إلى ربِّهِ و لم يَأْتِ بحجةِ الإسلامِ، فيُحْرَمُ بذلك مِنْ خيرٍ كــثيرٍ كان سينالُهُ لو أنه حجَّ.

2- تكرارُ بعضِهِمْ للحجِّ مَرَّاتٍ عديدةً: إذ إنَّ بعضًا من المسلمين من مَيْسُورِي الحالِ من الناحية الماليةِ يَحُجُّ سنويًّا، أو سنةً بعد سنةٍ، أو في كلِّ أربعِ أو خمسِ

سنوات مرةً. فهؤلاء إذا أَحْسَنَّا بهم الظنَّ[1]، فإنَّنَا نَعتبرُ تصرُّفَهم خلافَ الْأَوْلى، خاصةً إذا كانوا من بلادٍ بعيدةٍ عن مكةَ، كما هو الحالُ بالنسبة لأهلِ الجزائرِ؛ وذلك لاعتباراتٍ كثيرةٍ منها:

- أنَّ أهلَ العلمِ قديمًا وحديثًا مُجْمِعُونَ على أنَّ الحجَّ واجبٌ على المسلم مـــرةً واحدةً في العمر؛ استدلاَلاً بحديث أبي هريرةَ ﷺ الذي قال فيه: "خَطَبَنَا رسولُ اللهِ ﷺ فقال: ﴿يا أيها الناسُ إنَّ اللهَ قد فَرَضَ عليكم الحجَّ، فَحُجُّوا﴾. فقـــال رجلٌ: "أَفي كلِّ عامٍ يا رسولَ الله؟" فسكتَ، حتى قَالَهَا ثلاثًا، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: ﴿لَوْ قلتُ "نَعَمْ" لَوَجَبَتْ، ولَمَا استطعتُمْ﴾"[رواه مسلم]. وعلى هذا فإنَّ مَنْ حجَّ مرةً واحدةً فقد قام بالواجب الشرعيِّ، وبَرِئَتْ ذِمَّتُهُ عند اللهِ تعالى، فما يكون منه بعد ذلك من حَجَّاتٍ فهو مِنْ قبيلِ النافلةِ.

- فَسْحُ مجالٍ لِمَنْ لم يَحُجَّ من إخوانه المسلمين؛ لأنَّ بعضَ البلدانِ تعتمدُ نظامَ القرعةِ لتحديدِ أعيانِ الذين سيَحُجُّونَ، فإذا ما أراد الذي حَجَّ مِنْ قبلُ تكرارَهُ، فإنه سيُزَاحِمُ إخوانَهُ مِمَّنْ لم يحجُّوا أصلاً، الأمرُ الذي يُقَلِّلُ من حظـــوظِهِمْ في الظَّفَرِ بفرصة الحجِّ. والأصلُ في المسلم أنْ يُحِبَّ لإخوانه المسلمين ما يُحِـــبُّ لنفسه.

- تخفيفُ الضغطِ على البقاع المقدسةِ، والقائمين على شؤونِ الحجاجِ من أهل الحرميْنِ الشريفيْنِ؛ ذلك أنَّ عددَ المسلمين في تزايدٍ مستمرٍّ، وهو الآن يُقَـــارِبُ المليارَ ونصفَ المليارِ، الأمرُ الذي يجعلُ عددَ الحجاجِ يتزايدُ في كل سنةٍ، حـــتى

---

[1]- وهذا هو الأصلُ في المسلم؛ إذ إنه لاَ يَظُنَّ بأخيه إلا خيرًا؛ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّـــذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾[الحجرات:12]. وحينئذٍ نَتَصَوَّرُ أنهم ما يُكَرِّرُونَ الحجَّ إلا طمعًا منهم في الاستزادةِ من الخيرِ.

أصبحَ يُعَدُّ بالملايين، مع أنَّ أماكنَ الشعائرِ محدودةٌ في مساحتها وقدرةِ استيعابِهَا، رغمَ التَّوْسِعَاتِ المتتاليةِ لها[1].

ولعلَّ الذي يُكَرِّرُ الحجَّ يريدُ أن يَتَأَسَّى ببعض السلفِ الصالحين الذين نُقِلَ عنهم في تَرَاجُمِهِمْ بأنهم كانوا يُكْثِرُونَ من الحج، حتى إنَّ بعضَهُمْ يكادُ عددُ حجاته يُقاربُ عددَ سِنِي عمرِهِ. فنُذَكِّرُ مَنْ له هذا القصدُ الطيبُ بأنَّ أولئك لهم مُسَوِّغَاتُهُمُ الكثيرةُ آنذاك، التي تختلفُ عن معطياتِ حياتِنَا المعاصرَةِ. فمِنْ بين تلك المسوغات:

– سُكْنَى بعضِهِمْ مكةَ، أو قريبًا منها، وحينئذٍ لا يكلِّفُهُ الأمرُ شيئًا. في الوقت الذي يَصْرِفُ فيه مَنْ أراد أن يُكَرِّرَ الحجَّ من أهل البلادِ البعيدةِ عن الحرمِ أموالاً طائلةً في الذهابِ والإيابِ والإقامةِ ومراسيمِ التوديعِ والاستقبالِ، هذه الأموالُ لو أنها صُرِفَتْ في مشاريعَ خيريةٍ يحتاجُهَا المسلمون في تلك البلدانِ، وفي إغناءِ فقرائِهِمْ –وما أكثرَهُمْ!–، وتزويجِ شبابِهم، ومَحْوِ أُمِّيَّتِهِمْ، ونشرِ الثقافةِ الصحيحةِ والعلمِ الشرعيِّ فيهم، لَكَانَ الأمرُ أفضلَ[2].

---

[1]– بناءً على هذا الاعتبارِ، فإنَّ مَنْ كان من بلادِ الحرميْنِ، أو قريبًا منها، يُعَدُّ مِنَ الخطأِ منه أيضًا تكرارُ الحجِّ؛ لِمَا يُشَكِّلُهُ من عبءٍ على أماكنِ الشعائرِ، ومَنْ سيَحُجُّ لأولِ مرةٍ.

[2]– مِمَّا يُذْكَرُ من فِقْهٍ نَيِّرٍ عن سلفِنَا الصالحين في هذا المجال: أنَّ عبدَ الله بنَ المبارَكِ –رحمه الله تعالى– كان في طريقِهِ رفقةَ عددٍ من أصحابِهِ إلى حجة نافلة، فإذا بعيْنِه تقعُ على بنتٍ صغيرةٍ تَجُرُّ ميتةً إلى مَأْوَاهَا، فاستكشَفَ الأمرَ، فعَلِمَ بأنها من أهلٍ قد أصبحوا مِمَّنْ أُحِلَّتْ لهمُ الميتةُ من أيامٍ؛ إذ إنهم فقراءُ، و لم يَجِدُوا قُوتَهُمْ، فاضْطُرُّوا إلى أكلِ الميتةِ. فما كان منه إلا أنْ أعطاهم نفقةَ الحجِّ، و لم يُبْقِ معه إلا ما يُمَكِّنُهُ مع رفقائِهِ من الرجوع إلى بلادهم، وقال لهم بلغةِ المؤمنِ الرحيمِ الفاهمِ الواعي: "تلك الصدقةُ هي حَجَّتُكُمْ هذا العام".

- كان أولئك السلفُ يَوَدُّونَ اغتنامَ موسمِ الحجِّ لقـضاء مـصالِحَ كـثيرةٍ، كالالتقاءِ بأهلِ العلمِ واستفتائِهِمْ، وكذا الأقاربِ وَصِلَتِهِمْ، ومعرفـةِ أحـوالِ إخوانِهم من المسلمين الذين تَنْقَطِعُ أخبارُهم لِبُعْدِ المسافاتِ بينهم، ونحوِ ذلـك مِنَ الأغراضِ المشروعةِ التي يَصْعُبُ عليهم بإمكاناتِ ذاك الزمانِ أن يُحَصِّلُوهَا في غيرِ موسمِ الحجِّ إلا بِشِقِّ الأنفسِ. أما نحنُ الآنَ فقد حَبَانَا اللهُ تعالى بوسائلَ اتصالٍ كثيرةٍ مريحةٍ وسريعةٍ وغيرِ مُكَلِّفَةٍ، تُمَكِّنُنَا من استفتاءِ علمائِنَا، وصـلةِ أقاربِنَا، ومعرفةِ أحوالِ إخوانِنَا في كل مكانٍ من بقاعِ الأرضِ، وقضاءِ مَآرِبِنَـا الكثيرةِ، ونحن في بيوتنا لا نَبْرَحُهَا.

لذا فإنَّ المسلمَ يكتفي بحجةِ العمرِ[1]، ويتركُ الفرصةَ لإخوانه مِمَّنْ لم يحجُّوا، ويُسَاهِمُ في التخفيفِ مِنْ حِدَّةِ الضغطِ الذي يجدُهُ الحجاجُ والقائمون علـيهم أثناءَ أدائِهم سائرَ المناسكِ. ولو أنَّ مَيْسُورَ الحالِ يتركُ تكـرارَ الحـجِّ وهـو يستحضرُ هذه المعانِيَ الساميةَ، مع أنَّ نفسَهُ تَتُوقُ إليه، فإنه بإذنه تعالى يَنَـالُ أجرًا عظيمًا على هذا المقصدِ النبيلِ.

3- سُلُوكُ بعضِهِمْ طريقًا محرمًا للتمكُّنِ من الحجِّ: ذلك أنَّ بعضًا من النـاس يكون مصدرُ رزقِهم مشبوهًا أو محرمًا، ومع ذلك يحجُّون به. ومنهم مَنْ يسلكُ الطرقَ المشروعةَ مراتٍ عديدةً للظَّفَرِ بتأشيرةِ الحجِّ، أو جوازِ سفرٍ إليه، ولكنهم لا يُوَفَّقُونَ إليه، فيَنْتَقِلُونَ إلى طرقٍ غيرِ مشروعةٍ للحصول علـى التأشـيرةِ أو الجوازِ، بحيث يُقَدِّمُونَ مبالغَ ماليةً إلى وُسَطَاءَ مُعَيَّنِينَ، لا يَهُمُّهُمْ إلا جمعُ المالِ،

---

[1]- ما يُقَالُ عن الحجِّ في هذا الخطأِ، يُقَالُ عن العمرةِ مِنْ بابِ أَوْلَى؛ لأنَّ الحـجَّ ركـنٌ، والعمرةُ سنةٌ.

واستغلالُ حاجاتِ الناسِ. فهؤلاء نقولُ لهم: إنكم أَوْقَعْتُمْ أنفسَكم في الحرام، وكَلَّفْتُمْ أنفسَكم ما لم يُكَلِّفْهَا اللهُ تعالى به؛ بدليل:

- أنَّهُ ﷻ عَلَّقَ الحجَّ على الاستطاعة، فمَنْ لم يجدِ الوسيلةَ المشروعةَ إليه، فهو معذورٌ ليس بمستطيعٍ؛ إذْ ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا﴾[البقرة:286].

- أنَّهُ تعالى لا يقبلُ منهم هذا الحجَّ الذي صُرِفَ عليه، أو تُوُسِّلَ إليه بالحرام، كما لا يقبلُ منهم ما يَتْبَعُ الحجَّ من أعمالِ الْبِرِّ الكثيرة. فقد صحَّ عن أبي هريرةَ ﵁ أنه قال: "قال رسولُ اللهِ ﷺ: «إنَّ اللهَ طيبٌ لا يَقْبَلُ إلا طيبًا، وإنَّ اللهَ أَمَرَ المؤمنين بما أَمَرَ به المرسلين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾[المؤمنون:51]. وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾[البقرة:172]. ثم ذَكَرَ الرجلَ يُطِيلُ السفرَ[1] أَشْعَثَ أَغْبَرَ[2] يَمُدُّ يديْهِ إلى السماءِ: "يا ربُّ، يا ربُّ"، ومطعمُهُ حرامٌ، ومَشْرَبُهُ حرامٌ، وملبسُهُ حرامٌ، وغُذِيَ بالحرامِ، فأنَّى يُسْتَجَابُ لذلك؟!"[رواه مسلم].

- أنَّ ما يُعْطَى إلى أولئك الاستغلاليِّينَ، يُعَدُّ من قبيلِ التعاونِ معهم على الإثم والعدوانِ الذي لا يَحِلُّ شرعًا؛ لأنهم سيُمَكِّنُونَهُمْ من مالٍ لا حقَّ لهم فيه. واللهُ تعالى يقولُ: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[المائدة:02].

وأغتنمُ الفرصةَ لأقولَ لِمَنْ هو قادرٌ على الحج ماديًّا وجسديًّا، ولكنَّهُ لم يَجِدِ الوسيلةَ المشروعةَ للتَّمَكُّنِ من أدائه، وكذا الذين لا يَمْتَلِكُونَ القدرةَ الماديةَ أو الجسديةَ للقيام به، أقولُ للجميع: إنَّ القاعدةَ الشرعيةَ عندنا نحنُ المسلمين أنَّ

---

[1]- على رأسِ الأهدافِ التي لأجلِهَا يسافرُ المسلمُ: أداءُ الحجِّ أو العمرة.

[2]- أَشْعَثَ أَغْبَرَ: أي جَعْدَ شعرِ الرأسِ، وقَدْ غَيَّرَ الغبارُ لونَ شعرِهِ؛ لطولِ سفرِهِ.

"الْمَرْءَ يَبْلُغُ بِنِيَّتِهِ ما لا يَبْلُغُ بعمله". فمَنْ كان يتطلَّعُ إلى الحج، ويسعى لأدائه، ولكنْ يحولُ بينه وبين الأداءِ حائلٌ، فإنه بفضلِ اللهِ وكرمِهِ يَحُوزُ أجــرَ الحــجِّ كاملاً دون أن يَحُجَّ؛ جزاءً على نِيَّتِهِ الطيبةِ الصادقة. ولذا ثَبَتَ عن أنسٍ بــنِ مالك رضي الله عنه أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ رَجَعَ من غزوة تَبُوك، فَدَنَا من المدينة فقال: ﴿إنَّ بالمدينة أقوامًا، ما سِرْتُمْ مَسيرًا، ولا قَطَعْتُمْ واديًا، إلاَّ كانوا معكم﴾. قالوا: "يا رسولَ اللهِ، وهُمْ بالمدينة؟" قال: ﴿وهُمْ بالمدينــة؛ حَبَــسَهُمُ الْعُــذْرُ﴾[رواه البخاري]. وأصحابُ الأعذارِ في هذه الغزوةِ هم الذين قال عنهم تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاء وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ وَلاَ عَلَــى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلاَّ يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾[التوبة:91-92]. فهؤلاء المعذورون رغم أنهم ما شَهِدُوا هذه الغزوةَ، إلا أنهم شَارَكُوا مَنْ شَهِدَهَا في الأجــر؛ لأنَّ اللهَ تعالى عَلِمَ منهم أنهم لَوْ لَمْ يَتَلَبَّسُوا بالعذرِ لَمَا تخلَّفُوا عنها.

4- الانشغالُ بالمباحاتِ أو المحرماتِ في البقــاعِ المقدســةِ، وعــدمُ العنايــةِ بالطاعاتِ: إذ إنَّ بعضًا مِمَّنْ يُوَفِّقُهُمُ اللهُ تعالى إلى الذهابِ البقاعِ المقدســةِ، لا يُعْنَوْنَ بالطاعات كثيرًا هناك، فَنَجِدُهم يتفرَّغُونَ للنوم في الفنادقِ أو الخيامِ، أو ينشغلون باقتناءِ السلع والبضائع، بل إنَّ بعضَهم يَقَعُونُ في الحرام فيَنْظُرُونَ إلى ما حَرَّمَ اللهُ تعالى وهم في الْحَرَمِ الشريفِ، ويَجلسون مجالسَ الْغِيبَةِ والميسرِ وهــم في صعيدِ عرفات. فهؤلاء نقول لهم: اتقوا اللهَ تعالى في أنفسكم، واعْلَمُوا أنَّكم مُنِحْتُمْ فرصةً ذهبيةً لا تُعَوَّضُ أبدًا، وأنَّ إثمَ المعصيةِ يتضاعَفُ في تلك البقــاعِ لشرفِهَا عن غيرها من بقاعِ الأرضِ، وفي ذاك الزمانِ مِنْ شهرِ ذي الحجةِ لفضْلِهِ

عن سائرِ أوقاتِ السنةِ، وأَنَّهُ كان مِنَ الْمُفْتَرَضِ فيكم وقد خَصَّكُمُ اللهُ تعـالى عن غيركم من الناس بأنْ سَاقَكُمْ في ذاك الزمانِ الفاضلِ إلى تلـك الأمـاكنِ الشريفةِ، أنْ تَنْشَغِلُوا بالطوافِ والأذكارِ المشروعةِ[1] وتلاوةِ القرآنِ الكريمِ، وكذا بالصلواتِ فرضًا ونفلاً بالمسجد الحرامِ أو بالمسجدِ النبويِّ؛ فإنَّ أجرَ الـصلاةِ فيهما مضاعَفٌ. يقولُ النبيُّ ﷺ: ﴿صلاةٌ في مسجدي أفضلُ مِنْ ألفِ صـلاةٍ فيما سِوَاهُ، إلاَّ المسجدَ الحرامَ. وصلاةٌ في المسجدِ الحرامِ أفضلُ مِنْ مائةِ ألـفِ صلاةٍ فيما سِوَاهُ﴾[رواه أحمد وابن ماجة]. وإذا ما كنتُمْ على صعيدِ عرفـاتِ الشريفِ، فأَكْثِرُوا من الدعاءِ، وسَلُوا اللهَ خيرَ الـدنيا والآخـرةِ، لأنفـسِكم وأَهْلِيكم وأُمَّتِكم ومَنْ أَوْصَاكم بالدعاءِ إليه؛ فإنَّ الدعاءَ ثَمَّةَ مستجابٌ بإذنـه جلَّ وعلاَ. يقول النبيُّ ﷺ: ﴿خيرُ الدعاءِ دعاءُ يومِ عرفةَ، وخيرُ ما قلـتُ أنـا والنَّبِيُّونَ مِنْ قبلي: لا إلهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لَهُ، لَهُ الملكُ، ولَهُ الحمدُ، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ﴾[رواه الترمذي]. وإنَّني -واللهِ- أتعجَّبُ مِنَ الحاجِّ الذي يسمحُ لنفسه باقترافِ المعصيةِ، أو التثاقلِ عن الطاعة في عرفـاتِ، والـنبيُّ ﷺ يقول: ﴿مَا مِنْ يومٍ أكثر مِنْ أنْ يُعْتِقَ اللهُ فيه عَبْدًا مِنَ النارِ مِنْ يومِ عرفةَ، وإنَّهُ لَيَدْنُو، ثم يُبَاهِي بهم الملائكةَ فيقولُ: مَا أرادَ هؤلاءِ؟﴾[رواه مسلم]. لذا فـإنَّ الحاجَّ الذي يريدُ من الله تعالى أن يُعْتِقَهُ من النار، وأن يدخلَهُ الجنةَ مع الأبرار، عليه أن يُرِيَ ربَّهُ من نفسِهِ في ذلك الموقفِ المشهودِ ما يُرْضِيهِ عنه.

---

[1]- قلت: "الأذكار المشروعة"؛ تَحَرُّزًا من الأذكارِ التي لم تَثْبُتْ نسبتُهَا إلى النبيِّ ﷺ ممَّـا يَشِيعُ بين الناسِ، ويُوَزَّعُ عليهم مكتوبًا في مُنَاسَبَتَيِ الحجِّ والعمرةِ مِنْ قِبَلِ مَـنْ لا يُعْنَـى بالتَّحَرِّي في نسبةِ الأقوالِ والأفعالِ إلى النبيِّ ﷺ.

ويُعْجِبُني تصرُّفُ بعضِ الأخيارِ مِنَ المسلمين؛ وذلك أنَّهم إذا عَزَمُوا على الحجِّ، يَقْصُدُونَ قبلَ السفرِ إليه سُوقَ بلدِهِمْ، فيَشترون بعضَ الحاجيَّاتِ التي تَعَوَّدَ الحجاجُ أن يُهْدُوهَا لأقارِبهم وجيرانِهم وأصدقائِهم ومُهَنِّئِيهم، ويَحفظونَها في مكانٍ آمِنٍ؛ حتى لا يُضَيِّعُوا أوقاتًا كثيرةً في اقتنائِهَا من أسواقِ البقاعِ المقدسةِ، وإذا ما رجعوا أخرجُوها ووَزَّعُوها على مَنْ أرادوا. كما أنهم يَتَخَيَّرُونَ مِنَ الصالحين من أهلِ بلادِهم مِمَّنْ سيَحُجُّ معهم في تلك السنةِ؛ لِيَكُونُوا لهم عونًا على النشاطِ في العبادة أثناءَ التواجدِ في الحرميْنِ الشريفيْنِ.

5- إيذاءُ بعضِ الحجاجِ إخوانَهُمْ في بعضِ المواقفِ: فمِنَ الْمُفْتَرَضِ في الحاجِّ وهو يأتي بمناسكِ الحجِّ أن يكونَ رفيقًا بإخوانه، حريصًا على فعلِ كلِّ مَا مِنْ شأنِهِ أن يُوَطِّدَ علاقتَهُ بهم، مُغْتَنِمًا تلك الفرصةَ الربانيَّةَ لاكتسابِ مَا أَمْكَنَهُ من الأجرِ والثوابِ. ولكنِ الذي نَرَاهُ مِنْ بعضِهم هو العكسُ من هذا تمامًا؛ إذ إنَّهم تَصْدُرُ منهم أفعالٌ خَشِنَةٌ، تُلْحِقُ الضَّرَرَ بإخوانِهم، الأمْرُ الذي يجعلُهم يتحمَّلون أَوْزَارًا كانوا في مَنْأًى عنها. فمِنْ بين تلك الأفعال:

- إصرارُ بعضِهم على اسْتِلاَمِ الحجرِ الأسودِ بالْيَدِ، أو تقبيلِه بشفتيْه، مع أنَّ ذلك لا يَعْدُو أن يكونَ سنةً، وتَكْفِي عنهما الإشارةُ باليدِ ونحوِها ولو مِنْ بعيدٍ.
- الزِّحَامُ والتَّدَافُعُ الشديدانِ عند رَمْيِ الْجِمَارِ، وعدمِ احترامِ الْمَسَارَاتِ المحدَّدَةِ مِنْ قِبَلِ الْمُنَظِّمِينَ، مع أنَّ الحاجَّ لو تَرَيَّثَ، أو تَرَخَّصَ بالرخصِ الشرعيةِ، لَمَا حَدَثَتْ تلك المجازرُ الْمُخْزِيَةُ التي تكرَّرَتْ في أكثرِ من موسمٍ.
- الرَّمْيُ باستعمالِ الحجارةِ الكبيرةِ، أو أجسامٍ لها جِرْمٌ مُعْتَبَرٌ كالنعلِ ونحوِهِ، مع أنَّ الرَّمْيَ من السنةِ أن يكونَ بالْحُصَيَّةِ الصغيرةِ فقط.

لذا ينبغي على المسلم أن يَعْلَمَ بأنَّ أَذِيَّةَ المسلمين محرمةٌ لا سِيَّمَا إذا كانت في حقِّ الحجاجِ أثناءَ أدائِهم للمناسك؛ ذلك أنَّ اللهَ تعالى يقول: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً﴾[الأحزاب:58]. والنبيُّ ﷺ يقولُ: «لا ضَرَرَ ولا ضِرَارَ»[رواه مالك في الموطأ]. بل إنه مِمَّا يُعَظِّمَ إِثْمَ الأذيةِ في الحج، أنَّ تلك المشاهدَ الْمُخْزِيَةَ للتدافعِ والتزاحمِ الشديديْنِ، والتي تُنْقَلُ عَبْرَ الشَّاشَاتِ إلى العالَمِ أجمعَ، وما يترتَّبُ عنها مِنْ قتلٍ وجرحٍ، مِمَّا يُشَوِّهُ صورةَ الإسلامِ عند غيرِ المسلمين، الأمرُ الذي يُنَفِّرُهم منه، فيصبحُ الحاجُّ الذي تسبَّبَ في ذلك مِمَّنْ فَتَنَهُمْ عن دينِ اللهِ الحقِّ، فيَقَعُ فيما كان يَتَخَوَّفُ منه الصالحون عندما كانوا يَدْعُونَ ربَّهم بقولهم: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[الممتحنة:05].

6- عدمُ تَغَيُّرِ حالِ الحاجِّ في حياتِهِ إلى الأحسنِ بعد حَجِّه: إنَّ الأصلَ في الحاجِّ أن يستفيدَ مِنْ حجِّه، فتَتَحَقَّقُ فيه مقاصدُهُ، بحيث يعودُ وهو صفحةٌ بيضاءُ بعدَ أن مُحِيَتْ عنه ذنوبُهُ السالفةُ، ويرجعُ وقد قَوِيَ إيمانُهُ، وتذكَّرَ الموتَ والآخرةَ، وعَزَمَ على الاستعدادِ لهما بفعلِ سائرِ الصالحاتِ، وعدمِ الاستجابةِ للشيطان الذي رَمَى ما يشيرُ إليه بالحجارةِ. ولذا فإننا نتصوَّرُ منه استقامةً تامَّةً على دينِ اللهِ تعالى إلى أن يَلْقَى ربَّهُ ﷻ. وهذا هو الذي نَرَاهُ فعلاً مِنَ الْمُوَفَّقِينَ منهم. ومِنْ خلالِ تلك الاستقامةِ نَسْتَشِفُّ أنَّ اللهَ تعالى قد قَبِلَ منهم حجَّهم؛ بدليل أَنَّهُ وَفَّقَهُمْ إلى الثباتِ على الطاعة، والاستزادةِ منها بعدَهُ، والقاعدةُ الشرعيةُ تقولُ: "مِنْ علاماتِ قَبُولِ العملِ الصالحِ مِنَ المسلمِ، أن يُوَفِّقَهُ اللهُ تعالى إلى عملٍ صالحٍ آخَرَ بعد الفراغِ منه".

وبمقابلِ هذه الفئة الْمُوَفَّقَة نَجِدُ بعضَ الحجاجِ سُرْعَانَ ما يَعُــودُونَ إلى مــا كانوا عليه قبلَ حَجِّهِمْ مِنْ سَيِّئِ الأعمالِ، وكأنَّهم بلسانِ حالِهم يقولون: إنَّنَا لَمْ نستفدْ من الحجِّ شيئًا، فلا قَوَّى إيمانَنَا، ولا ذَكَّرَنَا بالموت والآخرةِ. كما أنَّ تلك المناسكَ التي أَدَّيْنَاهَا، والمشاهدَ التي رَأَيْنَاهَا وعَايَشْنَاهَا، لَمْ تُؤَثِّرْ فِينَا، ولَــمْ تُغَيِّرْ مِنْ شخصيَّاتِنَا شيئًا. بلْ لَعَلَّ الحجَّ لَمْ يُقْبَلْ مِنَّا أصلاً؛ بدليل انتكاسَتِنَا بعدَهُ مباشرةً.

لذا فإنَّنَا نُنَاصِحُ إخوانَنَا الحجاجَ، بأنْ يُحَافِظُوا على تلك الفضائلِ التي ظَفَرُوا بها مِنْ خلالِ حجِّهم، ولْيُوَظِّفُوا تلك الشحناتِ الإيمانيةِ التي عُبِّئُوا بها، لِيُقيمُوا ما بَقِيَ لهم من حياتِهم على ما يُرْضِي عنهم ربَّهم، وحِينَهَا بإمكانهم أنْ يُبَشِّرُوا أنفسَهم بأنَّ اللهَ تعالى قد قَبِلَ منهم حجَّهم، وغَفَرَ لهم ذنوبَهم، وأَعَدَّ لهم الجنةَ التي وَعَدَهُمْ بها.

نسألُ اللهَ جلَّ وعلاَ أن يُكْرِمَنَا جميعًا بالذهاب إلى البقاعِ المقدسةِ، وأن يَمُنَّ علينا جميعًا بالظَّفَرِ بحجةِ العمرِ. كما نسألُهُ سبحانه وتعالى التوفيقَ والسدادَ في أمورِنَا كلِّها. اللهمَّ بَصِّرْنَا بعيوبنا، وأَعِنَّا على إصلاح ما فَسَدَ من أحوالنا. اللهمَّ أَرِنَا الحقَّ حقًّا وارْزُقْنَا اتِّبَاعَهُ، وأَرِنَا الباطلَ باطلاً وارْزُقْنَا اجتنابَهُ. اللهمَّ اهْــدِنَا واهْدِ بنا، واجعلْنَا سببًا لِمَنِ اهتدى. ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً﴾[الكهف:10]. اللهمَّ اخْتِمْ لنا بالْحُسْنَى؛ حتى نَلْقَاكَ ونحن على أحسنِ حالٍ. وآخرُ دعوانا أنِ الحمدُ لله ربِّ العالمين.

الخطبة الرابعة والعشرون

رسالة إلى عروسين

يُعَدُّ الزواجُ من العبادات الجليلةِ التي يَتَقَرَّبُ بها المسلمُ من ربِّهِ جلَّ وعـــلاَ؛ ذلك أن العبادةَ عندنا نحن المسلمين ليستْ قاصرةً على الشعائر المعروفـــةِ مـــن صلاةٍ وصيامٍ وزكاةٍ وحجٍّ وعمرةٍ وتلاوةٍ للقرآن الكريم وذكرٍ ودعاءٍ ونحـــوِ ذلك من صُنُوفِ العباداتِ الشعائريَّةِ، وإنما مفهومُها أوسعُ من هذا بكثيرٍ، فهي اسمٌ جامعٌ لكل ما يُحبُّهُ اللهُ تعالى ويرضاه من الأقـــوالِ والأفعـــالِ الباطنـــةِ والظاهرةِ[1]. ولا شَكَّ أنَّ الزواجَ من الأفعال التي تُرْضِي اللهَ ﷻ؛ بدليل أَنَّهُ أَمَرَ الأولياءَ والأسيادَ بتزويجِ مَنْ تحت أيديهم من الذكورِ والإناثِ الـــذين لا زَوْجَ لهم. قال تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[النـــور:32]. كمـــا أنَّ المسلمَ عندما يتزوَّجُ، فإنه يُريد من خلال زواجِهِ أنْ يَقْتَدِيَ بالأنبياء والمرسلين، وعلى رأسهم نبيُّنَا محمدٌ ﷺ؛ ذلك أَنَّهم صلواتُ اللهِ عليهم وسلامُهُ تَزَوَّجُـــوا ورُزِقُوا بالولدِ، فهو يُريد أنْ يَتَمَثَّلَ حالَتَهم، فيُؤْجَـــرَ على هذا المقصدِ النبيـــلِ.

---

[1]– مثالُ الأقوالِ التي تُعَدُّ عبادةً: الذكرُ والدعاءُ والتلاوةُ وإسداءُ النصيحةِ وتعليمُ النـــاسِ الخيرَ. ومثالُ الأفعالِ الباطنةِ التي تُعَدُّ عبادةً أيضًا: الإيمانُ باللهِ وملائكتِه وكتبِه ورسلِه واليومِ الآخرِ والقدرِ خيرِه وشرِّه، والحبُّ في الله تعالى، والبغضُ فيه. ومثالُ الأفعالِ الظاهرةِ الـــتي تُعَدُّ عبادةً كذلك: الصلاةُ والحجُّ والعمرةُ وإعانةُ الناسِ على الخير والزواجُ الذي نحن بصَدَدِ الكلامِ عنه.

قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً﴾[الرعد:38]. إضافةً إلى أنَّهُ يُريد أنْ يُحَصِّنَ نفسَه؛ حتى لا تَتَطَلَّعَ إلى الحرام، ولذا فهو عندما يأتي أهلَهُ مُستحضرًا هذا المعنى، فيَستَمْتِعُ بالحلال، ويُكْرِمُهُ اللهُ تعالى بالأجر. قال النبيُّ ﷺ: ﴿وَفي بُضْعِ[1] أحدِكم صدقةٌ﴾. فقال الصحابةُ ﷺ: "يا رسولَ اللهِ، أَيَأْتي أحدُنا شهوتَهُ ويكونُ له فيها أجرٌ؟!" قال: ﴿أَرَأَيْتُمْ لو وَضَعَهَا في حرامٍ، كان عليه وِزْرٌ؟ فكذلك إذا وَضَعَهَا في الحلال، كان له أَجْرٌ﴾[رواه مسلم].

وحتَّى يكونَ الزواجُ حقًّا عبادةً تُفيد المسلمَ في آخرته، ومتعةً حلالاً تُحَصِّنُه في دنياه، وحتى تَستَمرَّ العلاقةُ بيْن الزوجيْنِ، وتدومَ العشرةُ بينهما، أُريد أنْ أرسلَ رسالةً أخويَّةً، ملْؤُهَا الحبُّ والمودةُ، لكل عروسيْنِ داخليْنِ إلى مرحلة الزوجيةِ، أُبْرِقُهُمَا فيها بنصائحَ وإرشاداتٍ أَرَى ضرورةَ مراعاتِهَا:

1- احْمَدَا اللهَ تعالى أنْ وفَّقَكما إلى هذا الزواجِ الْمَيْمُونِ -إنْ شاءَ اللهُ- واشْكُرَاهُ كثيرًا على هذه النعمةِ الجليلة؛ فإنه تعالى وَعَدَ مَنْ حَمِدَهُ وشَكرَهُ بالزيادة في الخيرِ والبركةِ. وكيف لا يُعَدُّ الزواجُ نعمةً عظيمةً وقَدْ جَعَلَهُ اللهُ تعالى من آياته التي تَدُلُّ على وجودِه وسَعَة علمه وعظيمِ قدرته وفائقِ حكمته؟! قال ﷻ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الروم:21]. وكيف لا يَزيدُ اللهُ تعالى مَنْ حَمِدَهُ وشَكَرَهُ خيرًا وبركةً وهو القائلُ: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[إبراهيم:07]؟!

[1]- الْبُضْعُ هو الفرجُ نفسُهُ، ولكنْ جِيءَ به هنا للكناية عن الجماع.

2- لِتَكُنْ ليلةَ دُخْلَتِكُمَا على طريقة سلفِنَا الصالحين؛ وذلك بأنْ يقصدَ الزوجُ حين دخولِهِ على زوجته وبعد السلامِ عليها ناصيتَهَا، فيأخذَ بها قائلاً: ﴿اللهمَّ إني أسألُكَ مِنْ خيرِهَا وخيرِ ما جَبَلْتَهَا عليه[1]، وأعوذُ بك مِنْ شرِّهَا وشرِّ ما جَبَلْتَهَا عليه﴾[رواه ابنُ ماجةَ]. ثم يُصَلِّي بها إمامًا ركعتينِ[2]، ثم يُلاطفها ويُؤانسها ويُؤاكلها ويُشاربها، قبل الشروعِ في إتيانها. وعند الإتيانِ يُسَنُّ أنْ يقولَ: ﴿بِسْمِ اللهِ، اللهمَّ جَنِّبْنَا الشيطانَ، وجَنِّبِ الشيطانَ ما رَزَقْتَنَا﴾[رواه الشيخان]؛ فإنَّهُ إنْ قُدِّرَ بينهما ولدٌ في ذلك، لَمْ يَضُرَّهُ شيطانٌ أبدًا.

3- لِيَعْرِفْ كلٌّ منكما حقوقَه وواجباته[3]، فإنَّ الزوجَ إذا عَرَفَ واجباته وأدَّاها إلى زوجِه، وفَّقه اللهُ إلى أن يَتَجَاوَبَ معه الطرفُ الآخَرُ، فيؤدِّي حقوقَه بإذنه

---

[1]- جَبَلْتَهَا عليه: أي خلقْتَهَا وطبعْتَهَا عليه.

[2]- هَاتَان الركعتان فيهما من المقاصد الشرعيةِ ما فيهما، نَذْكُرُ منها ما يأتي:

- أنْ يُرْسِلَ الزوجُ إلى زوجته عند أولِ لقاءٍ بها أنَّ حياتَهُ كلَّهَا لله تعالى، وأنَّ إرضاءَهُ ﷻ والائتمارَ بأمره هو أَوْلَى شيءٍ عندَهُ في الحياة؛ بدليل أنَّهُ رغمَ اشتياقِه لزوجته، والاختلاءِ بها، وتمكُّنِه منها، إلا أنه يَنْصَرِفُ ابتداءً إلى الله تعالى، تاركًا إيَّاهَا جانبًا.

- إشارةٌ إلى الزوجة بأنَّ زوجَهَا هو الْقَوَّامُ عليها، وتدريبٌ لها عن طاعته؛ وذلك من خلال إمامتِهِ بها، وائْتِمَامِهَا به، فإذا قامَ قامتْ، وإذا كَبَّرَ كبرتْ، وإذا قرأَ أَنْصَتَتْ، وإذا ركعَ ركعتْ، وإذا سجدَ سجدتْ، وإذا سَلَّمَ وانصرفَ من صلاته سَلَّمَتْ وانصرفتْ منها.

- طمأنةٌ لنفسيَّةِ الزوجةِ التي هي في مُنْتَهَى حيائِهَا؛ بحكم أنها ستَخْتَلِي لأولِ مَرَّةٍ إذا كانت بكرًا عفيفةً برجلٍ أجنبيٍّ عنها -والعفةُ هي الأصل في بنات المسلمين-، كما أنها خائفةٌ مضطربةٌ؛ لِمَا سيكون من اتصالٍ جنسيٍّ بها.

[3]- يُمْكنُ أن يُتَعَرَّفَ على الحقوق والواجباتِ من خلال قراءةِ كتابٍ في الموضوع قراءةً واعيةً، أو سؤالِ عارفٍ مُجَرِّبٍ ثقةٍ، أو شهودِ دورةٍ تكوينيةٍ في فَنِّ إدارةِ الحياةِ الزوجيةِ.

تعالى. قال ﷻ مخاطبًا الأزواج: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً﴾[النساء:19]. وقال وهو يتحدَّثُ عن الزوجاتِ: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾[البقرة:228].
وقال النبيُّ ﷺ في خطبة حجة الوداعِ: ﴿اتَّقُوا اللهَ في النساء؛ فإنكم أَخَذْتُمُوهُنَّ بأمانة الله، واستَحْلَلْتُمْ فروجَهُنَّ بكلمة الله، وإنَّ لكم عليهنَّ أنْ لا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ أحدًا تكرهونَهُ[1]. فإنْ فَعَلْنَ فاضربُوهُنَّ ضربًا غيرَ مُبَرِّحٍ[2]. ولهنَّ عليكم رزقُهُنَّ وكِسْوَتُهُنَّ بالمعروف﴾[رواه أبو داود]. فنلاحظُ من خلال هذه النصوصِ وغيرِهَا أنَّ الشرعَ الحنيفَ يُقَرِّرُ أنَّ هناك حقوقًا وواجباتٍ مُتَبَادَلَةً بين الزوجيْنِ. نُذَكِّرُ بهذا؛ لأنَّ بعضَ الأزواجِ قد يُطَالِبُ زوجتَهُ بحقوقه عليها، ويَعْتِبُ عليها أيَّ تقصيرٍ فيها، إلا أنه يَتَنَاسَى واجباتِه تجَاهَهَا، فيُهْمِلُهَا ولا يكاد يسعى إلى القيام بها، والعكسُ صحيحٌ بالنسبة لبعض الزوجاتِ.
4- أَقِيمَا شرعَ اللهِ في زواجِكما، فإنكما ما حَلَلْتُمَا لبعضِكما إلا عندما قلتُما على لسانِ أوليائِكما: "تزوَّجْنا على سنة اللهِ ورسولِه"، فلا تُخَالفا شرعَ اللهِ في أيِّ شأنٍ من شؤون حياتِكما. يقول النبيُّ ﷺ: ﴿اتَّقِ اللهَ حيثُمَا كُنْتَ، وأَتْبِعِ السيئةَ الحسنةَ تَمْحُهَا، وخَالِقِ الناسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ﴾[رواه الترمذي]. نقول هذا؛ لأننا نُلاَحِظُ في هذا الزمانِ زيجاتٍ كثيرةً تُقَامُ على الطريقةِ التي تُغْضِبُ الرحمنَ

---

[1]- المقصودُ بذلك أنْ لا يَأْذَنَّ لأحدٍ مِمَّنْ يكرهُ الأزواجُ دخولَهُ عليهنَّ من سائرِ أقاربِهِمْ أو أقاربِهِنَّ. وليس المقصودُ به الخيانةَ الزوجيةَ المتعلِّقَةَ بفعلِ الزِّنَى، كما يمكن أن يتبادرَ للذهنِ.
[2]- الضربُ غيرُ الْمُبَرِّحِ هو الذي لا يَكْسِرُ عظمًا، ولا يَخْدِشُ لحمًا، ولا يَمَسُّ وجهًا. ويُمَثَّلُ له بالْقَرْصَةِ، والضربِ بعُودِ الأراكِ، وبطَرَفِ الثوبِ، ونحوِ ذلك مِمَّا يَحْمِلُ رسالةً للزوجة مَفَادُهَا أنَّ زوجَهَا غاضبٌ منها.

وتُرْضِي الشيطانَ، ابتداءً من الخطبة ومراسيمِها، وانتهاءً بالزِّفَافِ وطقوسِهِ. كما نُلاَحِظُ أنَّ بعضَهم لا يَأْتَمِرُ بأوامر الشرعِ في معاشرتِهِ لشريكِ حياته. فإذا كان الزواجُ نظريًّا مُقَامًا على الطريقة الإسلاميةِ، فيجبُ أن يكونَ عمليًّا مُقَامًا على الطريقة نفسِها.

5- كُنْ أَيُّهَا الزوجُ لــها عبْدًا تَكُنْ لك أَمَةً، فإنك إذا ما أَلَنْتَ لــها جَانِبَك، وكنتَ رقيقًا معها، رَزَقَكَ اللهُ حُبَّها إيَّاك، وحُسْنَ قيامِها بك؛ فــإنَّ النفــوسَ مَجْبُولَةٌ على حُبِّ مَنْ أحسنَ إليها، وقد قال النبيُّ ﷺ وهو يُعطي للرجال مــن نفسه القدوةَ الحسنةَ في التعامل مع زوجاتهم: ﴿خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَــا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي﴾[رواه الترمذي]. ورُوِيَ عن أسماءَ بنتِ يزيدٍ الأنصاريةِ رضــي الله عنها ما فِيهِ نصيحةٌ نبويَّةٌ وبُشْرَى لنساء المسلمين اللواتي يتفــنَّنَ في القيــام بشؤونِ أزواجِهِنَّ وإسعادِهم، حيث إنها أَتَتِ النبيَّ ﷺ فقالت: "إنِّي رسولُ مَنْ ورائي مِنْ جماعةِ نساءِ المسلمين،كلُّهن يَقُلْنَ بقولي، وعلى مثلِ رَأْيِــي: إنَّ اللهَ تعالى بعثك إلى الرجالِ والنساءِ، فآمَنَّا بك واتَّبعناك. ونحــن معــشرَ النــساءِ مَقْصُورَاتٌ مُخَدَّرَاتٌ[1]، قواعدُ بيوت، ومواضعُ شهواتِ الرجالِ، وحــاملاتُ أولادِهم. وإنَّ الرجالَ فُضِّلُوا بالْجُمُعَاتِ وشهودِ الجنائزِ والجهادِ. وإذا خرجوا للجهادِ حفظْنا لهم أموالَهم، وربَّيْنا أولادَهم. أَفَنُشَارِكُهُمْ في الأجرِ يا رســولَ اللهِ؟" فالْتفتَ رسولُ اللهِ ﷺ بوجهِهِ إلى أصحابِهِ، فقال: ﴿هل سمعتُم مقالةَ امرأةٍ أحسنَ سؤالاً عن دينِها مِنْ هذه؟﴾ فقالوا: "بلى واللهِ يا رســولَ الله". فقــال رسولُ اللهِ ﷺ: ﴿انْصَرِفِي يا أسماءُ، وأَعْلِمِي مَنْ وراءَكِ مِنَ النساءِ، أَنَّ حُــسْنَ

---

[1] – مقصوراتٌ مخدَّراتٌ: مَصُونَاتٌ مُتَسَتِّرَاتٌ عن الأجانب من الرجال، لا يَبْرَحْنَ بيوتَهُنَّ.

تَبَعُّلِ إحداكُنَّ لزوجِها، وطلبِها لمرضاته، واتِّباعِها لموافقته، يَعْدِلُ كلَّ ما ذكرتِ للرجالِ﴾. فانصرفتْ أسماءُ وهي تُهَلِّلُ وتُكَبِّرُ؛ استبشارًا بما قال لها رسولُ اللهِ ﷺ.[أخرجَهُ ابنُ عَسَاكِرٍ].

6- اعْزِمَا على بناء أسرةٍ مسلمة طيِّبة، وادْعُوَا اللهَ مِرارًا وتكْرارًا أنْ يوفِّقَكما لذلك؛ فإنَّ الأمةَ في حاجةٍ إلى أُسَرٍ صالحةٍ واعيةٍ؛ لِتُنْجِبَ جيلاً طيِّبًا، يُعيد لهـا عزَّتَها وكرامتَها. ولذا كان مِنْ صفات عبادِ الرحمنِ أنهم يَدْعُونَ ربَّهم بأنْ يرزقَهم الذريةَ الصالحةَ التي يُسَرُّونَ ويَنْتَفِعُونَ بها في الدنيا والآخرة. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً﴾[الفرقان:74]. نقول هذا؛ لأن أكثرَ الأزواجِ في هذا الزمانِ -إلا مَنْ رَحِمَ ربِّي- لا يُعْنَوْنَ إلا بالإنجاب، ويَتْرُكُونَ الأولادَ بلاَ رعايةٍ حقيقيةٍ، وبدون تربيةٍ صحيحةٍ، ولذا فإنَّ وسائلَ الإفسادِ الكثيرةَ الآنَ تَتَلَقَّفُهُمْ، وتُحَوِّلُهُمْ إلى عِبْءٍ على مجتمعهم وأُمَّتِهِمْ، إنْ لَمْ نَقُلْ إنها تُحَوِّلُهُمْ إلى مِعْوَلِ هَدْمٍ لهما.

7- اجْعَلاَ غرفتَكما روضةً من رياضِ الجنَّة، فنَوِّرَاها بالقرآنِ والأذكارِ والصلواتِ، وعَطِّرَاها بالمطالعات ومشاهدةِ الحصصِ والبرامجِ المفيدةِ، وجَنِّبَاهَا الصورَ والغناءَ والأفلامَ والمسلسلاتِ الْمَاجِنَةَ؛ حتى يحفظَكما اللهُ من الجنِّ والشيطانِ، ويُدِيمَ عشرتَكما على نَهْجِ الكريم الرحمنِ. يقول النبيُّ ﷺ: ﴿رَحِمَ اللهُ رجلاً قامَ من الليل فصلَّى، وأَيْقَظَ امرأتَهُ فصلَّتْ، فإنْ أَبَتْ رَشَّ في وجهها الماءَ. ورَحِمَ اللهُ امرأةً قامتْ من الليل فصلَّتْ، وأَيْقَظَتْ زوجَهَا فصلَّى، فإنْ أَبَى رَشَّتْ في وجهه الماءَ﴾[رواه ابنُ ماجةَ والنسائيُّ].

8- إنْ أَحْبَبْتَ أَيُّهَا الزوجُ زوجَتَكَ فأكرِمْها -وهذا ما نسأل اللهَ تعالى أن يكونَ-، وإِنْ كَرِهْتَها -لا قدَّرَ اللهُ- فإيَّاك أن تظلِمَها؛ فإنَّهُ ما أَكْرَمَ الزوجةَ إلا

تقيٌّ كريمٌ، وما أَهَانَهَا إلا شقيٌّ لَئِيمٌ. يقول النبيُّ ﷺ: ﴿اسْتَوْصُوا بالنساء خيرًا؛ فإنَّمَا هُنَّ عَوَانٌ عندكم﴾[رواه الترمذيُّ]. فالمرأةُ أسيرةٌ عند زوجِها لا تَمْلِكُ لنفسها شيئًا، وضعيفةٌ جسديًّا، وحَسَّاسَةٌ جدًّا نفسيًّا. وفي الوقت نفسِه فالرجلُ هو الْقَوَّامُ، والمشرفُ الأوَّلُ على إدارة الحياةِ الزوجيةِ، وآتاهُ اللهُ قوةً في العقلِ والنفسِ والجسدِ، فما عليه إلا أنْ يُوَظِّفَ ذلك في إسعاد زوجتِه إنْ كان مُحبًّا لها. وإنْ كَرِهَهَا، فلا يجوز له أنْ يَعْتَدِيَ عليها، مُسْتَغِلاًّ ضعفَهَا وقوتَهُ، ولكنْ يجبُ أن يكونَ شعارُهُ قولَهُ تعالى: ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾[البقرة:229].

9- كُونَا مِنَ الْوَقَّافِينَ عند حدودِ اللهِ، فإذا حصل بينكما شيءٌ -وهذه طبيعةُ الحياةِ، فقد حصل ذلك حتى للنبيِّ الأعظمِ ﷺ وصحابتِه الكرامِ ﷺ مع زوجاتِهم-، فرُدَّا الْحَلَّ دائمًا إلى الله ورسولِه؛ فإنَّ الخيرَ كلَّ الخيرِ في ذلك. ولا يَتَعَنَّتْ واحدٌ منكما لرأيِه، فإنَّ الشرَّ كلَّ الشرِّ في ذلك. يقول اللهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾[النساء:59].

وأخيراً، أسألُ اللهَ العليَّ القديرَ أنْ يُبَارِكَ في الأزواج من المسلمين، وأن يجمعَ بينهم في خيرٍ، وأن يُدِيمَ عشرتَهم بالمعروف. كما أسألُهُ جلَّ وعلاَ أن يجعلَ كلَّ زوجيْنِ كآدمَ عليه السلام وحواءَ، ومحمد ﷺ وخديجةَ الكبرى، وعليٍّ رضي الله عنه وفاطمةَ الزَّهراءَ، وأن يُخرِجَ من أصلابهما ذُرِّيَّةً طيِّبةً يعبدون اللهَ ويدافعون عن دينِ الإسلامِ. وآخرُ دعوانا أنِ الحمدُ للهِ ربِّ العالمين.

الخطبة الخامسة والعشرون

خِصَالٌ انتشرت فينا وهي تَنَافِي مبادئَ نُوفَمْبَر

يُحْيِي الشعبُ الجزائريُّ في الفاتحِ من نوفمبرَ من كلِّ عامٍ ميلاديٍّ ذكـــرى عزيزةً غاليةً عليه هو أصالةً، وعلى جميعِ الشعوبِ العربيةِ والإسلاميةِ والْمُنَاهِضَةِ للاستدمارِ والاستخرابِ[1] في العالم أجمعَ بالتَّبَعِ؛ ذلك أنَّ في تلك الذكرى قِمَّةَ التضحيةِ والكفاحِ لأجلِ استردادِ العزةِ والكرامةِ والحريةِ والاســتقلالِ. تلــك الذكرى هي اندلاعُ ثورةِ التحريرِ المباركةِ.

وإِنَّنِي أرى أنَّ أفضلَ السُّبُلِ لأحياء هذه الذكرى الخالدة، ليس هو مُجَــرَّدُ إقامةِ مراسيمَ شكليَّة، تُرْفَعُ فيها الأعلامُ الوطنيةُ، وتُعْزَفُ الأناشــيدُ الثوريــةُ، وتُوضَعُ أكاليلُ الزهورِ عند قبورِ الشهداءِ والمجاهدين منَ الذين انتقلوا إلى الرفيقِ الأعلى، وتُقْرَأُ الفاتحةُ على أرواحِهم الزكيةِ، ويُتَغَنَّى ببطولاتِهم النادرةِ. وإنمــا الإحياءُ الحقيقيُّ لهذه الذكرى يكونُ بِتَوَاصِينَا بكل ما مِنْ شأنِهِ أن يجعلَ دولتَنَا في طليعةِ دولِ العالَمِ تَحَضُّرًا واقتصادًا وتكنولوجيةً وثقافةً وعلمًا وإدارةً وإعلامًا واجتماعيات. فهذا هو عينُ الوفاءِ للشهداءِ الأبرارِ، وللمجاهــدين الأخيــارِ. وهذا ما تَقَرُّ به أعينُ مَنْ كان منهم باقيًا على قيدِ الحياة، وما يَسْعَدُ به مَنْ كان منهم ميتًا وهو في قبرِهِ؛ لأنهم حينئذٍ سيَعلمون أنَّ تضحياتِهم لَمْ تذهبْ هَدَرًا،

---

[1] - أُفَضِّلُ أنْ لاَ أُسَمِّيَ ما قامت به دولُ أوروبا مِنِ اجْتِيَاحٍ للعــالم العــربيِّ والإســلاميِّ "استعمارًا"، وإِنَّمَا أُسَمِّيهِ "استدمارًا واستخرابًا"؛ لأنَّ تلك الدولَ لَمَّــا حَلَّــتْ بالبلــدان الضعيفةِ ما عَمَّرَتْهَا وبَنَتْهَا، ولكنها دَمَّرَتْهَا وخَرَّبَتْهَا ماديًّا ومعنويًّا.

ولكنَّها وَجَدَتْ أبناء وحَفَدَةً بَارِّينَ أوفياء، حَفِظُوا العهدَ، وواصَلُوا مسيرةَ الجهادِ بالبناءِ والتشييدِ والإعلاءِ لهذا الوطنِ.

ولذا أردتُ في هذه المناسبةِ الكريمةِ، أنْ أَعْرِضَ بين يديْ إخواني وأخواتي في الله تعالى مِنَ الجزائرِيِّينَ بعضًا من الخصالِ السَّلْبِيَّةِ التي انتشرتْ في بعضهم، وهي تُنَافِي مبادئَ نوفمبرَ المجيدةَ. وقبلَ ذلك فهي تُغْضِبُ الرَّبَّ سبحانه وتعالى. ونحن إذْ نَذْكُرُهَا لا نريدُ إلا مناصحةَ أصحابِها؛ تحقيقًا لِمَا فيه خيرُهم في الدنيا والآخرةِ ابتداءً، وكذا خيرُ بلادِهم انتهاءً. كما أنَّ هذه المناصحةَ تأتي من بابِ تحذيرِ مَنِ اتَّصَفَ بتلك الخصالِ؛ حتى لا تَلْحَقَهُ لعنةُ الشهداءِ والمجاهدين الصادقين. فمِنْ بين تلك الخصالِ السَّلْبِيَّةِ:

1- اتِّصَافُ بعضِهم بالْعُنْصرِيَّةِ، ودعوتُهُ إلى تفريقِ صَفِّ الشعبِ الجزائريِّ الواحدِ: فمعلومٌ أنَّ شهداءَنَا ومجاهدينَا ما رَفَعُوا السلاحَ، وما جَادُوا بالغالي والنفيسِ، إلا لأجلِ أن تكونَ الجزائرُ وتَبْقَى مسلمةً مستقلةً مُوَحَّدَةً، مِنْ شرقِهَا إلى غربِهَا، ومِنَ شمالِهَا إلى جنوبِهَا، بِعَرَبِهَا وأَمَازِيغِهَا، ومَالِكِيِّهَا وإِبَاضِيِّهَا. ولذا عندما يَجيءُ بعضُ الجزائرِيِّينَ -ونحن نَنْعَمُ بالاستقلالِ- ويُثِيرُونَ النَّعَرَاتِ الجهويةِ، أو الْعِرْقِيَّةِ، أو المذهبيةِ، فهؤلاءِ مَطْعُونٌ في وَطَنِيَّتِهم الجزائريةِ، وهُوِيَّتِهم الإسلاميةِ؛ بدليلِ أنَّهم خَانُوا عهدَ الشهداءِ والمجاهدين، وأنَّهم بدعوتِهم الْمَقِيتَةِ هذه سيُمَزِّقُون البلادَ، ويُشَتِّتُونَ وَحْدَتَهَا، ويُضْعِفُونَ كيانَهَا، ويُدْخِلُونَهَا في صراعاتٍ داخليةٍ هي في مَنْأًى عنها، ويُؤَخِّرُونَهَا عن رَكْبِ الأممِ التي تسعى للتقدمِ والازدهارِ. لذا فإنَّ المتأملَ في النصوصِ الشرعيةِ سيَجِدُ تحذيرًا شديدًا من إحداثِ التفرقةِ بين المسلمين، وزَرْعِ الْبَلْبَلَةِ في صفوفِهم، وزَعْزَعَةِ كيانِهم الواحدِ. فمِنْ بين تلك النصوصِ:

- قولُهُ تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ[1] وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[الأنفال:46].
- ما كان مِنَ النبيِّ ﷺ في غزوةِ بَنِي الْمُصْطَلَقِ سنة 6هـ، لَمَّا كَسَعَ[2] رجلٌ من المهاجرين رجلاً مِنَ الأنصارِ، فقال المهاجريُّ: "يا معشرَ المهاجرين". وقال الأنصاريُّ: "يا معشرَ الأنصارِ". فسمع ذلك النبيُّ ﷺ فقال: ﴿مَا بَالُ دَعْوَى الجاهليةِ؟!﴾ فأخبرُوهُ بِمَا وَقَعَ، فقال: ﴿دَعُوهَا؛ فإنَّها مُنْتِنَةٌ﴾[رواه الترمذي].

ونحنُ بدورِنَا نقولُ لِمَنْ سَوَّلَتْ له نفسُهُ، وزَيَّنَ له شيطانُهُ، أنْ يُفَرِّقَ شَمْلَ الشعبِ الواحدِ: دَعْ عَنْكَ مِنْ فِكْرِ الجاهليَّة الأُولى، وأَدْرِكْ أنَّ قوةَ بلادِنَا مَرْهُونَةٌ بِمَدَى تماسكِ أفرادِ شعبِهَا، واعْلَمْ أنَّ الفتنةَ نائمةٌ لَعَنَ اللهُ مَنْ أَيْقَظَهَا.

2- ظهورُ الفسادِ الإداريِّ والماليِّ في مؤسساتِ الدولة: إنَّ الأصلَ في الجزائريِّ المسلمِ عندما يُوَلَّى منصبًا إداريًّا معيَّنًا مَهْمَا عَلاَ هذا المنصبُ أو انْخَفَضَ، أنْ يُدِيرَ الشؤونَ الإداريةَ التي وُلِّيَ عليها بكل تَفَانٍ وإخلاصٍ؛ فيُرِيحُ بذلك إخوانَهُ المواطنين، ويأكلُ أجرةَ عملِه حلالاً طيِّبًا. والأمرُ نفسُهُ عندما يُقَلَّدُ منصبًا ماليًّا، وهو أشدُّ حساسيَّةً من المنصبِ الأولِ؛ ذلك أنَّ المالَ عَصَبُ الحياةِ، وإذا ما وُضِعَ بين يديِ الإنسانِ، فإنه يُسِيلُ لُعَابَهُ، ويُحَرِّكُ نَهَمَهُ، إلا مَنْ رَحِمَ رَبِّي. فالأصلُ فيه حينئذٍ أن يكونَ نزيهًا مُتَرَفِّعًا عن المال العام، يتصرَّفُ فيه بما يُحَقِّقُ المصلحةَ العامةَ للبلادِ والعبادِ. لكنِ الذي نَرَاهُ اليومَ من بعضِ المسؤولين الإداريِّين أو الماليِّين مِنْ فسادٍ، يَرْتَقِي في أحيانٍ معينةٍ إلى درجةِ الفضائحِ الكبيرةِ، لَيُعَدُّ خيانةً لأمانةِ الشهداءِ والمجاهدين. فمِنْ بين صُوَرِ ذاك الفسادِ:

---

[1]- يُقْصَدُ بالريح في هذا السياقِ القرآنيِّ: القوةُ والْمَنَعَةُ والْهَيْبَةُ والدولةُ والْكَيَانُ والْمَكَانَةُ.
[2]- كَسَعَ، بمعنى: ضَرَبَ دُبُرَهُ بيدِه، أو بصدرِ قدمه.

- التَّبَاطُؤُ في تقديمِ الوثائقِ التي يطلُبُهَا المواطنُ، والتَّثَاقُلُ في قـضاءِ مـصالحِهِ المختلفةِ لدى سائرِ الإداراتِ، وربَّمَا طُلِبَ منه مُقَابِلٌ للقيام له بذلك، مِنْ غيرِ مُسَوِّغٍ شرعيٍّ أو قانونيٍّ، بل بناءً على مَحْضِ استغلالٍ للوظيفةِ والمنصبِ.

- عدمُ فَسْحِ الفرصِ المتكافئةِ لِتَقَلُّدِ الوظائف لدى المؤسساتِ والشركاتِ الحكوميةِ؛ وذلك بتقديمِ بعضِ المترشِّحين لِتَقَلُّدِهَا عن البعضِ الآخَرِ؛ بناءً على معاييرَ ذاتيةٍ شخصيةٍ، بعيدةٍ عن الموضوعيةِ والشفافيةِ.

- اختلاسُ بعضِهم شيئًا مِنَ الأموالِ العامةِ، وصَرْفُ بعضٍ منـها في أغـراضٍ خاصةٍ، أو إنفاقُها بشكلٍ تَهَوُّرِيٍّ غيرِ مدروسٍ، أو توجيهُهَا إلى ما لا مصلحةَ حقيقيَّةَ فيه.

- أَخْذُ بعضِهم الرَّشْوَةَ؛ لأجلِ أنْ يُحِقَّ الباطلَ، أو يُبْطِلَ الحقَّ، متناسيًا ما ثَبَتَ عن عبدِ اللهِ بنِ عَمْرِو بنِ العاصِ رضي اللهُ عنهما مِنْ "أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لَعَـنَ الرَّاشِيَ والْمُرْتَشِيَ"[رواه أبو داود وابن ماجة].

فمَنْ تَنَجَّسَتْ يَدُهُ بهذه الأفعالِ وأمثالِهَا مِنْ صورِ الفسادِ الإداريِّ والمـاليِّ، فهو مَدْعُوٌّ إلى التوبة إلى الله تعالى، قبلَ أنْ يُبَاغِتَهُ الأجلُ وهو على فساده، وثَمَّةَ تَلْحَقُهُ لعنةُ اللهِ ورسولِهِ والشهداءِ والمجاهدين والمظلومين أجمعين، فيُطْرَدُ مـن رحمته جَلَّ جَلَالُهُ، فلا ينالُ جَنَّتَهُ. يقولُ النبيُّ ﷺ: ﴿مَا مِنْ عبـدٍ يَـسْتَرْعِيهِ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ رعيةً، يموتُ يومَ يموتُ وهو غَاشٌّ رعيَّتَهُ إلا حَرَّمَ اللهُ عليه الجَنَّةَ﴾[متفق عليه].
بلْ إنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ سيَفْضَحُهُ أمامَ الْمَلَإِ يومَ القيامةِ إنْ كان فسادُهُ ماليًّا؛ فقد جاء في الصحيحيْنِ من طريق هشامِ بنِ عروةَ بنِ الزبيرِ رضي الله عنهما، عن أَبِي حُمَيْدٍ الـسَّاعِدِيِّ رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ ﷺ استعملَ ابنَ اللُّتْبِيَّةِ رضي الله عنه على صدقاتِ بَنِي سُلَيْمٍ، فلما جاء إلى رسولِ اللهِ ﷺ وحاسبَهُ قال: "هذا الذي لكم، وهذه هديـةٌ أُهْدِيَتْ لي". فقال

رسولُ اللهِ ﷺ: ﴿فَهَلاَّ جلستَ في بيتِ أبيك وبيتِ أمِّكَ حتى تأتيَكَ هديتُكَ إن كنتَ صادقًا؟﴾ ثم قام رسولُ اللهِ ﷺ فخطبَ الناسَ، وحَمِدَ اللهَ وأَثْنَى عليه، ثم قال: ﴿أمَّا بعدُ: فإنِّي أَسْتَعْمِلُ رجالاً منكم على أمورٍ ممَّا وَلاَّني اللهُ، فيـأتي أحدُكم فيقولُ: "هذا لكم، وهذه هديةٌ أُهْدِيَتْ لي"، فَهَلاَّ جلسَ في بيت أبيه وبيتِ أمِّهِ حتى تأتيَهُ هديتُهُ إن كان صادقًا؟ فواللهِ لا يأخُذُ أحدُكم منها شيئًا -قال هشامٌ: بغيرِ حقِّه- إلا جاءَ اللهَ بحملُهُ يومَ القيامةِ﴾. ثم مَثَّلَ النبيُّ ﷺ لذلك بالذي يأخذُ جملاً أو بقرةً أو شاةً عن طريق استغلالِ المنصبِ، فإنه يُفْضَحُ به في ساحة المحشرِ، فيأتي وهو يحملُهُ برُغَائِه أو خُوَارِهِ أو يُعَارِهِ[1]. ثم رفعَ ﷺ يديْهِ حتى رأى الصحابةُ ﷺ بياضَ إِبِطَيْه قائلاً: ﴿أَلاَ هَلْ بَلَّغْتُ؟﴾.

3- عدمُ إتقانِ المواطنِ أداءَ العملِ أو الوظيفةِ الْمُسْنَدَةِ إليه: إنَّ المواطنَ الجزائريَّ بحكمِ إيمانِهِ بربِّه، يُفْتَرُضُ فيه وهو يقومُ بالمهمَّةِ التي أُوكِلَتْ إليه، سواء كانت صناعيةً أو زراعيةً أو تجاريةً، أو كانت من قَبِيلِ الخدماتِ العامةِ كالصحةِ والتعليمِ والحراسةِ ونحوِها، يُفْتَرُضُ فيه أن يَسْتَشْعِرَ حين أدائه لتلك المهمَّة بأنه بين يدي اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ الذي لا تَخْفَى عليه خافيةٌ. وهذا الشعورُ يَجعلُهُ يَصِلُ إلى درجة الإحسانِ التي قال عنها النبيُّ ﷺ في حديثِ جبريلَ الطويلِ: ﴿أنْ تعبدَ اللهَ كأنَّك تراهُ، فإنْ لَمْ تكنْ تراهُ، فإنَّهُ يَرَاكَ﴾[رواه مسلم]. كما أنه سوف يَسْتَرْشِدُ بقول النبيِّ ﷺ: ﴿الدينُ النصيحةُ﴾. قال الصحابةُ ﷺ: "لِمَنْ يا رسولَ اللهِ؟" قال: ﴿للهِ ولكتابِهِ ولرسولِهِ ولأئمةِ المسلمين وعامتِهِمْ﴾[رواه مسلم]. وعندئذٍ سيقومُ بعمله على أحسن وجهٍ؛ خوفًا من الله

[1]- الرُّغَاءُ هو صوتُ البعيرِ، والْخُوَارُ هو صوتُ البقرةِ، والْيُعَارُ هو صوتُ الشاةِ.

تعالى ابتداءً، وهو الذي يحبُّ من المسلم إذا عَمِلَ عملاً أن يُتْقِنَــهُ، ونــصيحةً لإخوانه من المسلمين انتهاءً. لكنِ الذي نلاحظُهُ اليــومَ في عَــالَمِ الــشُّغْلِ في الجزائر، أنَّ عددًا مُعْتَبَرًا من العمالِ والمــوظَّفين، يَغُــشُّونَ في أداء أعمــالِهم ووظائِفِهم بشتَّى صنوفِ الغشِّ، نَذْكُرُ منها على سبيل المثالِ ما يأتي:

- تضييعُ الوقتِ المخصَّصِ للعملِ أو الوظيفةِ، سواء مــن حيــث الالتحــاقُ بمكانِهما بعد الوقتِ المحدَّدِ، أو الخروجُ منهما قبل انتهائِهِ، أو إهدارُ جزءٍ منــه أثناء القيامِ بهما.

- البخلُ بِمَا هو في الإمكانِ من الجهدِ والخبرةِ، بحيث نَجدُ الواحدَ منــهم لا يكادُ يُعْطِي من قدراتِهِ وإمكاناتِهِ إلا النَّزْرَ اليسيرَ.

- عدمُ الحفاظ على الممتلكاتِ العامةِ من طاقةٍ كهربائيةٍ أو غازيةٍ أو مائيةٍ، أو أجهزةٍ ووسائلَ مختلفةٍ، أو بِنَايَاتٍ وأثاثٍ مُعَيَّنٍ.

وبناءً على هذه الصورِ وأمثالِها من أشكالِ الغشِّ المختلفةِ لم نتقدَّمْ خطواتٍ ذاتَ بالٍ نَحْوَ الرُّقِيِّ والازدهارِ، كما كان يَأْمَلُ شهداؤُنا ومجاهدُونا رغمَ مرورِ ما يُقاربُ الخمسةَ عقودٍ عن استقلالِنَا. بل إنَّنا أصبحْنَا مَضْرِبَ الْمَثَلِ في كثيرٍ من الأحيانِ للغشِّ واللاَّمُبَالاَةِ في أعمالِنَا ووظائفِنَا. في الوقتِ الذي نَجدُ فيــه الْأَلْمَانِيِّينَ والْيَبَانِيِّينَ مثلاً وهم غيرُ مؤمنين، قَدِ انطلقُوا بعدَ الحربِ العالميةِ الثانيةِ وهزيمتِهِم فيها، من تحتِ الصِّفْرِ؛ حيث كانت بَلَدَاهُمْ خَرَابًــا، ولم يكونــوا يَمْتَلِكُونَ ما نَمْلِكُهُ نحن من طاقاتٍ وثرواتٍ طبيعيــةٍ، أو مُحَفِّــزَاتٍ إيمانيــةٍ أخرويةٍ. ومع ذلك بَلَغُوا بعد الحربِ بعَقْدَيْنِ تقريبًا القمةَ في جميع مجالاتِ الحياةِ الماديةِ؛ وذلك راجعٌ إلى وَطَنِيَّتِهِم القويةِ، وإتقانِهِم وانــضباطِهِم في أعمــالِهِم ووظائفِهِم، وتقديمِهِم للغالي والنَّفيسِ لأجل النهوضِ بِبَلَدَيْهِمْ. فهَلاَّ كُنَّا مثلَهم

في وَطَنِيَّتِهم وإتقانِهم وتضحياتِهم[1]؟ ومِنْ قبلِ ذلك هَلاَّ كُنَّا في مستوى جهادِ وعَطَاءَاتِ آبائِنَا وأجدادِنَا مِمَّنْ نُحْيِي ذِكْرَاهم اليومَ؟ أَرْجُو أن يعودَ مَنِ ابْتُلِيَ بالغشِّ وعدمِ الإتقانِ إلى رشده، فيتوبَ إلى رَبِّهِ من ذلك؛ حتى لا يَتَبَرَّأَ منه النبيُّ ﷺ، فإنه هو القائلُ: «مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنِّي»[رواه مسلم].

4- ضعفُ الْهِمَّةِ في التحصيلِ العلميِّ لَدَى تلاميذِنَا وطلبتِنَا ومُتَخَرِّجِينَا: إذ إنَّنَا نُلاَحِظُ عُزُوفًا كبيرًا عن العلمِ الشرعيِّ والْكَوْنِيِّ عند عددٍ مُعْتَبَرٍ من أبنائِنَا وسائرِ الشرائحِ الاجتماعيةِ، إلى درجةِ أنَّ الْمُجِدَّ في تحصيلهما يَجِدُ نفسَهُ معزولاً غريبًا بين أقرانِهِ. ومِنْ مظاهرِ هذا الْعُزُوفِ:

- التَّسَرُّبُ المدرسيُّ، والخروجُ المبكرُ للتلاميذ من الدراسةِ الرسميةِ، بحيث لا يكادُ بعضُهم يُتِمُّ المرحلةَ الابتدائيةَ أو المتوسطةَ.

- الاكتفاءُ بالقراءةِ العابرةِ، والمراجعةِ السريعةِ للدروسِ والمحاضراتِ، أثناءَ فترةِ الامتحاناتِ، أو قُبَيْلَهَا بأيامٍ قليلةٍ على أحسنِ تقديرٍ.

- إنجازُ الواجباتِ العلميةِ المترليةِ، أو البحوثِ الفصليةِ، أو الرسائلِ الجامعيةِ، أو مذكراتِ التخرجِ من سائرِ الكلياتِ والمعاهدِ، في شكلٍ هزيلٍ.

- شيوعُ الغشِّ في الامتحاناتِ الرسميةِ، حتى أصبحَ البعضُ يَعْتَبِرُهُ حقًّا من حقوقِهِ المشروعةِ، والوسيلةَ الأساسَ للنجاحِ.

---

[1]- يَقْتَصِرُ مجالُ الاقتداءِ بالألمانيِّين واليبانيِّين على قوةِ وطنيَّتِهم، وإتقانِهم في أعمالهم ووظائفهم، وبُلُوغهم القمةَ في الجوانب المادية؛ لأنَّهم من حيثُ الدينُ وبعضُ الجوانبِ الأخلاقيةِ في تَرَدٍّ كبيرٍ، إذ ينتشرُ عندهم الإلحادُ والوثنيةُ والخرافاتُ النصرانيةُ، وكذا الإباحيةُ والانفصامُ الأسريُّ، ونحوُ ذلك من صُوَرِ التَّرَدِّي الدينيِّ والأخلاقِيِّ.

- الانقطاعُ عن المطالعةِ والبحثِ والاستزادةِ من العلمِ، بمجرَّدِ الحصولِ على الشهادةِ، أو الوصولِ إلى الدرجةِ العلميةِ المعينةِ.
- عدمُ الاكتراثِ بمجالسِ العلمِ الشرعيِّ، والدروسِ والمحاضراتِ التي تُعْقَدُ في المساجدِ، أو دُورِ العلمِ والثقافةِ المختلفةِ.

فهذه المظاهرُ السَّلْبِيَّةُ في مجالِ العلمِ وتحصيلِه ينبغي أن تزولَ عن أبنائنا ومُثَقَّفِينَا؛ لأننا نحن المسلمين أمةُ العلمِ، بحيث ما طَلَبَ ربُّنا منَّا أن نَسْتَزِيدَ من شيءٍ إلا منَ العلمِ، قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾[طه:114]. وجَعَلَ النبيُّ ﷺ طَلَبَهُ من فرائضِ الإسلامِ عندما قال: ﴿طَلَبُ العلمِ فريضةٌ على كلِّ مسلمٍ﴾[رواه ابن ماجة]. نَاهِيكَ على أنَّ إِعْلاَءَ بلادِنَا الذي كان يَنْشُدُهُ شهداؤُنا ومجاهدُونا لن يكونَ إلا بالعلمِ، ولذلك قال الشاعرُ:

بالعلمِ والمالِ يَبْنِي الناسُ مُلْكَهُمْ لَمْ يُبْنَ مُلْكٌ على جهلٍ وإِقْلاَلٍ

5- فِعْلُ ما يُزَعْزِعُ أَمْنَ البلادِ واستقرارَهَا: ففي الوقتِ الذي يُنْتَظَرُ فيه من جميعِ الجزائريِّين أن يُحَافِظُوا على الْكَنْزِ العظيمِ الذي وَرَّثَهُ لهم أسلافُهم من الشهداءِ والمجاهدين، وهو البلادُ الآمنةُ المستقرَّةُ بعد دَحْرِ الْمُسْتَدْمِرِ الْمُسْتَخْرِبِ منها، نَجِدُ أنَّ بعضًا منهم مِمَّنْ تَخَلَّى عن قِيَمِ دينِه الحنيفِ، وتَنَصَّلَ من مبادئِ ثورتِهِ المجيدةِ، يفعلُ مَا مِنْ شأنِه أن يُهَدِّدَ البلادَ في أمنِهَا واستقرارِهَا. وأَعْنِي بذلك ما يتعلَّقُ بالمنخرطين في سلكِ الجريمةِ الْمُنَظَّمَةِ، سواء أولئك الذين خَرَجُوا عن شعبِهم، وحَمَلُوا السلاحَ ضِدَّهُ، أو أولئك الذين كَوَّنُوا شبكاتٍ للتنصيرِ أو الاختطافِ أو التهريبِ أو التزويرِ أو الدعارةِ أو ترويجِ المخدراتِ وسائرِ الخمورِ. فهؤلاءِ جميعًا، وكلُّ مَنْ تَتَسَرَّبُ إليه فكرةُ الانضمامِ إليهم، والعملِ معهم، عليهم أنْ يَعْلَمُوا بأنهم بصنيعهم ذاك قد تَجَاوَزُوا عن تعاليمِ دينِهم الذي

يُعَظِّمَ مِنْ أَمْرِ أَمْنِ الأوطانِ واستقرارِهَا. يقول النبيُّ ﷺ: ﴿مَنْ أصبحَ منكم آمِنًا في سِرْبِهِ، مُعَافًى في جسدِهِ، عنده قُوتُ يومِهِ، فكأنَّما حِيزَتْ له الدنيا بِحَذَافِيرِهَا﴾[رواه الترمذي]. كما أنَّ شهداءَ الوطنِ ومُجَاهِدِيهِ، سيُحَاجُّونَهم عند اللهِ تعالى يومَ القيامةِ؛ لأنَّهم ضَيَّعُوا أمانتَهم، وبَخَّرُوا آمالَهم في أن تَصِيرَ الجزائرُ آمنةً مستقرةً.

وأريدُ أن أَخْتِمَ كلامي بإيرادِ أبياتٍ للشاعرِ الجزائريِّ الكبيرِ محمد العيدِ آلِ خليفةَ -رحمهُ اللهُ تعالى-، فإنَّ فيها حَوْصَلَةً لِمَا ذُكِرَ آنفًا، ونصيحةً ثمينةً من رجلٍ عظيمٍ مُخْلِصٍ بصيرٍ مُخَضْرَمٍ، عَاشَ الْحِقْبَةَ الاستدماريَّةَ بمرارتِهَا وتضحياتِ الشعبِ فيها، وأدركَ فترةَ الاستقلالِ بحلاوتِها والتَّحَدِّيَاتِ التي شَهِدَتْهَا. يقولُ رحمةُ اللهِ عليه:

إنَّ ذكرى الشهيدِ أَرْفَعُ مِنْ أَنْ ... ترفعُوها بالصخرةِ الصَّمَّاءِ

فأقيمُوا لَهَا تماثيلَ عِزٍّ ... في قلوبٍ ثَوْرِيَّةِ الأهواءِ

واقْتَدُوا وائْتَسُوا بهم في الْمَزَايَا ... إنهم أهلُ قدوةٍ وائْتِسَاءِ

واخْلُفُوهُمْ بالصدقِ في خدمةِ الشعْـ ... ـبِ وفي أَهْلِيهِمْ وفي الأبناءِ

إنهم قادةُ الْفَيَالِقِ في الزَّحْـ ... ـفِ لِخَوْضِ المعاركِ الحمراءِ

إنهم رَادَةُ البطولةِ في النَّصْـ ... ـرِ وعِزِّ الْحِمَى ورَفْعِ اللِّوَاءِ

إنهم أَوْفَوْا العهودَ فهلْ أَنْـ ... ـتُمْ لِمِيثَاقِهِمْ مِنَ الأوفياءِ

أسألُ اللهَ تعالى أن يَتَغَمَّدَ شهداءَنا بواسعِ رحمتِهِ، وأنْ يُسْكِنَهُمْ الفردوسَ الأعلى. كما أَسْأَلُهُ ﷻ أن يتقبَّلَ مِنْ مجاهدِينَا ومناضلِينَا جهادَهم ونضالَهم وما قَدَّمُوهُ في سبيلِ تحريرِ بلادِهم. اللهمَّ اجعلْنَا في مستوى تضحياتِهم. اللهمَّ اجعلْنَا خيرَ خَلَفٍ لخيرِ سلفٍ. وآخرُ دعوانا أنِ الحمدُ للهِ ربِّ العالمين.

الخطبة السادسة والعشرون

رسائل إلى أطراف العمليّة التربويّة التعليميّة[1]

إنَّنا في هذه الأيامِ على عَتَبَةِ حدثٍ اجتماعيٍّ مُهِمٍّ، أَلاَ وهو الدخولُ المدرسيُّ والجامعيُّ. وما مِنَّا إلاَّ وهو رجلُ تربيةٍ، أو تلميذٌ أو طالبٌ، أو وَلِيُّ أمرِ مُتَمَدْرِسٍ معيَّنٍ. لذا وَدِدْتُ أن أغتنمَ هذه الفرصةَ لِأُرْسِلَ ثلاثَ رسائلَ أخويَّةً، كلُّ رسالةٍ منها أُوَجِّهُهَا إلى شريحةٍ معيَّنَةٍ من الشرائحِ الاجتماعيةِ سابقةِ الذِّكْرِ.

الرسالةُ الأولى: وهي مُوَجَّهَةٌ إلى رجالِ التربيةِ: وأَعْنِي برجال التربيةِ المفهومَ الواسعَ لهذا المصطلحِ، بحيث يَشْمَلُ كلَّ العاملين في قطاعِ التربيةِ والتعليمِ بدون استثناءٍ. وعلى هذا فإنَّ الْمُديرينَ، ومستشاري التربيةِ والتوجيهِ ومساعديهم، والمعلمين والأساتذةَ، وسائرَ الإداريِّين والعمالِ والْحُجَّابِ بالمؤسسات التربوية، يدخلُون في مُسَمَّى رجالِ التربيةِ. أقولُ هذا؛ حتى لا يَسْتَثْنِيَ أحدُ العاملين في القطاعِ نفسَهُ؛ اعتقادًا منه أنَّ المسؤولَ عن التلاميذ تربيةً وتعليمًا إنما هم الذين يُبَاشِرُونَ هذه المهمَّةَ لا غير. ولتأكيد هذا المعنى يَحْسُنُ بي أن أَذْكُرَ موقفًا أَثَّرَ فِيَّ كثيرًا عندما عَايَشْتُهُ، حيثُ ذهبتُ مرةً إلى زيارةِ أحدِ الإخوةِ الأساتذةِ في بيته، فإذا بِي أَجِدُهُ رفقةَ أحدِ الشبابِ في الثلاثينيَّاتِ من عمرِهِ. فلمَّا أراد أن يُعَرِّفَنِي عنه قال لي: "أتدري مَنْ يكونُ هذا؟" قلتُ: "لا". قال: "هذا كلُّ شيءٍ

[1]- الوقتُ المناسِبُ لإثارة هذا الموضوعِ هو بدايةُ السنةِ الدراسيةِ الجديدةِ. كما يُمْكِنُ أن يُثَارَ في عيدِ العلمِ الذي يُوَافِقُ 16من أفريل، ذِكْرَى وفاةِ العلامةِ عبدِ الحميدِ بنِ باديس.

في المؤسسةِ التربويةِ التي أَعْمَلُ بها". فقلتُ في نفسي مستغرِبًا: "مَنْ سيكونُ هذا يا تُرَى في هذه المؤسسةِ، وهو شابٌّ في مُقْتَبَلِ العمرِ؟ فهو لن يكونَ مديرًا ولا مستشارًا تربويًّا بحكم صغرِ السنِّ. وعلى هذا فإنه سيكونُ على أحسن تقديرٍ أستاذًا معْطَاءً، أو مساعدًا تربويًّا حريصًا". فإذا بصاحبي يُفَاجِئُني فيقولُ: "إنه حاجبُ المؤسسة". فبَادَرْتُهُ بالسؤال قائلاً: "وكيف وصفْتَهُ بأَنَّهُ كلُّ شيءٍ في المؤسسة؟". فذَكَرَ عنه بأنه مِنْ أهلِ الجهةِ التي تتواجدُ بها المؤسسةُ، فهو يَعْرِفُ جُلَّ الطلبةِ، وبِحُكْمِ أنه يَعْتَبِرُ نفسَهُ رجلَ تربيةٍ -وهذا هو مَحَلُّ الشاهد عندي-، فإنه يُساهمُ بشكلٍ كبيرٍ في توجيهِهم ونُصْحِهم، سواء من حيثُ ترغيبُهم في التحصيل العلميِّ، أو من حيثُ تصويبُ انحرافاتهم الأخلاقيةِ. وعلى هذا، فكَمْ مِنْ طالبٍ انْتَشَلَهُ مِنْ شَبَحِ التسرُّبِ، وأقنعَهُ بالعودةِ إلى الدراسةِ. وكَمْ مِنْ طالبٍ ظهرتْ منه بَوَادِرُ الانحرافِ الأخلاقيِّ، فكان هو عاملٌ أساسٌ في إنقاذِهِ من مستنقعِ الفسادِ. فهو يُقَدِّمُ خدمات جليلةً زائدةً عن مهمتِهِ الأساسِ وهي الْحِجَابَةُ. ففهمتُ حينها لِمَ وصفَهُ بأنه كلُّ شيءٍ في المؤسسة، وهو جديرٌ بذاك الوصفِ؛ فهو حَقَّقَ ما عَجَزَ عنه، أو ما لم يَنْتَبِهْ له مَنْ هم مسؤولون عن مباشرةِ التربيةِ والتعليمِ.

ولذا فإنَّ جميعَ رجالِ التربيةِ بالمعنى آنِفِ الذكرِ مَدْعُوُّونَ لتحمُّلِ مسؤوليةِ تربيةِ النَّشْءِ وتعليمِهم بكلِّ ما أُوتُوا من قوةٍ؛ لأنَّ اللهَ سائلُهم يومَ القيامةِ عن ذلك. يقولُ النبيُّ ﷺ: ﴿كلُّكم راعٍ ومسؤولٌ عنْ رعيتِه﴾[رواه الشيخان]. وعليهم أن يَسْتَحْضِرُوا وهم يَقُومُونَ بمهمة الأنبياءِ والمرسلين أنهم يتقرَّبُونَ إلى الله تعالى بها. بل إنَّهُ مِنْ بركاتِ هذه المهمةِ النبيلةِ أنَّ أجرَهَا يَبْقَى مستمرًّا يلحقُهم حتى بعدَ وفاتِهم. يقولُ عليه الصلاةُ والسلامُ: ﴿إذا ماتَ ابنُ آدمَ

انقطعَ عملُهُ إلا مِنْ ثلاثٍ: صدقةٍ جاريةٍ، أو علمٍ يُنْتَفَعُ به، أو ولدٍ صالحٍ يَدْعُو له﴾[رواه مسلم]. وفي الوقت نفسه يجبُ أن يَحْذَرَ رجلُ التربيةِ من التفريطِ في مهمته أو التقصيرِ فيها؛ لأنَّ ذلك خيانةٌ للأمانة التي تَحَمَّلَهَا. يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَخُونُواْ اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[الأنفال:27]. بل إنْ وَقَعَ ذلك منه، فهو دليلٌ على ضعفِ إيمانِه، ومِنْ ثَمَّةَ فهو يحتاجُ إلى تجديدٍ وتَقْوِيَةٍ. يقول النبيُّ ﷺ: ﴿لاَ إيمانَ لِمَنْ لاَ أمانةَ له، ولاَ دينَ لِمَنْ لاَ عَهْدَ له﴾[رواه أحمد]. أُذَكِّرُ بهذا؛ لأنَّ بعضَهم يَنْشَغِلُ خلالَ السنةِ الدراسيةِ بأعمالٍ وأنشطةٍ علميةٍ أو اقتصاديةٍ أو اجتماعيةٍ أخرى[1]، قد تكونُ على حسابِ وقتِه الذي مِنَ المفروضِ أن يُسَخِّرَهُ في أداءِ مهمتِه التربويةِ التعليميةِ. فهؤلاءِ يُقَالُ لهم: إنْ كان بإمكانكم أنْ تُوَفِّقُوا بين عملِكم الرسميِّ وأنشطتِكم الموازيةِ له، فلا بَأْسَ. وإلاَّ فإنَّكم مُطَالَبُونَ بالتَّخَلِّي عن أحدِهما. كما أنَّ بعضَهم ربَّما لَبَّسَ عليه الشيطانُ من بابِ أنَّ الرَّاتِبَ الذي يَتَقَاضَاهُ لا يَتَنَاسَبُ مع متطلباتِ الحياةِ وغَلاَئِهَا -وهذا طَرْحٌ فيه جانبٌ من الصحةِ-، فلا يُقَدِّمُ من إمكاناته إلا القليلَ -وهذا هو الإشكالُ-. فهؤلاءِ يُقَالُ لهم: بما أنَّكم تَعْرِفُونَ مُسْبَقًا ما ستَتَقَاضَوْنَهُ من أجرٍ على وظيفتكم، وقَبِلْتُمْ به، ووَقَّعْتُمْ عليه، فإمَّا أن تقوموا بها على أحسنِ وجهٍ، أو أن تَسْتَقِيلُوا.

[1]- مثالُ النشاطِ العلميِّ الذي يقوم به رجلُ التربيةِ ويُؤَثِّرُ سلبًا على مردودِه التربويِّ التعليميِّ: انتسابُهُ إلى جامعةٍ معينةٍ بعيدةٍ عن محلِّ عملِه؛ لأجل تَلَقِّي دروس المرحلةِ النظريةِ للماجستير. ومثالُ النشاطِ الاقتصاديِّ: دخولُهُ في مشروعٍ استثماريٍّ معيَّنٍ صناعيٍّ أو تجاريٍّ أو زراعيٍّ. ومثالُ النشاطِ الاجتماعيِّ: انضمامُهُ إلى جمعيةٍ خيريةٍ تَرْعَى شؤونَ شريحةٍ اجتماعيةٍ معينةٍ كالأيتام أو الْأُمِّيِّينَ ونحوِهم.

الرسالـــةُ الثانيةُ: وهي مُوَجَّهَةٌ إلى التلاميذِ والطلبة: أقولُ لهم فيها: إنَّكم أنتم مِحْوَرُ العمليةِ التربويةِ التعليميةِ، لذا فإنكم مُطَـالَبُونَ بالْجِـدِّ والاجتــهادِ في تحصيلكم العلميِّ؛ ائتمـارًا بـالأمرِ الإلهـيِّ القائـلِ: ﴿وَقُـل رَّبِّ زِدْنِـي عِلْماً﴾[طه:114]، وللظَّفَرِ بفضائل العلمِ وبركاتِه الكثيرةِ التي منها:

- توليدُ الخشيةِ من الله تعالى في النفس. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾[فاطر:28].

- تَبَوُّؤُ المكانة الرفيعة في الدنيا والآخرة. قال ﷻ: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّـذِينَ آمَنُـوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَات وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[المجادلة:11].

- نَيْلُ الأجرِ العظيمِ الذي يُمَكِّنُ صاحبَهُ من دخول الجنة. قال النبيُّ ﷺ: ﴿مَنْ سَلَكَ طريقًا يَلْتَمِسُ فيه علمًا، سَهَّلَ اللهُ له به طريقًا إلى الجنة﴾[رواه مسلم].

- تَشْيِيدُ البلادِ وإعلاؤُهَا وتقويتُهَا، وحمايتُهَا من طَمَعِ العدوِّ فيها. قال الشاعرُ:

العلـمُ يَبْنِـي بيوتًا لا عِمَـادَ لها   والجهـلُ يَهْدِمُ بيوتَ الْعِزِّ والشَّرَفِ

وحتى يُحَصِّلَ طالبُ العلمِ هذه الفضائلَ، ويَظْفَرَ بتلك البركاتِ، ينبغي عليه وهو يتعلَّمُ أن يُرَاعِيَ جملةً من الأمور نَذْكُرُ منها ما يأتي:

- الْحَذَرُ من الوقوعِ في المعاصي؛ لأنَّ المعصيةَ تَحْجُبُ على الطالـب الفهـمَ والاستيعابَ، وتُعَسِّرُ عليه عمليةَ حفظِهِ للمسائل. ولذا قَرَنَ اللهُ تعالى في كتابه العزيزِ بين التقوى والعملِ الصالحِ وبين الْفَتْحِ على العبد في العلومِ والمعـارفِ. فقال تعالى: ﴿وَاتَّقُواْ اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[البقرة:282].

ومنْ لطائفِ مواقفِ سلفنَا الصالحين التي تُذْكَرُ في هذا الْمِضْمَارِ، ما وَقَعَ للإمام الشافعيِّ -وهو الذي يَحْفَظُ ما يَقْرَأُهُ لأولِ وَهْلَةٍ-، لَمَّا تَعَسَّرَ عليه يومًا حِفْظُ وِرْدِهِ المعتادِ من العلمِ، وشَكَا أمرَهُ إلى شيخِهِ وَكِيعٍ، فاستنطقَهُ الشيخُ، فإذا بـه

يُقِرُّ بأنَّ عَيْنَهُ قد وَقَعَتْ على امرأةٍ أجنبيةٍ عنه، فرأى منها شيئًا مِنْ سَاقِهَا، فبَيَّنَ له وكيعٌ أنَّ تلك النظرةَ المحرمةَ هي التي شَوَّشَتْ عليه في حفظِهُ وعَسَّرَتْهُ عليه، فأَنْشَدَ الشافعيُّ قائلاً:

شَكَـــوْتُ إلى وَكِيعٍ ســـوءَ حِفْظِي فأرشَـــدَني إلى تَـــــرْكِ المعـــاصي

وأخبــرَني بأنَّ العلـــــمَ نُـــــورٌ ونُـــورُ اللهِ لا يُهْـــــدَى لعـــاصي

- التزامُ الأدبِ والْخُلُقِ الحسنِ مع الشيخِ وسائرِ المشرفين على العمليةِ التربويةِ التعليميةِ، وكذا مع جميعِ زملائِه في طلبِ العلمِ؛ ائتمارًا بأَمْرِ النبيِّ ﷺ القائـــلِ: ﴿وخَالِقِ الناسَ بخُلُقٍ حَسَنٍ﴾[رواه الترمذي]، ومِنْ أَوْلَى الناسِ الذين ينبغي أن يَتَخَلَّقَ معهم طالبُ العلمِ بالْخُلُقِ الحسنِ مُعَلِّمُوهُ ورفاقُهُ في التَّعَلُّمِ. ولذا قـــال بعضُ السلفِ: "تَعَلَّمُوا العلمَ، وتَعَلَّمُوا للعلمِ الأدبَ". وقال الشاعرُ الحكيمُ:

لا تَحْسبَـــنَّ العلـــمَ ينفـــعُ وحـــدَهُ ما لـــم يُتَـــوَّجْ رَبُّـــهُ بِخَـــلاَقٍ

- العملُ بِمُقْتَضَى العلمِ، فإذا كان العلمُ شرعيًّا أَصْلَحَ به حَالَهُ، وإذا كان دنيويًّا أَفَادَ به أُمَّتَهُ؛ لأنَّ طالبَ العلمِ يَعْلَمُ بأنَّ رَبَّهُ سيسأَلُهُ يومَ القيامةِ عن أربعِ نِعَمٍ قبلَ أن يَعْرِفَ مصيرَهُ النهائيَّ أَإِلَى الجنةِ أم إلى النارِ. ومِنْ بين تلك النِّعَمِ نعمةُ العلمِ. يقول النبيُّ ﷺ: ﴿لاَ تزولُ قَدَمَا عبدٍ يومَ القيامةِ حتى يُسْأَلَ عن عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ، وعن علمِهِ فِيمَ فَعَلَ فيه، وعن مالِهِ مِنْ أين اكْتَسَبَهُ وفِيمَ أنفقَهُ، وعن جسمِهِ فِيمَ أَبْلاَهُ﴾[رواه الترمذي].

الرسالـــةُ الثالثةُ: وهي مُوَجَّهَةٌ إلى أولياءِ الْمُتَمَدْرِسِينَ: وهذه الشريحةُ تَـــشْمَلُ أساسًا وَالِدَيِ الولدِ المتمدرسِ، وكذا مَنْ يُعِينُهما عليه من أقاربِهِ الكبارِ، أو مَنْ يقومُ مقامَهما في حالةِ موتِهما، أو تقصيرِهما في تربيتِه، أو عجزِهما عنها لمرضٍ أو كِبَرِ سنٍّ، أو نحوِ ذلك من الأحوالِ والظروفِ. فهذه الشريحةُ عنصرٌ أساسٌ

من عناصر نجاحِ العمليةِ التربويةِ؛ ذلك أنَّ الولدَ في الغالب إذا وَجَدَ عنايةً من أبويْهِ، وحرصًا منهما على تحصيله العلميِّ وتكوينِهِ الجيدِ، فإنه سوف يجِدُّ ويجتهدُ، ويكونُ في مستوى عنايةِ وحرصِ أبويْهِ. والعكسُ صحيحٌ؛ فإنَّهُ إذا ما وَجَدَ إهمالاً منهما، سوف يَعْزِفُ عن الدراسةِ، ويَرْسُبُ فيها؛ لأنَّ سفاهةَ الصغرِ وطيشَهُ سيَتَغَلَّبَانِ عليه، فيَصْرِفَانِهِ عَمَّا فيه فائدتُهُ ومصلحتُهُ في الدنيا والآخرةِ[1]. ولذا حَمَّلَ النبيُّ ﷺ في حديث المسؤوليةِ الشهيرِ الأبويْنِ مسؤوليةَ تربيةِ الأولادِ وتعليمِهِم حيث قال: ﴿والرجلُ راعٍ في أهلِه ومسؤولٌ عنْ رعيتِه، والمرأةُ راعيةٌ في بيتِ زوجِها ومسؤولةٌ عنْ رعيتِها﴾[رواه الشيخان].

ولا يَظُنَّنَّ ظَانٌّ مِنَ الأولياءِ أنَّ مسؤوليتَهُ قاصرةٌ على تحضيرِ الوثائقِ التي تُثْبِتُ هُوِيَّةَ الولدِ، وتسجيلِهِ في مدرسةٍ معينةٍ، وتسديدِ حقوقِ التسجيلِ، وتوفيرِ الملابسِ والأدواتِ المدرسيةِ وسائرِ الْمُسْتَلْزَمَاتِ الماديةِ. فهذه الأمورُ لا شَكَّ أنها مطلوبةٌ منهم تِجَاهَ أولادِهِم، وهم مأجورون عليها، بل إنَّ أحدَهم لو قَصَّرَ فيها لَتَحَمَّلَ وِزْرًا كبيرًا أشارَ إليه النبيُّ ﷺ بقوله: ﴿كَفَى بالمرءِ إِثْمًا أن يُضَيِّعَ مَنْ

---

[1] - هذا في الغالب، وإلا فإنَّ بعضَ الأولادِ لا يُوَفَّقُونَ إلى التحصيلِ الجيدِ، وربَّمَا لا يُوَفَّقُونَ إلى النجاح في دراستهم، رغمَ عنايةِ آبائهم بهم، وحرصِهم عليهم؛ بحكم أنَّ إمكاناتِهم العقليةَ أو الجسديةَ لا تُمَكِّنُهم من ذلك، أو أنَّ اللهَ تعالى أراد أن يستخدمَهم في مجالاتٍ أُخْرَى يكونون فيها أنفعُ لأنفسِهم وأهليهم ومجتمعِهم، فصَرَفَهُمْ عن الدراسةِ. فالأبوانِ في هذه الحالةِ مأجورانِ على ما قَدَّمَاهُ من جهد، ومعذورانِ أمامَ الله ﷻ، وأمامَ هذا الولدِ عند يَكْبُرُ. وبالمقابل نَجدُ أنَّ بعضَ الأولادِ ممَّنْ أرادَ اللهُ تعالى أن يُوَفِّقَهم في المجالِ الدراسيِّ، يُحَقِّقُونَ نتائجَ حسنةً، وفي بعض الأحيانِ ممتازةً، رغمَ تَخَلُّفِ الأبويْنِ عن القيامِ بمهمةِ رعايتِهم وتوجيهِهم.

يَقُوتُ﴾[رواه أبو داود]. لكنِ الذي ينبغي أن يَنْتَبِهَ له الْوَلِيُّ أكثر هو: أنَّ عملية رعايةِ الأولادِ والحرصِ على تحصيلهم ونجاحِهم تَتَعَدَّى تلك الأمورَ لِتَشْمَلَ ما يأتي:

- اختيارُ المعلمِ أو الأستاذ الْكُفْءِ كفاءةً علميةً وتربويةً وأخلاقيةً لتدريس ابنِهِ؛ لأنَّ المدرسين والأساتذةَ يَتَفَاوَتُونَ في هذه الأمورِ -كما هو معلومٌ- تفاوتًا بَيِّنًا.

- اختيارُ الرفقةِ الصالحةِ لولدِهِ؛ حتى يتأَثَّرَ بها إيجابًا، إذ إنَّ أكثرَ وقتِهِ سيقــضيه معها: لعبًا، ومجالسةً، ومراجعةً للدروس، وذهابًا وإيابًا إلى المدرسةِ. والنبيُّ ﷺ يقول: ﴿الرجلُ على دينِ خَلِيلِهِ فلْينظرِ أحدُكم مَنْ يُخَالِــلُ﴾[رواه أبــو داود والترمذي]. والحكماءُ يقولون: "الصاحبُ سَاحِبٌ".

- مراقبةُ عمليةِ التحصيلِ ومتابعتُهَا على مَدَارِ السنةِ الدراسيةِ، من خلال الزيارةِ المتكررةِ للمدرسةِ، والنظرِ في كتبِ الولدِ ودفاترِهِ، ومُسَاءَلَتِهِ، وتحليلِ نتائجِــهِ، ونحوِ ذلك من صُوَرِ المراقبةِ والمتابعةِ.

- إلزامُ الولدِ بالْهِنْدَام اللائقِ بطالب العلمِ، وارتداءِ الملابسِ المحترَمَةِ الْمُنْــضَبِطَةِ بضوابط الشرعِ، خاصةً ما تَعَلَّقَ بالأنثى، وبشكلٍ أَخَصٍّ عندما تَدْخُلُ مرحلــةَ البلوغِ.

أسألُ اللهَ تعالى أن يُوَفِّقَ رجالَ التربيةِ في أداء مهمَّتهم النبيلةِ العظيمةِ، وأن يُبَارِكَ في التحصيل العلميِّ لتلاميذِنَا وطلبتِنَا، وأن يُكَلِّلَ اجتــهادَهم بالنجــاح والتفوُّقِ، وأن يُعِينَ الآباءَ والأمهاتِ على رعايةِ وتربيةِ وتعليمِ أبنائهم. ﴿رَبَّنَــا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً﴾[الفرقان:74].

والحمدُ لله الذي بنعمتِهِ تَتِمُّ الصالحاتُ.

ثلاث رسائل من القلب إلى القلب

ها نحن قد وُفِّقْنَا بمعونةِ اللهِ تعالى إلى إتمامِ صيامِ أيامِ رمضانَ وقيامِ لَيَالِيهِ. وها نحن قد وَدَّعْنَا البارحةَ ذاك الشهرَ الكريمَ الفضيلَ، وأصبحْنَا ونحن في يومِ الجائزةِ، يومِ عيدِ الفطرِ المبارَكِ، بين يديْ رَبٍّ كريمٍ مَنَّ علينا بفعلِ الخيرِ في رمضانَ، ثم يُثِيبُنَا عليه بالجزيلِ. فَلَهُ الحمدُ تعالى كما ينبغي لِجَلاَلِ وجهِهِ وعظيمِ سلطانِهِ، وكثيرِ نَعْمَائِهِ.

ومِنْ بابِ التواصي على الخيرِ والْبِرِّ، فإنني أريدُ أن أُوَجِّهَ إلى إخواني وأخواتي في الله تعالى في هذه المناسبةِ العطرةِ ثلاثَ رسائلَ صادرةٍ من قلبي، مُعَبَّرٍ عنها باللسانِ، راجيًا من الله تعالى أن تَخْتَرِقَ آذَانَهم لِتَصِلَ إلى قلوبهم.

الرسالةُ الأولى: كُنْ ربانيًّا، ولا تَكُنْ رمضانيًّا: ذلك أنَّ الأصلَ في المسلم أنْ يُسَخِّرَ حياتَهُ كُلَّهَا في عبادة اللهِ تعالى؛ لأنه يعلمُ أنه ما خُلِقَ إلا لأجل أداءِ تلك الوظيفةِ الساميةِ الشريفة. قال ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾[الذاريات:56-58]. وعلى هذا، فمَنْ كان يعبدُ رمضانَ، فإنَّ رمضانَ قد مَاتَ. ومَنْ كان يعبدُ اللهَ، فإنَّ اللهَ حَيٌّ لا يَمُوتَ. نقول هذا؛ لأنَّ عددًا مُعْتَبَرًا من المسلمين ينقطعون عن الطاعة بنسبةٍ كبيرةٍ بعد رمضانَ مباشرةً، وَيَسْتَسْلِمُونَ لنداء الشيطانِ والنفسِ الأمارةِ بالسوء، فَيَعْصُونَ اللهَ تعالى بشَتَّى

صنوفِ المعاصي. وهذا خَطَأٌ جسيمٌ، ينبغي أن يَحْذَرَ المسلمُ العاقـــلُ اللبيـــبُ الوقوعَ فيه؛ لاعتباراتٍ كثيرةٍ مِنْ أهمِّها الْأَمْرَانِ الْآتِيَانِ:

- إنَّ المقصدَ الأسْمَى من تشريع الصومِ، إنما هو إعدادُ المسلمِ لِيَكُونَ من المتقين الطائعين الخائفين من الله تعالى، الذين يَسْتَحْضِرُونَ رقابتَهُ عليهم في كلِّ مكانٍ وفي أَيِّ زمانٍ. وإلا فإنَّ المسلمَ حَالَ صيامِهِ ما تَرَكَ ما تَشْتَهِيهِ نفسُهُ وهـــو في حاجةٍ إليه إلا طاعةً لله تعالى، وخوفًا منه سبحانه، واستحضارًا لرقابته عليــــه. وهذا المعنى هو ما صَرَّحَ به جلَّ وعلاَ عندما قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِـــبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[البقرة:183]. فعندما نرى الانتكاسةَ من المسلم بعد رمضانَ، فإنَّ ذلك يعني أنَّ المقصدَ الأهمَّ الْمُتَوَخَّى من تشريع الصيامِ ما تَحَقَّقَ فيه، فكأنه لم يَسْتَفِدْ من صـــيامِهِ شـــيئًا؛ بدليل أنه ما تَعَلَّمَ منه استدامةَ الإتيانِ بالطاعةِ، والإحجـــامِ عـــن المعـــصيةِ، واستحضارِ الرقابةِ الإلهيةِ عليه.

- إنَّ استقامةَ المسلمِ بعد رمضانَ نَسْتَشِفُّ منها أنَّ اللهَ تعالى قد قَبِلَ منه صومَهُ وسائرَ صالحاتِهِ التي أَتَى بها فيه؛ بدليل أَنَّهُ وَفَّقَهُ إلى الثباتِ على فعـــلِ الطاعـــةِ وتركِ المعصيةِ بعدَهُ، والقاعدةُ الشرعيةُ تقولُ: "إنَّ مِنْ علاماتِ قَبُـــولِ العمـــلِ الصالحِ مِنَ المسلمِ، أن يُوَفِّقَهُ اللهُ تعالى إلى عملٍ صالحٍ آخَرَ بعد الفراغِ منـــه". وبالمقابلِ فإنَّ الذي يَهْجُرُ الطاعةَ بعد رمضانَ، ويـــسمحُ لنفـــسه أن تَقَـــعَ في المعصية، نَخْشَى أن يكونَ ذلك علامةٌ على عدم قبولِ صيامِهِ وسائرِ أعمالِـــهِ الصالحةِ التي جاء بها في رمضانَ؛ بدليل انتكاستَهِ بعدَهُ مباشرةً.

لذا فإنَّني أُنَاصِحُ نفسي وإخواني وأخواتي في الله تعالى بأنْ نُحَافِظَ على مَعْنَى استدامةِ رقابةِ اللهِ تعالى علينا الذي حَصَّلْنَاهُ مِنْ خلالِ صومِنَا، ولْنُوَظِّفْ تلـــك

الشحنات الإيمانية التي عُبِّئْنَا بها في رمضانَ، لِنُقيمَ سائرَ أَيَّامِ السنةِ على ما يُرْضِيه عَنَّا جلَّ وعلاَ، وحِينَهَا بإمكانِنَا أنْ نُبَشِّرَ أنفسَنَا بأنَّ المقصدَ الْأَسْمَى من إيجابِ الصيامِ قد تَحَقَّقَ فينَا، وأنَّ اللهَ تعالى قد قَبِلَ مِنَّا صومَنَا وسائرَ أعمالِنَا الصالحةِ التي جَاهَدْنَا أنفسَنَا في رمضانَ لأجل القيامِ بها.

الرسالةُ الثانيةُ: صِلْ ما أَمَرَ اللهُ تعالى به أن يُوصَلَ: إنَّ اللهَ تعالى أَمَرَ عبادَهُ المؤمنين بأنْ يَصِلُوا أرحامَهم، وهم كلُّ مَنْ له رابطةُ دَمٍ مع الإنسانِ، ابتداءً بأصولِه وهم أَبَوَاهُ وأجدادُهُ مهما عَلَوْا، مرورًا بفروعِهِ وهم أبناؤُهُ وأبناؤُهم مهما نَزَلُوا، وانتهاءً بالحواشي وهم الإخوةُ وأبناؤُهم، والأعمامُ وأبناؤُهم، والأخوالُ وأبناؤُهم. قال اللهُ تباركَ وتعالى في الحديث القدسيِّ الجليلِ: ﴿أنا اللهُ، وأنا الرحمنُ، خلقْتُ الرحمَ، وشَقَقْتُ لها من اسْمِي، فمَنْ وَصَلَهَا وصلْتُهُ، ومَنْ قَطَعَهَا بَتَتُّهُ -أو قال: قَطَعْتُهُ-﴾[رواه أبو داود والترمذي]. وقال النبيُّ ﷺ: ﴿مَنْ كان يؤمنُ باللهِ واليومِ الآخرِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ﴾[رواه الشيخان].

ولا ينبغي أنْ نتصوَّرَ أنَّ الصلةَ قاصرةٌ على مجردِ الزيارةِ، بل إنَّ مفهومَهَا أوسعُ من ذلك بكثيرٍ. فلا شَكَّ أنَّ زيارةَ الأرحامِ مطلوبةٌ مطلقًا في سائر الأيامِ، وتتأكَّدُ في الأعيادِ والمناسباتِ السارةِ والْمُحْزِنَةِ. إلا أنَّ الاتصالَ بهم هاتفيًّا أو بشَتَّى وسائلِ الاتصالِ التقليديَّةِ أو الحديثةِ، ومشاركتَهم ماديًّا ومعنويًّا في كل ما يحتاجون فيه لمشاركةِ قريبِهم، وتقديمَ الهديةِ لهم، وكَفَّ الأذى عنهم، والتجاوزَ عن أخطائهم، ونحوَ ذلك كلِّه يدخلُ في مُسَمَّى الصلةِ. فمَنْ وُفِّقَ إلى التواصلِ مع أرحامِهِ، وتَمْتِينِ العلاقةِ بهم، فلْيَعْلَمْ بأنه مِنْ أصحابِ العقولِ الراجحةِ، والأفعالِ الصالحةِ، الذين أَعَدَّ اللهُ تعالى لهم النعيمَ الدائمَ في جناتِ عَدْنٍ. قال ﷻ: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى

إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلاَ يِنقُضُونَ الْمِيثَاقَ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ وَالَّذِينَ صَبَرُواْ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾[الرعد:19-24]. بل إنَّهُ مِنْ بركاتِ صلةِ الأرحامِ الكثيرةِ أنَّ اللّهَ تعالى يُعَجِّلُ لأصحابها الخيرَ في الدنيا، فيَسُوقُ لهم الأرزاقَ، ويباركُ لهم في الأعمارِ. قال النبيُّ ﷺ: ﴿مَنْ أَحَبَّ أن يُبْسَطَ له في رزقِهِ، ويُنْسَأَ له في أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ﴾[متفق عليه]. والعكسُ صحيحٌ؛ فإنَّ مَنْ يَقْطَعُ أرحامَهُ يطردُهُ اللّهُ تعالى من رحمته في الدنيا والآخرةِ. قال جلَّ وعلاَ عَقبَ آياتِ سورةِ الرعدِ السابقة: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾[الرعد:25].

الرسالةُ الثالثةُ: تَصَالَحْ مع مَنْ كنتَ قد تخاصمتَ معه: بما أنَّ الشيطانَ في الدنيا، فإنَّ الإنسانَ قد يَقَعُ بَيْنَهُ وبين أحدِ إخوانِه من المسلمين شيءٌ، سواء كان هذا الأخُ قريبًا أو صديقًا أو جارًا أو زميلَ عملٍ أو دراسةٍ، فتَفْسُدُ العلاقةُ التي بينهما. فههنا يجبُ عليهما أن يُبَادِرَا إلى التصالحِ فيما بينهما، خاصةً في الأعيادِ التي شَرَعَهَا اللّهُ تعالى لأجل أن تكونَ فرصةً للتسامحِ والتراحمِ. قال ﷻ: ﴿فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[الأنفال:01]. ولْيَحْذَرِ المسلمُ مِنْ أن يَرْكَبَ رأسَهُ، ويستجيبَ لشيطانِهِ ونفسِهِ الأمارةِ بالسوءِ، فيَنْتَهِكَ حرمةَ العيدِ بالإصرارِ على التَّهَاجُرِ

والتدابرِ؛ فإنَّ هذا الصنيعَ له آثارُهُ السلبيةُ العظيمةُ على صاحبِهِ. فمِنْ بين تلك الآثار:

- أنَّ رحمةَ اللهِ تعالى لا تنالُهُ في الدنيا ولا في الآخرة؛ ولذا رَبَطَ اللهُ تعالى بين التصالحِ وبين تَنَزُّلِ رحماته على عباده في قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[الحجرات:10].

- عدمُ قبولِ صلاتِهِ، وهو الذي يُتْعِبُ نفسَهُ في اليومِ والليلةِ بما شاءَ اللهُ تعالى مِنَ الصلواتِ فرضًا ونفلاً. يقول النبيُّ ﷺ: ﴿ثلاثةٌ لا تُرْفَعُ لهم صلاتُهم فوق رؤوسِهم شِبْرًا: رجلٌ أَمَّ قومًا وهم له كارهون، وامرأةٌ بَاتَتْ وزوجُهَا عليها ساخطٌ، وأَخَوَانِ مُتَصَارِمَانِ﴾[رواه ابن ماجة].

وعلى هذا، فإنَّ الْمُفْتَرَضَ في المسلم الذي يطمعُ في أن تَشْمَلَهُ رحمةُ اللهِ تعالى، والذي يعلمُ بأَنَّهُ لن يدخلَ الجنةَ إلاَّ بها[1]، وكذا الذي يريدُ أن يَجِدَ أجرَ صلواتِهِ زادًا يُثَقِّلُ به كَفَّةَ حسناتِهِ يومَ القيامة، سيَتَّكِلُ على اللهِ ﷻ، ويُجَاهِدُ نفسَهُ، ويُصَالِحُ مَنْ كان متخاصمًا معه. ولَرُبَّمَا كان المسلمُ قد حَلَفَ باللهِ تعالى على أن لا يتصالَحَ مع مَنْ تَخَاصَمَ معه، أو أن لا يُكَلِّمَهُ، أو أن لا يدخلَ له بيتًا، ونَحْوِ ذلك مِمَّا يُمْكِنُ أن يَحْلِفَ عليه، وهو الآن يريدُ أن يتقربَ إلى اللهِ جلَّ وعلاَ بالتراجعِ عَمَّا عَزَمَ عليه، فلا يَدْخُلَنَّ عليه الشيطانُ من بابِ أنه قد حَلَفَ، فلا ينبغي له أن يرجعَ في حَلْفِهِ؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ قد أغلقَ هذا البابَ الشيطانِيَّ عندما قال: ﴿مَنْ حَلَفَ على يمينٍ فرَأَى غيرَها خيرًا منها، فلْيَأْتِ

[1]- الدليلُ على هذا قولُ النبيِّ ﷺ: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الجنةَ أحدٌ إلاَّ برحمةِ اللهِ﴾. قال الصحابة ﷺ: "ولا أنت يا رسولَ اللهِ؟" قال: ﴿ولا أنا، إلاَّ أن يَتَغَمَّدَنِي اللهُ برحمتِهِ﴾[رواه أحمد].

الذي هو خيرٌ، ولْيُكَفِّرْ عن يمينه﴾[متفق عليه]. ولْيَجْعَلْ قدوتَهُ في ذلك أبا بكرٍ الصديقَ ﷺ؛ فإنه لَمَّا تَكَلَّمَ ابنُ خالته مِسْطَحُ بْنُ أُثَاثَةَ في عِرْضِ ابنته عائشةَ رضي الله عنها، ثم بَرَّأَهَا اللهُ تعالى مِنْ فوقِ سبعِ سماوات، أَقْسَمَ بالله أن لا يُحْسِنَ إلى مِسْطَحٍ بعد أنْ قَالَ ما قَالَ، وقد ثَبَتَتْ براءةُ ابنتِه. وكان أبو بكرٍ يُحْسِنُ إليه قبلَ ذلك؛ لقرابته وفقره وكَوْنه مِمَّنْ هاجرَ من مكةَ إلى المدينةِ. فأنزل اللهُ تعالى قولَهَ: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[النور:22]. فحَنَثَ أبو بكرٍ في يمينه، وكَفَّرَ عنها، وعاد إلى الإحسان إلى مِسْطَحٍ. قالت عائشةُ: "حَلَفَ أبو بكرٍ ﷺ أن لا يَنْفَعَ مِسْطَحًا ﷺ بنافعة أبدًا، فأنزلَ اللهُ تعالى قولَهُ: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ﴾ يَعْنِي: أَبَا بكرٍ، وقولَهُ: ﴿أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يَعْنِي: مِسْطَحًا، إلى قولِه: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. فقال أبو بكرٍ: "بَلَى، واللهِ يا رَبَّنَا إِنَّا لَنُحِبُّ أن تَغْفِرَ لنا". وعادَ لَهُ بما كان يَصْنَعُ"[رواه الترمذي].

نسألُهُ ﷻ أن يجعلَنَا رَبَّانِيِّينَ، وعلى الحقِّ ثابتين، إلى أن نَلْقَاهُ وهو راضٍ عنَّا. اللهمَّ تَقَبَّلَ مِنَّا صلاتَنَا وصيامَنَا وقيامَنَا وزكاةَ فطرِنَا وسائرَ صالحاتنا. اللهمَّ اجعلْنَا من الْوَصَّالِينَ لأرحامهم. اللهمَّ أَلِّفْ بين قلوبنا، وأَصْلِحْ ذاتَ بَيْنِنَا، واهْدِنَا سُبُلَ السلامِ. ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[الحشر:10]. ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الصافات:180-182].

خطبة عيد الأضحى

وقفاتٌ مع قصةِ ذبحِ إبراهيمَ لإسماعيلَ مِنْ خِلالِ سورةِ الصّافّاتِ

إنَّنا في هذا اليومِ الفاضلِ يومِ عيدِ الْأَضْحَى المباركِ في خاتمةِ العشرِ الأوائلِ من شهر ذي الحجةِ، تلك العشرُ التي قال عنها رسولُ اللهِ ﷺ: «مَا مِنْ أيامٍ العملُ الصَّالِحُ فيها أحبُّ إلى اللهِ ﷻ مِنْ هذه الأيامِ -يعني: أيامَ العشرِ-» قال الصحابةُ ﷺ: "يا رسولَ اللهِ، ولا الجهادُ في سبيل اللهِ؟" قال: «ولا الجهادُ في سبيل اللهِ، إلا رجلٌ خرجَ بنفسهِ ومالِهِ، ثُمَّ لَمْ يرجعْ مِنْ ذلك بشيءٍ»[رواه البخاري]. وها هم المسلمون في مشارقِ الأرضِ ومغاربِها قد اجتهدوا وتقرَّبوا إلى ربِّهم فيها بما وَفَّقَهُمْ إليه هو جلَّ وعلاَ من الطاعاتِ، وسيُتْبِعُونَهَا في ضُحَى هذا اليوم بقُرْبَةٍ عظيمةٍ، هي ذبحُ الأضاحي وإهْرَاقُ الدمِ؛ إحياءً لسنةِ والدِ الأنبياءِ والمرسلين إبراهيمَ ﷺ، عندما أراد أن يذبحَ ابنَهُ إسماعيلَ ﷺ؛ استجابةً لأمر اللهِ تعالى، ففَدَاهُ ﷻ بذِبْحٍ عظيمٍ.

وأنا أريدُ أن أغتنمَ هذه الفرصةَ المباركةَ، لِأَعْرِضَ على إخواني وأخواتي في الله تعالى بعضًا من الدروسِ والعبرِ المستخلَصَة من قصةِ الذبحِ والفداءِ كما وَرَدَتْ في سورة الصافاتِ؛ لنُحَقِّقَ بذلك المقصدَ الْأَسْمَى من تشريعِ الأضحيةِ.

الدرسُ الأولُ: الأبوةُ في صورتِهَا الكاملةِ هي التي تَجْمَعُ بين إبْدَاءِ العاطفةِ الْجَيَّاشَةِ في التعاملِ مع الأولادِ، مع تطبيقِ شَرْعِ اللهِ تعالى فيهم: إذ إنه ينبغي على المسلمِ أنْ يعرفَ بأنَّ أولادَهُ في حاجة إلى جُرْعَات مِنَ الرحمةِ والحنانِ؛ حتى يكونَ نُمُوُّهُمُ النفسيُّ طبيعيًّا، وإذا كَبُرُوا بَادَلُوا آباءَهم بذلك برًّا وإحسانًا.

وفي الوقت نفسه لا بُدَّ من إقامةِ شرعِ اللهِ فيهم، وذلك بأنْ لا تَحْمِلَهُ رحمتُهُ بهم على فِعْلِ ما مِنْ شأنِه أن يُغْضِبَ المولى جلَّ وعلاَ عليه، كأنْ لا يُلْزِمَهُمْ بالواجباتِ الشرعيةِ التي فَرَضَهَا اللهُ تعالى عليهم. ولقد ضربَ لنا النبيُّ ﷺ المثلَ الأعلى في هذا الجانبِ؛ ومِمَّا يدلُّ على ذلك ما جاء في الصحيحيْنِ مِنْ أَنَّهُ ﷺ لَمَّا احْتُضِرَ ابنُهُ إبراهيمُ، أَخَذَهُ فقبَّلَهُ وشَمَّهُ، ودخلَ عليه بعضٌ من أصحابه وإبراهيم يَجُودُ بنفسه، فجعلتْ عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ، فقال له عبدُ الرحمنِ بنُ عَوْفٍ رضي الله عنه: "وأنتَ يا رسولَ اللهِ؟" فقال: ﴿يَا ابْنَ عَوْف إنها رحمةٌ﴾، ثُمَّ أَتْبَعَهَا بأخرى وقالَ: ﴿إنَّ العينَ تَدْمَعُ، والقلبَ يَحْزَنُ، ولا نقولُ إلا ما يُرْضِي ربَّنَا، وإنَّا بفراقِكَ يا إبراهيمُ لَمَحْزُونُونَ﴾. فالنبيُّ ﷺ بَرَزَتْ عاطفتُهُ تجاهَ ابنِه من خلال التقبيلِ والشَّمِّ وذَرْفِ الدمعِ، ومع ذلك فإنه كان متحكمًا في نفسه ﷺ؛ فلم يَصْدُرْ منه ما يُخِلُّ بعقيدةِ القضاءِ والقدرِ.

وهذا الأمرُ نفسُهُ كان مِنْ أبينا إبراهيمَ تجَاهَ ابنِه إسماعيلَ عليهما الصلاةُ والسلامُ لَمَّا أُمِرَ بذبحه؛ حيث ظهرتْ عاطفتُهُ الأبويَّةُ القويةُ من خلال مُحَادَثَتِه ابنَهُ في موضوعِ الذبحِ بلطفٍ قائلاً: ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى﴾[الصافات:101-102]. ومع تلك العاطفةِ الجياشةِ خَضَعَ إبراهيمُ وانْقَادَ لأمرِ اللهِ تعالى، وأعانَهُ إسماعيلُ على ذلك، فصَرَعَهُ على شِقِّه لِيُبَاشِرَ عمليةَ الذبحِ، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾[الصافات:103].

نُذَكِّرُ الآباءَ بهذا؛ لأنَّ بعضَهم يكون قاسيًا على أولاده، حتى إنه لا يكادُ يظهرُ منه تُجَاهَهم مِنْ عاطفةِ الرحمةِ والشفقةِ شيءٌ؛ وذلك لأجل أن يُنْشِئَهُمْ -على حسب ظَنِّه- النشأةَ السويةَ التي لا تكونُ إلا بالصرامةِ الزائدةِ التي تصلُ إلى حَدِّ القسوةِ والجفاءِ. فهذا تَصَرُّفٌ خاطئٌ، يَتَرَتَّبُ عنه في أحيانٍ كثيرةٍ

عكسُ المقصودِ، وهو نشوءُ عُقَدٍ نفسيةٍ عند الأولادِ، ولَرُبَّمَا تَمَرَّدُوا عن آبائهم، ودخلوا عَالَمَ الفسادِ والانحرافِ. وبالمقابلِ نَجدُ بعضًا من الآباءِ قد أَسْرَفَ في إبرازِ رحمتِهِ بأبنائه إلى درجة ما يُسَمَّى بالدَّلَالِ الزائد، الأمرُ الذي يجعلُ هؤلاء الأبناءَ يتجاوزون عن بعض أحكامِ شريعتِهم، كأنْ يتهاونوا في أمر الصلاةِ، خاصةً ما يتعلقُ بأداءِ الصبحِ في وقتِهِ المحدَّدِ شرعًا، أو مسألةِ الحجابِ بالنسبة للبناتِ البالغاتِ، ونحوِ ذلك مِمَّا يُمْكِنُ أن يكونَ من مخالفاتٍ شرعيةٍ من هذا النوعِ من الأولادِ. ومع هذا التجاوزِ يَتَثَاقَلُ أولئك الآباءُ عن تصويبِ أخطاءِ أبنائهم؛ بسببِ طغيانِ العاطفةِ عليهم، فيكون الواحدُ منهم بذلك قد أساءَ إلى أبنائه من حيثُ أرادَ الإحسانَ إليهم، وقَصَّرَ فيما سيُسْأَلُ عنه يومَ القيامةِ. يقول النبيُّ ﷺ: ﴿الرجلُ راعٍ في أهلِه ومسؤولٌ عنْ رعيتِه، والمرأةُ راعيةٌ في بيتِ زوجِها ومسؤولةٌ عنْ رعيتِها﴾[رواه الشيخان].

ولذا فإنَّ الطريقةَ الْمُثْلَى في تعاملِ الآباءِ مع الأبناء هي طريقةُ نبيِّنَا محمدٍ ﷺ مع أبنائه، ومِنْ قبلِهِ طريقةُ إبراهيمَ مع إسماعيلَ عليهما الصلاةُ والسلامُ، تلك الطريقةُ التي تَجْمَعُ بين الرحمةِ بالوالدِ والشفقةِ عليه من جهةٍ، وإقامةِ شرعِ اللهِ فيه من جهةٍ أخرى.

الدرسُ الثانيُّ: الابنُ الْبَارُّ بوالديْهِ هو ذاك الذي يتلطَّفُ في مخاطبة والديْهِ، ويطيعُهما في المعروف: فيجبُ على الولد إذا خاطبَ والديْهِ أن يخاطبَهما بالقول اللَّيِّنِ؛ لأنَّ مكانَهما عالٍ، وفضلَهما عليه عظيمٌ. قال تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾[الإسراء:23-24]. كما أن

المسلمَ مُطَالَبٌ بأنْ يُطِيعَ والديْه فيما يَأْمُرَانه به، إذا ما لم يَكُنِ المأمورُ به مخالفًا للشرع. قال الله ﷻ: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ[1] وَفِصَالُهُ[2] فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[لقمان:14-15].

وهذه التعاليمُ السَّمْحَةُ أَعْطَى إسماعيلُ عليه السلام الْمَثَلَ الأعلى في تطبيقها مع والده عندما أَنْبَأَهُ بأنَّ اللهَ تعالى أَمَرَهُ أنْ يَذْبَحَهُ، حيث رَدَّ عليه بلُغَة الظَّرِيف المطيعِ: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾[الصافات:102].

ولْيَعْلَمِ الأبناءُ أنَّ مَا يصنعُونَهُ مع آبائهم من بِرٍّ أو عقوقٍ، سيصنعُهُ بهم أبناؤُهم بعد ذلك. ولذا فإنَّ إبراهيمَ عليه السلام ما سَخَّرَ اللهُ له هذا الابنَ الْبَارَّ إلا لأنه كان بَارًّا مُتَلَطِّفًا مع والده قبلَ ذلك رغمَ شِرْكه. قال اللهُ تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَن فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْراهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً قَالَ

---

[1]– وَهْناً عَلَى وَهْنٍ: تَعَبًا على تَعَبٍ، فتدخُلُ في ذلك أتعابُ الحملِ والولادةِ والرَّضَاعِ والْحَضَانَة.

[2]– فصالُهُ: فطامُهُ.

سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً[1] وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيّاً فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلّاً جَعَلْنَا نَبِيّاً وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً﴾[مريم:41-50].

الدرسُ الثالثُ: التأكيدُ على قاعدتَيْ: "إنَّ مع العسرِ يسرًا"، وأنَّهُ "كَمْ من محْنَة تَحْملُ في طَيَّاتهَا منْحَةٌ": وهَاتَان القاعدتان قُرْآنيَّتَان، قال اللهُ تعالى مُقَرِّرًا الْأُولَى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[الطلاق:02-03]، وقال في الآيتيْنِ الرابعةِ والسابعةِ على التوالي من السورة نفسهَا: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً﴾، ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً﴾. أما القاعدةُ الثانيةُ فقد قرَّرَهَا ﷻ بقوله: ﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة:216]، وبقوله أيضًا: ﴿فَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً﴾[النساء:19].

والمتأملُ في حَيْثيَّاتِ قصةِ الذبحِ والفداءِ يَجدُ تأكيدًا على هاتيْنِ القاعدتيْنِ؛ ذلك أنَّ إبراهيمَ عليه السلام وَجَدَ نفسَهَ -وهو العبدُ الصَّالحُ، والنبيُّ الْمُرْسَلُ- في عسرٍ شديد، ومحنة كبيرة، عندما ابتلاه اللهُ تعالى بذبحِ ابنه فِلْذَة كَبِده، ووَحيده آنذاك، والذي رُزقَ به في شيخوخته. لَكنْ لَمَّا رأى اللهُ تعالى منه استجابةً لأمرِه، فَرَّجَ عنه هَمَّهُ، ويَسَّرَ عنه بعد العسرِ، وحَوَّلَ محْنَتَهُ إلى منَحٍ تَتَالَتْ عليه؛ حيث إنه تعالى:

---

[1]- حَفِيًّا، أي: لطيفًا بي، مُكْرِمًا لي، يُجيبُني إذا ما دعوتُهُ.

- نَجَّى ابنَهُ إسماعيلَ عليه السلام من الذبحِ، وأَبْقَاهُ على قَيْدِ الحياة، ثم أكرمَ هذا الابنَ بالنبوةِ، ثم كان من نَسْلِه أفضلُ الأنبياءِ والمرسلين وخاتمُهم محمدٌ ﷺ.

- أكرمَهُ بكبشِ الفداءِ الذي خَلَّدَ ذِكْرَ إبراهيمَ في العالمين إلى قيام الساعة. وها نحن المسلمين نَذْكُرُهُ بخيرٍ، ونصلي ونسلِّمُ عليه، ونُحيِي ذِكْرَاهُ في كلِّ سنةٍ بمناسبةِ عيدِ الْأَضْحَى.

- بَشَّرَهُ بابنٍ آخرَ وهو إسحاقُ عليه السلام الذي كُرِّمَ بالنبوة أيضًا، وكان منه صُلْبِهِ النبيُّ يعقوبُ عليه السلام، ثم خرجَ مِنْ هذا الأخيرِ جمعٌ من الأنبياء والمرسلين.

قال اللهُ تعالى مُلَخِّصًا كلَّ ما سَبَقَ: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾[الصافات:103-113].

وعلى هذا، فإنَّ الأصلَ في المسلم وهو في الدنيا، إذا ما حَلَّ به البلاءُ أن يَتَّكِلَ على الله تعالى ويَصْبِرَ ويَحْتَسِبَ، ولا يَصْدُرَ منه إلا ما يرضي ربَّهُ عز وجل، ويُسَلِّيَ نفسَهُ بأنَّ الفرجَ قريبٌ، وأنَّ العسرَ لا مَحَالَةَ يَتْبَعُهُ اليسرُ، بل إنَّ تلك الْمِحْنَةَ التي ابْتُلِيَ بها تَحْمِلُ في طَيَّاتِهَا كثيرًا مِنَ الْمِنَحِ الرَّبَّانِيَّةِ، التي سَيَذُوقُ ثَمَرَاتِهَا الطيبةَ في الدنيا والآخرَة.

نسأَلُهُ سبحانه وتعالى أن يجعلَنَا مِنَ الْبَارِّينَ بآبائهم، ومِنَ القائمين على شؤونِ أبنائهم. اللهمَّ اغفرْ ذنوبَنَا، واسْتُرْ عيوبَنَا، واكْشِفْ كُرُوبَنَا، وتَقَبَّلْ مِنَّا طاعاتِنَا، وتَجَاوَزْ عن زَلاَّتِنَا. وآخرُ دعوانا أنِ الحمدُ لله ربِّ العالمين.

الخاتمة

بعد عرضِ هذه النماذجِ من الخطب التي بذلَ الخطيبُ في إعدادها جهدَه، من حيث جمعُ مادتها العلمية، ثم تنقيحُ وتهذيبُ تلك المادة؛ لِتُقَدَّمَ -إنْ شاءَ اللهُ تعالى- للمستمعِ أو القارئ في قالبٍ مُمَنهجٍ، وأفكارٍ متسلسلةٍ، وأسلوبٍ سَلِسٍ، ولغةٍ سليمةٍ، أريد أن أُلفتَ نَظَرَ إخواني الأئمةِ الذين يَوَدُّون أن يَصلوا إلى قلوب مأموميهم، وأن يؤثِّروا فيهم، وأن تَصل إليهم الرسالةَ التي يريد الخطيبُ أن يبلِّغها لهم، أريد أن أقولَ: إن هذا الهدفَ النبيلَ المنشودَ لا يَتَأَتَّى للخطيب إلا إذا اجتمعت فيه أمورٌ أهمُّها:

1- الإخلاص لله تعالى في الدعوة إلى الله تعالى عن طريق الخطبة؛ إذ إنَّ الخطيبَ المخلصَ يَشعُّ منه نورٌ أثناء مخاطبتِهِ للناس، يجعل الطريق ممهَّدًا إلى قلوبهم للتَّقَبُّلِ منه.

2- جودةُ الإعدادِ للخطبة علميًّا ولغويًّا ومنهجيًّا، وأحسِب أني قد أعطيتُ في هذه البَاقةِ نموذجا طيِّبا في ذلك.

3- حُسْنُ الإلقاءِ، باستعمال النَّبرةِ أو الحركةِ المناسبتيْنِ للموضوع المعيَّنِ، أو الفكرةِ الْمُحَدَّدَةِ.

4- وحدةُ موضوعِ الخطبةِ؛ فلا يُقْحِمُ أكثرَ من موضوع في خطبةٍ واحدةٍ، بل ينبغي أن يُفْرِدَ لكل موضوعٍ خطبةً خاصةً به؛ حتى يُعْطِيَهُ حقَّهُ من المعالَجة، ولا يُشَتِّتَ ذهنَ المخَاطَبِ.

5- التوسُّط في الحجم الزمني للخطبة، دون اختصارٍ مُخلٍّ، ولا إطنابٍ مُملٍّ. وأَقْتَرِحُ أن تكون صلاةُ الجمعةِ أو العيدِ بخطبتيْها في حدود النصف ساعة[1].

6- إثارةُ الموضوعِ المعيَّنِ في الوقت الذي يناسبه، فلو أُثير موضوعٌ مهما كانت أهمِّيَّـــتُهُ من غير مناسَبَةٍ لَكان الخطيبُ في وادٍ، والمخاطَبين في وادٍ آخَر.

7- أن يُعطيَ الإمامُ من نفسِه للمأموم القدوةَ الحسنةَ، بحيث لا يسمع منه شيئا نظريًّا، ثم يرى منه عكسَه عمليًّا؛ فإن التأثير فيه عمليًّا أبلغُ من التأثير فيه قوليًّا.

وفي الختام أسأل اللهَ أن يكون عملي هذا خالصًا لوجهه الكريم، وأن يوفقني وسائرَ إخواني الخطباء في أداء مهمتنا الشريفةِ العظيمةِ على أتمِّ وجهٍ، إنه علـــى ذلك قديرٌ، وبالإجابة جديرٌ، إنه نعم المولى ونعم النصير.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

﴿سُبْحَانَ رَبِّـــكَ رَبِّ الْعِـــزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الصافات:180-182].

---

[1] - أَعْـــرِفُ أن هـــديَ النبيِّ ﷺ في خطبه أنه كان يُقَصِّر الخطبةَ ويطيل الصلاةَ، لكـــن يُمكن أن يُحْمَلَ هذا على أساس أنه ﷺ أُوتيَ جوامعَ الكلِم، فبإمكانه أن يصوغَ المعـــانيَ الكثيرةَ في العبارات القليلة، وأنَّ الصحابةَ ﭫ الذين هم مِنْ أرباب اللغةِ والبيانِ يفهمـــون عنه مقصودَهُ بسهولةٍ. لكنَّ الإمامَ المعاصِرَ لم يُؤْتَ جوامعَ الكلِم مهما كان مستواه اللغوي والأدبي، وعلى فَرَضِ أنه أُوتي شطرًا كبيرًا من ذلك، فإن عددًا مُعْتَبَرًا مِمَّن يستمع إليه لـــن يفهمَ عنه مقصودَهُ؛ بحكم الضعفِ اللغويِّ والأدبيِّ والثقافيِّ الذي هو طاغٍ في النـــاس في هذا الزمانِ، إلا مع شيءٍ من التوضيحِ والتمثيلِ. لذا اقترحتُ الثلاثين دقيقة؛ حتى نكـــون قريبين من هديِه ﷺ، وفي الوقت نفسِه نضمن وصولَ الفكرة للمخاطَبين، من غير استطرادٍ في الكلام الذي من شأنه أن يشـــرِّدَ أذهانَهم، ويُحْـــدِثَ فيهم السآمةَ والْمَلَلَ.

فهرس الموضوعات



عبد القادر بن خليفة بن الشايبي مهاوات ، من مواليد 20 ماي 1978 م بالوادي ، من عشيرة جبر الشرفة ، متزوج وأب لطفل

متحصل على شهادة الليسانس في العلوم الإسلامية في جوان 2000م ، تخصص الفقه وأصوله ، من كلية أصول الدين والشريعة والحضارة الإسلامية بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة ، [illegible] "عبد العزيز بوشعيب" ، تحصل على الرتبة الأولى في دفعته على مستوى الجامعة.

نال شهادة الماجستير في العلوم الإسلامية في سبتمبر 2005 من الجامعة والكلية نفسيهما ، بتخصص [illegible] ، وكان موضوع البحث بعنوان: "... أصول الفقه عند المالكية ..." ، بإشراف الدكتور "عمر حمدي"

- أهم الوظائف التي شغلها:
- خطيب ومدرس بمسجد عمر بن الخطاب بحي أولاد أحمد بمدينة الوادي.
- أستاذ بمعهد الآداب واللغات بالمركز الجامعي بالوادي.
- أستاذ لعلوم الشريعة بالتعليم الثانوي بعدد من الثانويات بولاية الوادي.

- من إنتاجه وإسهاماته العلمية والدعوية:
- بحث علمي أنجزه رفقة زميله الأستاذ "بن عمر ربح الله" بعنوان: "التنظير الأصولي بين المنهج الحداثي وفكر التجديد" ، وأصله مذكرة ليسانس مطبوعة ضمن سلسلة قسم الفقه وأصوله بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية ، ونوقشت علنا في 25 جوان 2000 م برئاسة الدكتور "مصطفى باجو" وأحرز بتقدير "مشرف جدا".
- مقالات نشرها في جريدة "الجديد" الأسبوعية بالجزائر العاصمة.
- ضيف دائم على برنامج "الدين والحياة" الذي يبث عبر أثير "إذاعة سوف" المحلية بالتنشيط مع مقدم البرنامج الأستاذ "أمين بلال" قضايا المجتمع من منظور شرعي.
- محاضرات ألقاها في ندوات وملتقيات محلية عبر ولاية الوادي في مناسبات مختلفة ، إضافة إلى إقامة عدة دورات في "علم المواريث".



الإيداع القانوني : 4004 - 2008

ردمك : 978-9961-933-07-7